جمال الغيطاني

منتهى الطلب إلى تراث العرب

دراسات في التراث

دار الشروق

التراث العربي
بين السابق.. واللاحق ..

لحسن حظي أنني بدأت أكتشف التراث داخلي منذ مرحلة مبكرة . التراث كامن داخلنا ، في سلوكنا ، في حياتنا اليومية . وأعني بذلك التراث بمفهوم شامل لا يقصره على حقبة معينة ، أو اتجاه معين . أعني التراث العربي المكتوب ، والشفاهي ، العمارة ، الرسم ، سائر الفنون . عوامل عديدة عمّقت إحساسي بالتراث ؛ منها طبيعة نشأتي في حي عتيق ، عريق ، مازال التاريخ القديم سيالاً حيًّا فيه ، لا يتمثل فقط في الآثار المعمارية ، مساجد كانت أو أسبلة أو بيوتا أو مزارات ، إنما يشمل العلاقات الإنسانية بالناس . إلى جانب ذلك رغبتي وطموحي منذ أن بدأت الكتابة في الخمسينيات ، وبالتحديد عام ١٩٥٩ ، إلى ابتكار أشكال جديدة من التعبير . وليس التوصل إلى أشكال فنية جديدة فقط هو الهدف في حد ذاته ، لكنها الرغبة في إيجاد أفضل شكل يتيح قدرًا كبيرًا من الحرية ، الحرية في الإبداع ، في التفكير ، في تجاوز أشكال الكتابة القديمة . شكل يحقق لي قدرًا أكبر من حرية التعبير . وقد وجدت، من خلال توجهي التلقائي إلى التراث العربي أن هذا التراث يحتوي على عناصر القصّ ، وفلسفة الرؤية التي تمكنني من تحقيق هذا القدر من الحرية . وأذكر ، عندما كتبت قصة « هداية أهل الورى لبعض ما جرى في المقشرة » أن أحد الأصدقاء قرأها مخطوطة ، وقال لي : إنها مرحلة جديدة في القصة ، ويومها عدت إلى البيت وأنا أردد بيني وبين نفسي « إنه يجاملني . . أحقًّا تمثل شكلاً جديدًا ؟!» ، ولكن بعد صدور مجموعتي القصصية الأولى «أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ، كتب النقاد عديدًا من الدراسات حولها . هذه الدراسات ساعدتني في بلورة وتعميق اتجاهي إلى التراث العربي ، والشعور الأعمق بالثقة فيه ، والاتجاه إلى وصل السابق باللاحق . إذ إنني نشأت على التراث العالمي في الإبداع وفي نفس الوقت كنت أعي شيئًا فشيئًا أن ثمة أشكالا من القص والحكي والرؤى ، قد انقطع عهدنا بها ، أو إذا جاز التعبير قد حدث انفصال بيننا وبينها . وقد جاء هذا الانفصال ، أو بدأت هذه الفجوة في

تقديرى اعتبارًا من نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، وبالتحديد منذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة الجنرال بونابرت ، حدثت هذه الفجوة فى الإبداع فى إطار توجه عام إلى الحضارة الأوربية ، شمل جميع المجالات ، بدءا من المعمار وحتى أساليب الكتابة ، وصاحب ذلك شعور عام أن الحضارة الأوربية هى المصدر وهى المرجع الذى ينسب إليه القياس ، ووصل ذلك فى بعض المراحل إلى شعور بالدونية الثقافية .

فى الفلسفة مثلاً نجد أن معظم الجهود التى تمت ، تمت فى حدود نقل فلسفات ولدت فى الغرب ، وشرحها . وفى الجانب المقابل نجد بعض الجهود التى اتجهت إلى شرح الفلسفة الإسلامية ، وإعادة نشر بعضها ، وليس كلها أو معظمها . ولم تتم حتى الآن محاولة متكاملة تستهدف التوصل إلى فلسفة ذات أصول عربية متكاملة ، وإن تنوعت الاجتهادات والجهود ، وأخص منها بالذكر جهود الدكتور إبراهيم مدكور فى تحقيق مصادر الفلسفة العربية والإسلامية وشرحها وتدريسها ، والجهد العلمى الممتاز الذى بذله الدكتور حسين مروة ، والدكتور الطيب التزينى ، والاجتهادات الأخيرة والدراسات التى يقوم بها الدكتور محمد عابد الجابرى والدكتور جلال أمين والدكتور محمد عمارة وعادل حسين والشاعر الكبير أدونيس ، كل منهم فى مجال اختصاصه ، وفى حدود اجتهاداته . وبالطبع فإن عرض أفكار كل منهم مما يخرج عن هدف هذا المقال . إن الجهود عديدة ، والقضية مثارة فى أكثر من مجال ، ولكن ما يعنينى هو المجال الإبداعى ، هو إعادة التئام الفجوة التى حدثت بين القديم والحديث ، بين السابق واللاحق ، بين ما تعلمته وترسب فى وجدانى من تراث عالمى ، وتراث عربى أصبح مهجورًا .

* * *

من خلال تجربتى الخاصة ، ومن خلال كتابات النقاد عنها ، والجهود الفكرية الحديثة التى تتخذ التراث العربى محورًا لها ـ ليس من منطلق سلفى بحت ، وليس بهدف التقوقع ، أو الاحتماء بالقديم ـ ومن خلال فهمى للتراث على أنه هذه العناصر الحية المستمرة فى واقعنا اليومى المعيش ، وفى عناصر الثقافة الشفاهية أو المكتوبة ، ومن خلال إحساسى بخطورة التوجه الكامل إلى الحضارة الأوربية ، والذى ترجع جذوره إلى الحملة الفرنسية ، أمكننى بداية تحديد المنابع أو المصادر التى يمكن أن نثرى بها فن القص العربى . ويمكننى أن أوجزها فيما يلى :

* هناك بالطبع المصادر التى يتحدد فيها القص العربى المباشر وأبرزها شكل المقامة ، والملاحم العربية الكبرى التى أصبح بعضها شعبيًا وشائعًا ، مثل سيرة عنترة وسيرة سيف

ابـن ذى يزن ، والـزير سـالم ، والأميرة ذات الهمة ، وأبـى زيد الهلالى . هنـاك أيضًا أيـام العرب ، ومـوسوعات الأمثال العـربية ، وأخص بالـذكر موسوعتين ، الأولى للميـدانى ، والثانية للزمخشرى . إن أهمية هـاتين الموسوعتين لا تقتصر فقط على إيرادهما لآلاف الأمثال العربيـة التى مـا زال كثير منها حيًّا حتـى الآن ، ولكن فى إيرادهما لمئـات الحكايـات التى تشرح الأحداث التـى أدت إلى ضرب هذه الأمثال . سوف نجـد فيهما فنًّا فريـدًا للقص ، خاصـة للقصة القصيرة ، أسلوبا خاصا جدًّا لا يمكن إلا أن نجده فى هذين المصدرين .

* أما الشـق الثانـى من المصـادر فلأسمه أسـاليب القـص غير المباشرة . ومـن ذلك حوليات التاريخ العربى الكبرى ، تلـك التى تسجل الأحداث التاريخية الكبرى ، والتى تصل فى دراميتها إلى مستوى العمل الإبداعى ، أو تـوحى بأعمال إبداعية كبرى . أو تلك الحوليات التى تسجـل ملامح الحياة العاديـة للناس فى أزمنة مختلفة . يمكننـا أن نجد هنا أساليب مختلفة للقص هذا من ناحية الشكل ؛ أما من ناحية المضمون فلاحدود للحوادث الموحية ، والتـى تضفى عمقًـا على الحاضر اليومى الآن . وهنـا أذكر حـوليات الطبرى ، وابن كثير ، والدينورى . أما فيما يتعلق بتاريخ مصر ، فإنه يكاد يكون مدونًا يومًا بيوم منذ الفتح العربـى وحتى يومنا هـذا ، بدءا من ابن عبـد الحكم ومرورًا بالقضـاعى والمسبحى والمقريزى وابن واصل وابن تغرى بردى وابن إياس وابن عبد الظاهر والجبرتى . بل إن هذا الشكل من الكتـابة « الحوليات » ينفرد به التراث العـربى . وهناك العديد مـن الدراسات الاستشراقية لعلم كتابة التاريخ عند العرب ، أبرزها دراسة روزنتال .

* ينفرد التراث العربـى أيضًا بوجود شكـل آخر من التأليـف ، أعتبره مصدرًا مهمًّا من مصادر القـص ، أقصد « الخِطـط » ، حيث يـدون تاريـخ المكان ، ليـس مجردًا ، إنما فى تطور ما جـرى عليه من أحداث ، وما تعـاقب عليه من بشر ، وما جـرى عليه من معمار وهدم . وأشير هنا إلى خِطط المقريزى ، وخِطط على بـاشا مبارك ، وخِطط الشام لمحمد كرد على .

* مؤلفات السِّحـر والتنجيم فى التراث العربى ، مثل شمس المعـارف الكبرى وتذكرة العارفين ، وغيرهما . وهنا أشير إلى التراث الشعبى فى هذا المجال فلم نكن نعيشه كتراث ، ولكن كواقع حى . فالطفل الذى يمرض وتعد لـه أمه حجابًا ، تفعل ذلك باعتباره تصرفًا حيًّا وجـزءًا من ممارسـاتها اليوميـة . قد يقول البعـض إننى أدعو إلى الخرافـة ـ فما أكثـر ما عانيت من سوء الفهم ـ ولكننى أبـادر إلى القول إننى أستلفت النظر إلى أساليب القص فى هذه المؤلفات ، وهو أسلوب جدير بالدراسة .

* وللتراث العربى فرع مهم يمكننى أن أسميه « كتب البحاث » والتى هى فى معظمها تفسير للعديد من الظواهر الطبيعية التى كان الذهن البشري يعجز عن تفسيرها بحكم محدودية العلم الطبيعي فى هذه الحقب . وأخص بالذكر كتاب عمر بن الوردى « خريدة العجائب » ، وكتاب إبراهيم بن وصيف شاه « مختصر العجائب » ، والجزء الأول من تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، لماذا ينظر البعض إلى هذا الجزء من التراث على أنه أقل من تراث الأساطير اليونانية ؟! ألم تحفل قصائد الشعر العربى بالرموز اليونانية بينما لم يجر التعامل مع التراث العربى بنفس القدر ـ باستثناء المرحوم الشاعر أمل دنقل ـ وأعود إلى القول أيضًا إننى لست ضد الميثولوجى اليونانى أو الإغريقى ، ولكننى أدعو إلى الاهتمام بنفس القدر ، بنفس المستوى بالتراث الأسطورى العربى ، أدعو إلى عدم اعتباره أقل شأنًا من التراث الذى تعلمناه من الغرب ، إن التوجه إليه ليس فقط لتفرده ، وإنما لأنه متصل بأعماقنا ، كثير من عناصره مستمرة فى حياتنا الحاضرة ، ومؤثرة أكثر مما نتصور ، لقد وجهت اهتمامى خلال السنوات الأخيرة إلى محاولة استيعاب التراثين الفارسى والهندى ، كثيرون منا يعرفون الإلياذة والأوديسة ، لكن كم اهتم بقراءة « المهابراتا » الهندية ، أو الشاهنامة الفارسية ، وهنا يجب الإشارة إلى صعوبة الحصول على مصادر هذين التراثين ، فالشاهنامة الفارسية التى ترجمها الدكتور عبد الرحمن عزام لم تطبع إلا مرة واحدة فى الأربعينيات وكذلك ترجمات الدكتور يحيى الخشاب للقصص الفارسية ، أما المهابراتا فلم تطبع إلا مرة واحدة فى بيروت ، والأدب الفارسى يظل محصورًا فى إطار الدراسات الجامعية على الرغم من الدراسات العميقة التى قدمها الدكتور حسين مجيب المصرى والدكتور أمين عبد المجيد بدوى وغيرهما من الباحثين ، للأسف فإن معرفتنا بتراث الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى تظل محكومة بما وصل إلينا عن طريق الغرب .

* من مصادر القص العربى أيضًا المؤلفات التى تدور حول الآخرة ، حول تصور ما سوف يجرى فى العالم الآخر . ومضمون هذه المؤلفات قائم على عملية إبداع متكاملة وأشهرها : « التذكرة فى أحوال الموتى والآخرة » للقرطبى ، ومؤلف آخر عن الآخرة للشيخ حسن العدوى ، إضافة إلى أن العديد من حوليات التاريخ تتناول هذا الموضوع .

* من أهم المصادر للقص العربى ، التراث الصوفى ، فى رأيى أن دراسة الأدب العربى لن تكتمل إلا بتوجه جديد إلى هذا التراث الروحى ، الصوفى ، وأن البحث عن أصول القصة العربية أو الرواية العربية ، أو فن القص العربى ، يجب ألا يقتصر على دراسة المقامة ، والمنامة (الوهرانى) ، والسير والملاحم إنما يجب أن يشمل التراث الصوفى ،

وبخاصة قصص الكرامات . فالكرامة باختصار هى خرق العادة ، والخروج إلى اللامألوف ، إلى تجاوز الواقع ، المكان والزمان . إنها قصص قصيرة ، مركزة ، موحية ، ضامرة المحتوى . إننى لست بصدد الخوض فى تفسير الكرامة أو تفسيرها ، ولكننى أحاول استلفات الأنظار إليها كجنس أدبى . وقد سبقنى إلى ذلك الدكتور على زيعور فى كتابه « الكرامة الصوفية » وهو جزء من موسوعته الكبرى « التحليل النفسى للذات العربية » وهى الدراسة العلمية الوحيدة لموضوع الكرامة . إن الخيال الإبداعى فى أدب الكرامة جدير بالتوقف طويلاً والتأمل . كثيرون انبهروا عندما قرءوا « مائة سنة من العزلة » وتوقفوا أمام مشهد طيران إحدى بطلاتها فى الهواء . والتراث العربى الصوفى حاشد بالذين مشوا فوق الماء ، وعدوا المسافات البعيدة فى الزمن القليل ، ولم يتوقف أمامهم أحد .

** تلك هى معظم العناصر التى توجهت إليها فى التراث العربى فى محاولة لتأصيل شكل عربى من القص . فى فرنسا ، سألنى أكثر من صحفى أو مثقف : هل عرف العرب فن الرواية ؟ وكنت أجيب قائلاً ، إن الفن القصصى العربى عرف أعظم ـ فى رأيى ـ نص قصصى فى العالم ، وهو ألف ليلة وليلة . ولكن عندما يوجه البعض مثل هذا السؤال ، فإنما يقصد الشكل الروائى كما عرفته الثقافة الأوربية ، هذا ما يبحثون عنه أو يتساءلون عنه فى التراث العربى . بالطبع لن نجد هذه الأشكال الإبداعية ، ولكن المؤكد أن التراث العربى فيه أشكاله الخاصة من القص .

* * *

إن همى الأساسى ينحصر فى البحث عن العناصر التى عرضتها سابقًا ، وتوجيه هذا كله إلى النشاط الإبداعى . غير أن الأمر لا يتم بمعزل عن أطراف عديدة ، منها مثلاً التوجه إلى الغرب ، واعتباره المصدر المهيمن الذى نستقى منه التقاليد الثقافية والأشكال الإبداعية والفلسفية ، وأساليب الحياة . إن هذا التوجه بدأ مع مجىء الحملة الفرنسية التى أحدثت صدمة حضارية لا شك فيها ، ولكن عند ما جاءت الحملة لم يكن فى منظور قائدها أو منظميها أو أفرادها نقل الحضارة الفرنسية إلى مصر ، وبالتالى إلى الشرق ، بل كان الهدف استعماريًّا بحتًا . صحيح أن نابليون أتى معه بالمطبعة ، ولكنه لم يأت بها ليطبع الكتب العربية ، إنما ليطبع المنشورات التى يوجهها إلى الشعب المصرى . وصحيح أنه أتى بالعلماء الفرنسيين ، ولكن لا لينقل العلم الحديث إلى أبناء الشعب ، بل ليدرس هذه البلاد تمهيدًا لجعلها هامشًا للحضارة الأوربية ، وتابعة . إن قراءة مصادر الحملة الفرنسية تؤكد نظرة المستعمر لديهم ، سواء فى اليوميات التى كتبها بعض قادة الحملة ، أو فى

الصحيفتين اللتين أصدرهما نابليون فى مصر : « كوريبه دى ليجيبت » و « لاويكاد اجبسيان » حيث ترد تعبيرات كثيرة ، مثل « الشعب الهمجى » ، « الجهلاء » ، «المتخلفون» . . إلخ . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة الحد القاطع الذى وضع حدًا لتطور طبيعى كان يمكن أن يمضى . إننى من المؤمنين بأن كلمة « لا » لا محل لها فى التاريخ ، فما حدث حدث وما جرى جرى . ولكن ما يدعونى اليوم إلى الاجتهاد، هو محاولة لتدارك آثار التوجه التام إلى الغرب ، بعد أن وصلت إلى حد خطير فى السبعينيات دخل إلى صميم حياة الناس اليومية ، وإلى البعد القيمى للمجتمع . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة بتر لتطور تاريخى ، يمكن أن يستمر فى مصر بشكل طبيعى . البعض منا لا يريد أن يرى أى إمكانية للنهوض أو التقدم خارج الأنماط الأوربية ، ولكن ما أريد أن أقوله هو أن مصر شهدت محاولات للتقدم والنهوض قبل مجيء الحملة الفرنسية بمعزل عن المؤثرات الأجنبية وأشير على المستوى السياسى إلى محاولة على بك الكبير التى أجهضت .

وفى رأيى ، أن بذور التحول الداخلى ، المنطلقة من الظروف الخاصة لواقعنا لم تدرس تمامًا .

لقد بدأت بدايات نهضة مبكرة فى مصر وتركيا قرب نهاية القرن الثامن عشر ، العثمانيون بدءوا محاولة إدخال تحسينات على الجهاز العلمى والإدارى والعسكرى بدأ ذلك فى عهد سليم الثالث . ولم تكن مجرد محاولات ، بل أصبح نهجًا ثابتًا تم إقراره على الرغم من المعارضة القوية فى عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) ، الذى قضى على عسكر الإنكشارية الذين كانوا يمثلون قوة محافظة تعمل على إبقاء أسس النظام القديم .

أما فى مصر، فلم يكن الأمر جامدًا عند مجيء الحملة الفرنسية ، بل كانت هناك إرهاصات أولى لهذا التطور، الذى كان ممكنا أن يمضى طبيعيًا لولا مجيء الحملة الفرنسية . ثم اتسعت الفجوة مع مجيء محمد على . وبالقضاء على المماليك فى مذبحة القلعة ، انقطع العهد تمامًا بالقديم وكل ما كان ممكنا أن يحمله من إمكانات ، وبدأ التوجه إلى الغرب .

لقد أوفد محمد على باشا البعثات إلى أوربا فى جميع المجالات ، وإلى مصر جاء الأوربيون ليحدّثوا الجيش ، وليؤسسوا مدارس الطب والهندسة والحربية . وأصبحت مصر فى عهده دولة قوية ، ووصلت جيوشه إلى مشارف الآستانة . غير أن نظام محمد على انهار فى عام ١٨٤٠ . هذا الانهيار استوقفنى طويلاً ، لماذا حدث ، وكأن النظام القوى الذى شيده محمد على أقيم فوق بحر من الرمال ؟! صحيح أن القوى الاستعمارية تضافرت عليه ، وقد كانت ومازالت إستراتيجية الاستعمار تحرص على عدم قيام دولة قوية فى مصر ، لأن مصر قلب العالم كما قال نابليون ، فى نفس الوقت كانت هذه القوى حريصة على تهوين الدور المصرى خصوصا الثقافى ، ومن خلال المثقفين الذين درسوا فى أوربا وعادوا إلى

مصر بدأ الاتجاه إلى الغرب يتخذ مسارًا أكثر عمقًا ، يمس البيئة الثقافية الأساسية للمجتمع ، وللأفكار ، والتقاليد والعادات . لقد كان هؤلاء مخلصين لوطنهم عندما درسوا فى الغرب ونقلوا العلوم الحديثة إلى مصر ، ولكن لم تبذل محاولة فى اتجاه محاولة استيعاب هذا الرافد ، من خلال القديم ، كما أن المؤسسات الثقافية التقليدية اتخذت موقفًا متحجرًا وانغلاقيًا تجاه العلوم الجديدة والأفكار الجديدة . وساهم النظام الحاكم فى تعميق الاتجاه إلى الغرب ، حتى أن الخديوى إسماعيل أعلن أنه يريد أن يجعل مصر قطعة من أوربا . لقد أصبحت أوربا إذن هى المثل ، وهى المرجع ، والمقصد . وبدأ ذلك ينعكس على أوجه الحياة المختلفة . ومع ذلك ، بدأ أيضًا الإحساس بالدونية تجاه الحضارة الأوربية وأنماطها الثقافية . يقول جمال الدين الأفغانى :

« لقد شيد العثمانيون عددًا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبابهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ . . نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية (القومية) وما شاكلها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والأبنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية وعدوها من مفاخرهم . . فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ! وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وهذا جذع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها ! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرحه الأعداء إليها ، وطلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم . . »[1] .

* * *

ربما كانت العمارة أقرب الفنون إلى الرواية ، من هنا جاء اهتمامى بها ، وبخاصة العمارة الإسلامية العربية التى نشأت فى ظلال جدرانها ، وانطبعت تفاصيلها على الصفحات الأولى من ذاكرتى . كما أن العمارة من ألصق الفنون بحياة الإنسان ، إذ إنها الإطار الذى

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى : ص ١٩٥ ـ ص ١٩٧ .

يقضى فيه حياته ، سواء فى بيته أو عمله ، أو عند تأدية شعائره الدينية . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

« . . ما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على الأرض وهو دائب الجهد فى تكييف الطبيعة حوله لملاءمة حاجاته الجسدية والروحانية ، وأنه كذلك بفطرته وحسه المرهف للجمال وعشقه للإبداع قد حاول أن يصوغ كل ما تشكله يداه فى قالب فنى ، يحكيه مرة صورة ومرة تمثالاً ومرة كلمة ومرة نغمة »[1] .

إذن . . العمارة امتداد للبيئة ، جزء من الواقع نفسه ، ولكل واقع عمارته ، ومفهومه الخاص لهذا الفن النابع من الواقع ، من المناخ ، من التقاليد الاجتماعية ، من المواد المحلية المتاحة . وقد كانت العمارة العربية نابعة من الواقع نفسه ، تتكيف معه وتخضع لخصائصه . وإذا ما دخلنا أحد بيوت القاهرة القديمة ، على سبيل المثال بيت السحيمى ، سوف نجد عمارته تعكس التقاليد الاجتماعية ، والتقاليد الفنية . فالبيت مفتوح على الداخل ، حياة الإنسان الخاصة مَصُونة . النوافذ تطل على الفناء الداخلى حيث الحديقة تمامًا كلوحات الخط العربى حيث تتجه حركة الخط إلى الداخل فى حركة مستمرة لانهائية وتدور حول مركز موقعه القلب . مركز العمارة العربية ومحورها كان الإنسان نفسه . فالجدران مصممة بطريقة خاصة لتدرأ الريح والحر وقسوة المناخ ، وابتكر المعمارى وسائله الخاصة للتهوية (الملقف) ، ولتسخين المياه أو تبريدها ، وفى ذروة الحرارة ، تكون درجة الحرارة داخل بيت السحيمى أقل من الخارج عشر درجات . هكذا يقول المهندس المعمارى العظيم حسن فتحى . وفى العمارة الإسلامية العربية نفسها ، نجد فروقًا واضحة . فالمئذنة العراقية لها شخصيتها المتميزة ، ولو أن معماريًّا مصريًّا وضع مئذنة عراقية على بناء مسجد مصرى لما اتسق الأمر . فما البال عندما تم استيراد الطرز المعمارية الغربية بلاد الثلوج والضباب لتزرعها فى قلب مدننا الحارة ، ما البال وقد شيد المعماريون الذين درسوا المعمار الأوروبى ونقلوا تصميمات أبراج الألومنيوم المصممة إلى قلب عواصمنا العربية الحارة . هنا يبدو الاتجاه الأعمى إلى الغرب ، والانقياد التام ، ولكن كنت أبتسم ساخرًا عندما أرى بعض الأثرياء الجدد وقد بنوا بيوتهم الخاصة ذات أسقف محدبة ، أسقف محدبة فى بلاد لا يسقط فيها الثلج أما مطرها فشحيح ، يقول المهندس حسن فتحى فى كتابه « عمارة الفقراء » هل يمكن تخيل شجرة ليمون تطرح ثمرة تفاح ؟ بالطبع لا ، والوضع فى العمارة

---

(١) القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية : ص ١٢ .

التى استوحيت تصميماتها من الغرب ، يترجم هذه المحاولات الشائعة لزرع طرز مستوردة غريبة فى بيئة مختلفة ، إنه نفس المنطق الكامن وراء انتشار الأسماء الأجنبية فى السبعينيات للمتاجر والمراكز التجارية ، حتى إن متجرًا تخصص فى بيع الأزياء الإسلامية أطلق صاحبه عليه « شوبنج سنتر » ! لقد بدأ اتجاه العمارة إلى الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أصبحت العمارة الغربية هى النموذج الذى يحتذى مع توجه الصفوة إلى الغرب ، واعتباره المصدر، إلى أن وصل الأمر إلى ما وصل إليه فى السبعينيات . لقد تم التخلى عن تقاليد العمارة العربية ، وتحول البيت من الداخل إلى الخارج ، واستبدلت بمواد البناء مواد غير ملائمة لطبيعة المناخ (الأسمنت ـ الألمونيوم) . واليوم تقوم فى القاهرة وفى العديد من العواصم العربية أبراج هائلة تقتدى بناطحات السحاب فى نيويورك وتحمل أسماء أجنبية أصبح تداولها سهلاً وشائعًا (سكاى سنتر ـ كايرو سنتر . . . إلخ) . وانتقل التشويه إلى القرية المصرية نفسها ، فتخلى المعمارى الريفى عن المواد الملائمة للطبيعة والمناخ والتى كان الأجداد يبنون بها منذ آلاف السنين ، ليستخدموا الطوب الأحمر والأسمنت ولم تلق نظريات المهندس فتحى طريقها إلى التنفيذ ، وهى نظريات قائمة على تطويع العمارة للإنسان بحيث تكون نابعة من البيئة . لقد انمحت الخصوصية التى تعبر عن ضرورة حياتية وليس عن قيم فنية مجردة إزاء تزايد الاتجاه إلى الغرب والنقل المباشر عنه بدون مراعاة الواقع المحلى . وما يقال عن العمارة ، ينطبق أيضًا على تخطيط المدن . كان تخطيط المدينة العربية القديمة يخضع لاعتبارات عديدة نابعة من الواقع ذاته . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

« وكان العرف المتبع فى بعض قواعد التخطيط ، مثل مراعاة العوامل الجوية ، ومتطلبات الأمن والناحية التعبيرية الجمالية مطبقًا فى كلا المستويين الواعى والتلقائى . فكانت الشوارع والحارات تخطط متعرجة ضيقة لأن المساكن والقصور والمبانى العامة تضم أفنية وحدائق تستقبل الشمس والهواء من ساحاتها الداخلية التى لا تجعلها فى حاجة إلى الشارع المتسع ، فاقتصر اتساعه على ما يفى بمطالب المرور وغدو الباعة الجائلين ، وروحاتهم ، كما كان بتعرجه وضيقه يوفر مساحات ظليلة ويتيح اختزان الهواء الرطب ليلاً حتى يشيعه أثناء ساعات القيظ ملطفًا من حرارة الجو ، على العكس من الشارع المستقيم الواسع كالبولفار الأوربى المعاصر الذى تستبيحه الريح صباحًا ومساء »[1] .

---

(١) القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية ، د . ثروت عكاشة : ص ٥٨ .

لقد بدأ التغيير الكبير فى مدينة القاهرة على يدَىْ على باشا مبارك الذى وضع أساس التخطيط الأوربى الحديث للمدينة ، وشق مجموعة من الشوارع المستقيمة على نمط الشوارع الباريسية . شارع محمد على شق وكأنه نسخة أخرى من شارع ريفولى بباريس . وبسبب شق هذا الشارع أزيل أكثر من ثلاثين أثرًا إسلاميًا وهكذا بدأ تغريب المدينة . وعند مراجعة ما حدث للقاهرة ، فلا يعنى هذا التهجم على دور على باشا مبارك أو الانتقاص منه ، ولكن قام بذلك فى إطار مفهوم معين يرى أن تطوير المدينة وتحديثها يجب أن يتم على النسق الأوربى ، وكان ذلك حلقة فى الاتجاه إلى الغرب . ما أريد أن أؤكد عليه أو أوضحه أن مراجعة دور على باشا مبارك أو غيره من كبار المثقفين المصريين أو العرب الذين رأوا أن النقل عن الحضارة الأوربية سوف ينتقل ببلادهم قدمًا لا يعنى النيل من شخوصهم ودورهم . لقد اجتهدوا وحق لنا أيضًا أن نراجع ما قاموا به وأن نجتهد أيضًا ، وإذا كان الاجتهاد مباحًا فى أمور الدين ، أفلا يكون مباحًا فى القضايا الثقافية ، وتاريخ الفكر ، والتطور الفنى ، والمعمارى ، إننى أرى باختصار شديد أن الاتجاه إلى الغرب أو التغريب قد وصل إلى نقطة خطيرة ، موضة فى سبعينيات هذا القرن بحيث أصبحت خصائص الشخصية القومية مهددة معظمها بالاندثار والتغيير ورافق هذا ظروف عالمية عديدة ، والاستعمار القديم فى الماضى كان يستفز المشاعر القومية ، والرغبة فى الحفاظ على السابق . وفى المغرب العربى الكبير ، سواء فى المغرب أو الجزائر أو تونس ، تمت المحافظة على الطابع المعمارى للمدن القديمة . صحيح أن العمارة الأوربية موجودة ولكنها قائمة بعيدًا عن الأقسام القديمة . فى تونس مثلاً نجد الوزارات الهامة ورئاسة الوزراء فى المدينة القديمة ، كما أن فاس القديمة ما تزال محتفظة بطابعها . لقد كان الاستعمار القديم غشومًا ، يستنفر المشاعر القومية لأنه يحمل السلاح ، ويسعى إلى الطمس التام للقديم. أما ما نتعرض له فى العقود الأخيرة فغزو من نوع آخر ، غزو هادئ ، يتم بالفيلم ، بالفكر، بتعميق الدونية الثقافية . يتم بإشاعة أنماط معينة من الحياة بمتاجر الويمبى وكنتاكى . وهو لا يأتى إلينا على ظهور البوارج ، بل إن قومًا منا يذهبون ويدفعون الأموال الطائلة ليأتوا به (انظر إلى انتشار العلم الأمريكى على الشاحنات والقمصان . . إلخ) .

وهنا يجب أن أوضح أننى لست أبدًا ضد الفكر الغربى أو الإبداع الغربى ، فمنجزات الحضارة الأوربية ملك للإنسانية كلها الآن ، ولكن ما أنبه إليه أن الخصوصية مهددة بالزوال ، وهذا يعنى فقدان الأمة لهويتها . لا أريد استخدام تعبيرات تبدو مبالغة ، لكن هذا ما أستشعره خلال السنوات الأخيرة . والقضية الأساسية التى أتصور أن الفكر العربى والفن العربى مطالبان بالتوجه إليها ودراستها والتوصل إلى نتائج محددة فيها ، هى

كيف يمكن تزاوج السابق باللاحق دون أن يطغى السابق على اللاحق ، ودون أن يطمس اللاحق ما سبق . . تلك هي القضية .

* * *

إننى من المؤمنين بعنصر الاستمرارية فى الثقافة المصرية . المجتمع المصرى قديم ، وبالتالى فإن الثقافة المصرية قديمة . عمرها المكتوب سبعة آلاف سنة ؛ أما غير المكتوب فلم يقف إنسان على مقداره بعد ، وخلال هذا التاريخ الطويل عرفت مصر حضارات متعاقبة وثقافات مختلفة ، وقد أخضعت مصر الوافدين إليها ، وكما ذاب فيها الفرس والرومان والإغريق والكرد والأتراك والعرب ، ذابت فيها أيضًا ثقافاتهم ، انصهرت وتشكلت من جديد ، إن الثقافة المصرية حية ، متجددة ، ولكنها لا تفقد جوهرها ومضمونها . وقد فصلت هذه النقطة فى بحث قصير ضمنته هذا الكتاب . ولكن ما أريد توضيحه ، هو أننى عند ما أقول التراث ، فإننى أعنى التراث الذى ينتمى إلى هذه المنطقة من العالم التى نعيش فيها ، ويمكن تشبيه حلقاته بدوائر متداخلة ، بالنسبة لى المركز منها هو التراثان العربى ، والإسلامى ، ثم التراث القبطى الذى أدعو ـ كمسلم ـ إلى معرفته انطلاقًا من التكوين الثقافى ، كثيرًا ما أسأل نفسى ، لماذا يعرف المصرى قبطى الديانة ، أعياد المسلمين وعاداتهم وقد يلم بثقافتهم ، بينما نجهل نحن المسلمين كثيرًا من التفاصيل عن الحياة الفكرية والروحية للأقباط ، مع أننا نشكل أمة واحدة ، كذلك التراث الفرعونى الكامن فى حياتنا الحالية ، هناك عناصر عديدة مستمرة ، بدءا من التقويم القبطى ـ الفرعونى الذى مازال الفلاح المصرى يتبعه لتنظيم شئون زراعته ، وحتى بعض الألفاظ التى ما تزال مستخدمة فى لغتنا اليومية ، ثم التراث الإفريقى ، ثقافة القارة التى ننتمى إليها . ثم تراث الأمم القريبة منا : فارسية ، وهندية ، وصينية ، إضافة إلى كل الثقافات التى قامت فى هذه المنطقة : بابلية ، وآشورية ، وعبرية ، وبربرية ، وتراث أوربى .

إن هذه الدوائر كلها حولى . . التراث الإنسانى كله يصب فى تكوينى . إنه ملكى وأنا ملكه ، وهذا التفاعل يثرى ، بشرط ألا أغيب أو تغيب عنى الدائرة المركز ، أقصد التراث العربى بمفهومه الشامل .

* * *

فى السنوات الأخيرة ، لاحظت ندرة فى مصادر التراث العربى ، أصبح من الصعب جدًا الحصول على كتب الثعالبى ، أو التوحيدى ، أو الجاحظ ، وغيرهم من أعمدة لغة

المضاد . فى نفس الوقت الذى تنتشر فيه طبعات شتى لكتب محدودة من التراث ، تغذى اتجاهات معينة وتقصر التعامل مع التراث وتقديمه على جوانب سطحية ، شكلية تمامًا . وكثيرًا ما كنت أقف مبهورًا أمام فهارس المخطوطات العربية المكدسة فى سائر مكتبات العالم . ما من فرع فى العلم والثقافة إلا وتجد فيه مؤلفات عربية فى شتى المراحل التاريخية ، مؤلفات استفادت منها أوربا وأدت إلى عصر النهضة ، وأهملناها نحن . بل إننا أعدنا اكتشاف معظمها من خلال الغرب نفسه عندما بدأ اهتمامه بها .

وإزاء ندرة المصادر ، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربى ، وتعثر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة ، فكرت فى التعريف بمصادر تراثية ربما يصعب الحصول عليها الآن ، إما لندرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية . كيف يمكن إذن لأديب فى بداية الطريق أن يتكون ؟ أذكر أننى فى بداية الستينيات اقتنيت أربعة عشر جزءًا من كتاب الأغانى ودفعت ثمنًا لها جنيهين وثمانين قرشًا ، ومازلت أذكر ليلة عودتى إلى البيت بالأغانى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وكل ما دفعته كان أقل من عشرة جنيهات ، الآن تباع الأجزاء المتوفرة من الأغانى فى طبعة رديئة بأكثر من مائتى جنيه . والأغانى من أعمدة الأدب العربى لا أتصور مكتبة أديب أو مؤرخ أو مفكر بدونه .

إزاء هذه الظاهرة ، فكرت فى إعداد عروض وافية لعدد من هذه المصادر المهمة ، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها ، فإذا اهتم قارئى بكتاب معين ، فليتجه إليه ولا يعانى ما عانيناه فى البحث عنه ، وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التى طبع فيها الكتاب ، آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة فى الأدب ، والتاريخ ، والفن الحربى ، على أن أتبع هذا المجلد ، بآخر أخصصه للتعريف بكتب التراجم فى التراث العربى ، وثالث أقدم فيه مصادر القص العربى ، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العمارة الإسلامية من القدماء والمحدثين . راجيًا بذلك أن أكون قد أسهمت بجهد ضئيل فى التعريف بتراثنا العربى ومصادره التى يصعب الوصول إليها والعثور عليها ، يومًا بعد يوم ، متمنيًا من الله العلى القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نطمح إليه من التعريف بتراثنا العريق الذى يحيا فينا ولا نراه .

جمال الغيطانى

القاهرة ٢٠ رمضان ١٤١٧ هـ

٢٩ يناير ١٩٩٧ م

عنـــاصر الاستـمــرارية
فـى الثقـافــة المصــريــة

يختلف مفهوم الثقافة بمعناه الاجتماعى العلمى عن معناه العام . فطبقًا للمفهوم الأول تتضمن الثقافة كل ما يمكن أن يُعلم بواسطـة العلاقات الإنسانية المتـداخلة ، ويشمل ذلـك اللغة ، والفـن ، والصنـاعـة ، والعلم ، والقـانـون ونظـم الحكـم ، والأخـلاق ، والديـن ، وكل المصنـوعات التـى تتجسد فيهـا عناصر ثقـافية معينـة ، مثل طـرز العمارة والآلات ، وأساليب المواصلات .

إن معنى الثقافة معنى عام ، يشمل أسلوب الناس فى مجتمع من المجتمعات . من هنا فإن هذا المفهوم الشـامل للثقافة يختلف اختلافًا كبيرًا عن المفهـوم الذى يقصر الثقافة على نوع معين من النشاط الإنسانى ، مثل الآداب والفنون .

والثقافـة أو المعرفة الإنســانية ، تتكون عن طـريق وسيلتين هامتين ، هما الاكتشـافات والاختراعات أولاً ، ثم التعليـم الذى ينقل ما سبـق معرفته إلى الآخريـن ، أو من زمن إلى زمن .

والمجتمع المصرى مجتمع قـديم ، وبالتالى فإن الثقـافة المصرية قديمة عمـرها المكتوب سبعة الآف عـام ، أما غير المكتوب فلم يقـف إنسان بعد على مقداره الحقيقـى ، وخلال هذا التـاريخ السحيق عـرف المجتمع المصرى حضارات عديـدة ، وتعاقبت عليـه ظروف مختلفة ، وديانات بعضها اخترعه ، وبعضها وفد عليه من هذه الحضارات ، أقدم حضارة عرفهـا الإنسان ، وعلى الـرغم مـن الظروف الصعبـة والمظالم المتعـاقبة ، والبـؤس ، وتوالى الغزاة ، المجتمع المصرى فإن ظل متماسكًا ، حيويًّا مستمرًّا ، منذ آلاف الأعوام ، والعمل مستمرا لم يتوقـف أبدًا على ضفتى النيل . الجهـد الإنسانى يبذل فى مختلـف المجالات بلا انقطاع والملاحظة العامـة التى نستنتجها من قراءة التاريخ المصرى ، استمـرارية الثقافة ، وحيـويتهـا المتمثلـة فى تجددهـا واستيعـابها للظـروف المتغيرة . وعلى الـرغـم مـن عنصر

الاستمرارية فى الثقافة المصرية ، فإنه من الصعب القول إنها ثقافة جامدة ، محافظة على القديم . فالمصريون عبر تاريخهم الطويل غيروا من لغتهم عدة مرات ، من الهيروغليفية إلى الديموطيقية ، إلى القبطية ، إلى اليونانية ، إلى العربية واستبدلوا بدينهم دينا آخر مرة أو مرتين . جمعوا بين القديم والحديث فى العديد من مظاهر حياتهم ، واستطاعوا استيعاب كل الغزاة الذين وفدوا على أرضهم ، لم تصبح مصر فارسية أو رومانية ، أو عربية ، بل طوعت الفرس ، والرومان ، والعرب ، فأصبح جميع هؤلاء مصريين ، ذابوا فى المجتمع المصرى ، وانصهرت ثقافاتهم فى الثقافة المصرية ، أصبحت ثقافاتهم تشكل عناصر من الثقافة المصرية ، ولم تصبح الثقافة المصرية مصبوغة بهذه الثقافات الوافدة . بل إن الثقافة المصرية طوعت كثيرًا من هذه العناصر الوافدة لظروفها وعناصرها هى . وفى العصر الحديث ، نجد أن الأتراك الذين استعمروا مصر أكثر من ثلاثة قرون اضطروا إلى تعلم اللغة العربية ، نفس الأمر واجهه الإنجليز الذين استعمروا مصر لمدة سبعين عامًا خلال القرن الأخير ، لم تتحدث مصر اللغة الإنجليزية ، ولكن الإنجليز هم الذين تعلموا اللغة العربية ، ثم خرجوا فى النهاية . ويرجع هذا إلى الركائز الثقافية العريقة فى مصر ، وإلى استمراريتها ، وحيويتها ، كان المصريون مجددين فى الجانب المادى والعملى من حياتهم ، فالزارع المصرى جدد أدواته الزراعية ، وأضاف إليها على مر الزمن ، واستنبط أصنافًا جديدة من المحاصيل ، كان أبرزها فى العصر الحديث القطن الذى بدأ زراعته فى بداية القرن التاسع عشر ، كما جدد أنواع الحيوان المستأنس ، وأضاف إليها ما لم يكن معروفًا من قبل .

إن ذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك تجدد الثقافة المصرية وحيويتها . ويمكننا ملاحظة هذا فى الجانب غير المادى ، لقد شغلت فكرة الخلود المصريين منذ فجر التاريخ ، وأول تصور للعالم الآخر نجده فى الفكر الدينى المصرى القديم ، انشغل المصريون بهذه الحياة الأخرى ، واهتموا ببناء مقابرهم ، وحفظ أجسادهم وكان هذا الاهتمام من أعلى المستويات ، الفرعون ، حتى أفقر الناس ، وكان الجميع يهتمون ببناء المقابر ، وتزيينها ، وتزويدها بما يحتاج إليه الميت فى العالم الآخر ، والاهتمام بالعالم الآخر عند المصريين منطلق من حب عميق للحياة ، ورفض للعدم ، نلاحظ أن هذا المضمون استمر مع تغير الديانات ، وتعاقب العصور ، فى العصر الفرعونى على سبيل المثال كان أول عمل يشرع فيه الفرعون (الملك) هو بناء هرم ليكون بمثابة مقبرة تحفظ جسمه من الفناء ، وبجواره معبد تمارس فيه الشعائر الدينية ، وبعد آلاف السنين ، وبالتحديد فى العصر الوسيط ، عصر المماليك بعد فتح العرب لمصر بخمسة قرون ، نجد أن السلطان

المملوكي المسلم ـ وهو ذو أصول أجنبية ــ يشرع بمجرد توليه الحكم في بناء مسجد ضخم يضم فيه قبة تحوى مقبرته . ويستمر ذلك حتى عصرنا الحديث ، فعندما توفى الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، تبين أنه كان قد اختار مكان دفنه في مسجد شارك في تأسيسه والإنفاق على بنائه ، ودفن فيه بالفعل ، وضريحه الآن قائم يزار ، أى مصرى الآن سواء كان مسيحيًا أو مسلمًا يحتل مقره الأخير حيزًا هامًّا من تفكيره ، وكثيرًا ما نقرأ على شواهد القبور الحديثة عبارات كتبت بوصية من الموتى ، نصوصها تطلب من الأحياء التذكّر والاتعاظ بما انتهوا إليه ، وقد وصل إلينا نصوص مشابهة في المضمون من العصر الفرعوني السحيق .

إن الدين المسيحي ، والدين الإسلامى ، لم يغيرا من جوهر نظرة الإنسان المصرى إلى الموت ، وإلى العالم الآخر ، والتفاصيل العديدة تؤكد ذلك ، أذكر في طفولتى جلوسى مع أمى فوق سطح بيتنا نتلمس أشعة الشمس ، وفجأة سكتت أمى ، وأمرتنى بالصمت ، وراحت ترقب في رهبة ذبابة زرقاء اللون ، بعد اختفائها ، قالت لى إنها روح جدتى جاءت لتطمئن علينا ، وهذا موروث ثقافى قديم يمت إلى العصر الفرعونى ، حيث كانت الروح تتجسد أحيانًا في شكل طائر أو ذبابة زرقاء أو قط أسود ، والمصريون على صلة دائمة بموتاهم ، وإذا ما جاء الميت في الحلم وطلب شيئًا ما فلابد من تنفيذه ، وفي أيام الجمع ، والأعياد والمواسم ، نشاهد طوابير الرجال والنساء والأطفال متجهين إلى المقابر حاملين الزهور والصدقات من طعام وهدايا توزع على الفقراء . نجد هذا في مصر، بينما يعد ذلك في البلاد الإسلامية الأخرى ـ خاصة السعودية ـ من الأمور المخالفة للشرع ، ويكفى القول إنه لا توجد قبور معروفة للموتى في الحجاز ، وأذكر أننى كنت أشهد حفلاً للمصارعة أقيم في خلاء مدينة أم درمان وكان الناس يعبرون فوق عدة مقابر بسيطة يطئون المقبرة ، وكنت في داخلى أستنكر ذلك .

كذلك فإن نظرة المصريين تجاه القديسين ، والأولياء لم تتغير ، عرفت مصر الفرعونية الثالوث القديم ، الآلهة إيزيس ، والإله أوزيريس ، والابن حورس ، وعند ما جاء الدين المسيحى إلى مصر لم يجد أرضا خالية ، فقد عرف الفراعنة الثالوث المقدس ، كما عرفوا التوحيد ، وسرعان ما استوعبت الثقافة المصرية الدين الجديد وحل الثالوث الجديد ، الأب والابن والروح القدس ، محل الثالوث القديم ، وبعد استقرار الدين المسيحى في مصر ، شهدت الكنيسة صراعًا حادًّا كان طرفاه الكنيسة المصرية ، والكنيسة البيزنطية ، وكان محور الخلاف طبيعة المسيح ، آمن المسيحيون بالطبيعة الألهية لابن مريم فجاء

آريوس أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من طبيعة الأب الذى لا شريك له ، وبذلك أكد نوعًا من الوحدانية ولو أنه لم ينكر ألوهية المسيح كلية ، تمسك المصريون برأيهم ، ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على أمره ، بعقيدة تخالف الفريق الغالب يحمل معنى مناوأة الضعيف للغالب ، والحرص على التميز ، وعدم الذوبان والتلاشى ، لم يكن المصريون يريدون لكنيستهم أن تصبح فى المرتبة الأضعف بالنسبة لبيزنطة ، وهى الأحدث مسيحية ، فإذا كانت القسطنطينية هى عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية المصرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية فى العالم ، وتفاصيل الخلاف عديدة ، ولكن موقف الكنيسة المصرية ظل استقلاليًا ، فى جوهره يمثل المحافظة على عناصر استمراريته الثقافية المصرية ، لقد احتفظت مصر الفرعونية بثقافتها الدينية وطقوسها ، ثم جاءت المسيحية وحاولت تغيير هذا ، وجد الشعب المصرى نفسه مختلطًا بشعوب الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فإن الثقافة المصرية لم تضعف ، ولم تذب ، لم تجد الثقافتان البيزنطية واليونانية سبيلاً إليها ، بل العكس هو الذى حدث ، إذ تدهورت أهمية العنصر اليونانى دون توقف ، وتبوأت اللغة القبطية ـ أى اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية ـ مكانتها بدلاًمن اليونانية ، وكما كانت مصر فى أيام ضعفها تلقى بمقاليدها إلى كبير كهنة آمون ـ رع فى طيبة فإن جميع القوى الوطنية المصرية التفت حول البطريرك ، بابا الإسكندرية أصبح رمزًا للموروث الثقافى المصرى ، وقاومت الكنيسة المصرية كل محاولات التذويب واحتفظت بمذهبها الخاص إلى الآن .

ومع دخول العرب إلى مصر ، وانتشار الإسلام فى مصر ، شهدت استمرارية الثقافة المصرية فصلاً جديدًا ، فكما لم تجد المسيحية عند دخولها إلى مصر فى شعب مصر أرضا بكرًا وصحراء جرداء ، كذلك فإن الإسلام أيضًا لم يجد فى شعب مصر عند دخوله أرضًا قاحلة ، لقد استوعبت الثقافة المصرية رموز الدين الجديد وطقوسه الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار ، لم تتغير النظرة إلى الموت كثيرًا إلا فى بعض التفاصيل الصغيرة ، خاصة فيما يتعلق بالحرص على تحنيط الجثث أو الدفن داخل توابيت خشبية أو حجرية ، لقد أبطل الإسلام ذلك ، وبالطبع اختلفت الشعائر ، ولكن جوهر النظرة إلى العالم الآخر ظلت كما هى ، والعلاقة بالموتى ، والحرص على زيارتهم ، وتكريم ذكراهم ، والامتثال إلى مطالبهم التى يبدونها عندما يزورون الأحياء فى الرؤى والأحلام ، واستمر تقديس المصريين للقديسين وأولياء الله المسلمين ، وذلك بواسطة إقامة أضرحة لهم ، وتمجيدهم ، والاعتراف بالواجبات نحوهم والحرص على أدائها ، على الرغم من أن هذه

الطقوس مناهضة لروح الدين الإسلامى ، التى تنفر من التمسح بالأضرحة وتقبيلها ، والطواف حولها ، وهكذا نلاحظ أن المكانة التى كانت الآلهة يحتلها فى الزمن الفرعونى ، نالها بمرور الزمن القديسون المسيحيون ، وأولياء الله المسلمون ، وهؤلاء الأولياء يمارسون تأثيرهم من العالم الآخر على الأحياء فى عصرنا هذا ، وقد اكتشف باحث اجتماعى مصرى نابه هو الدكتور سيد عويس أن ظاهرة إرسال الرسائل إلى الموتى مستمرة حتى عصرنا هذا ، خاصة للإمام الشافعى ، المعروف بين الناس باسم قاضى الشريعة أو رئيس المحكمة الباطنية التى تعقد جلساتها فى العالم الآخر ، تمامًا كما كانت محكمة التاسوع الألهى تعقد جلساتها فى العالم الآخر خلال العصر الفرعونى ، كان المصريون فى العصر الفرعونى يرسلون شكاواهم إلى الموتى مكتوبة على قطع من الخزف ، ومازال المصريون يكتبون الرسائل إلى الإمام الشافعى ، (ولد عام ١٥٠ هجرية ـ ٧٦٧ ميلادية ويعد أحد أربعة أئمة فى الإسلام) . غير أن أشهر الأولياء فى مصر قاطبة هو الإمام الحسين ، ويحتفل المصريون فى كل عام بمولد الإمام الحسين حيث يجتمع آلاف الرجال والنساء والأطفال كل مساء قبل ليلة المولد بأسبوعين ، يجتمعون يوميًا ، يتلون الأذكار ، ويرقصون ، ويغنون ، والإمام الحسين له مكانة كبيرة عند سائر المصريين ، إذ إنه سيد الشهداء ، وابن السيدة فاطمة ابنة رسول الله محمد ، ويكاد الحسين يكون قد احتل موقع أوزيريس فى عملية استمرارية الثقافة المصرية ، وأوجه الشبه عديدة بينهما ، منها الصفات المشتركة والنهاية المأساوية ، أما شقيقته السيدة زينب فتحتل فى قلوب المصريين مكانة عظيمة ، إنها نفس مكانة إيزيس الآلهة الفرعونية القديمة ، المخلصة ، النقية والسيدة زينب لها عند المصريين منزلة خاصة ، ويطلقون عليها أسماء عديدة منها « غفيرة مصر » ، و « صاحبة الشورى » و « رئيسة الديوان » ، والديوان هو مجلس يعقد فى العالم الآخر يعقد مساء كل سبت وترأسه السيدة زينب ، وينظر فى أمور العالم خلال أسبوع مقبل . وكما دافعت الإلهة إيزيس عن ابن أوزيريس شقيقها وزوجها فى الوقت نفسه ، وحمت حورس الابن ، فإن السيدة زينب شقيقة الشهيد الحسين قد حمت ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة ، على زين العابدين ، وهو الوحيد الذى تبقى من مأساة كربلاء ، من أبناء الحسين .

ونلاحظ أن تقديس المصريين لآل بيت النبى لا يعنى أنهم يعتنقون المذهب الشيعى ، والحقيقة أن المجتمع المصرى لا يعرف التفرقة بين مذهب السنة والشيعة وهما المذهبان الرسميان فى الإسلام ، ومما ساعد على عدم وجود هذه الحساسيات هو عمق الموروث الثقافى المصرى ، وقدرته على استيعاب كل الحساسيات ، لقد استمرت مكانة الآلة أوزيريس فى الضمير المصرى ، والثقافة المصرية ، وإن تغيرت صفاته وأسماؤه ، فى أسطورة

أوزيريس الفرعونية القديمة تقول الرواية إن أعداءه عندما ظفروا به قطعوه إلى أربعين جزءًا، وفرقوا هذه الأجزاء على جانبى وادى النيل ، وإن إيزيس راحت تتبع هذه الأشلاء وتعيد دفن كل منها . حدث ذلك فى العصر الفرعونى السحيق. وفى عصرنا الحديث ، يمكن ملاحظة عدد كبير من الأضرحة تنتشر فى الريف المصرى والمدن المصرية ، كل ضريح منها يسمى « سيدى الأربعين » ، وربما يمكن القول إنه لا تخلو مدينة مصرية من « سيدى الأربعين » ومعظم هذه الأضرحة مجرد نصب رمزية خالية ، نصب رمزية لشىء أعمق وأكبر يستقر فى وجدان الشعب المصرى ، متصل بمكانة أوزيريس الفرعون ، أو الحسين فى عصرنا الإسلامى .

إن عناصر الاستمرار الثقافى عديدة ومتنوعة ، خاصة فى تفاصيل الحياة اليومية وتركيب القرية المصرية ، والمدن ، وطبيعة البيت الداخلى ، ومواعيد الزراعة التى مازال الفلاح المصرى يعرفها طبقًا للتقويم الفرعونى القديم ، وبنفس الأسماء الفرعونية القديمة ، كذلك أنواع الطعام ، وطرق إعداد الخبز وصناعة الأثاث ، ومضمون التعاويذ التى تتلى فى المناسبات المختلفة والطقوس الاحتفالية ، سواء عند الميلاد أو الموت .

هذه التفاصيل كافة تؤكد على قدم واستمرارية الثقافة المصرية فى مفهومها العام ، وقدرتها على التجدد والاستمرار .

تـــراجـــــم ..

لنقرأ هذا الخبر من كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحى :

« . . أخبرنا أبو خليفة . أخبرنا ابن سلام . حدثنى ابن جعدبة وأبو اليقظان عن جويرية بن أسماء ، قال : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس فى يوم واحد ، فاحتلفت قريش فى جنازة كثير . ولم يوجد لعكرمة من يحمله . . » .

* * *

ولنقرأ هذا الخبر أيضًا من كتاب « الطالع السعيد ، الجامع أسماء نجباء الصعيد » للإدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية :

« علىٌّ بن إبراهيم بن عبد الملك نور الدين ، أمين الحكم بقوص كان من عُدولها ومن الأخيار . سمع الحديثَ وتوجَّه إلى الحج ، فمرض بمكة ووصَّى للأيتام بما تناوله من الجامكيَّة . وتُوفىَ بمكة سنة تسع وخمسين وستمائة . روى عنه عبد العزيز عبد الرحمن بن السُكرىّ : وكان من العقلاء ، ومع هذا طلَّق زوجته ، فتزوَّجت بالخطيب محيى الدين بقوص ، فغاب عقله وخرج « عُريانًا إلى الشارع ، وأخبروا الخطيب بذلك ، فأخذوها مع نسوة ، فحضرت عنده وكلمته حتى سمع كلامها فسكن ، وقامت فتركته ، فرجع عقله ، وكان من عقلاء الناس ، عدلاً . . ثقة . . » .

* * *

خبران ينتميان إلى مصدرين مختلفين ، متباعدين فى الزمان والموضوع . يترجم الأول لطبقات الشعراء . أما الثانى فيقدم عددًا من الناس الذين عاشوا فى مكان محدد ، ونبغوا فى العلم والأدب أو طابت سيرهم . لكن يجمع الكتابين ذلك الفن الخاص ، المزدهر فى تراثنا العربى ، فن كتابة التراجم ، والذى يُنظر إليه حتى الآن باعتباره من المصادر التاريخية . ولم ينظر إليه أحد على أنه مصدر غير مباشر للفن القصصى . فمن خلال

كتب التراجم تلك تنتفض أمامنا ألوف ، وألوف من الحيوات المندثرة ، والتى كان ممكنا أن تغيب إلى الأبد ، لولا سطور تطول نادرًا ، وتقل فى معظم الأحيان ، لكنها تجسد الملامح الداخلية والخارجية . وتقص الخطوط العريضة وأحيانًا تفصل لتلك الأعمار التى اكتملت دوائرها . لتلك الشخصيات التى سعت ، من أدباء ، وسلاطين ، وأمراء ، ورجال إدارة، وأطباء ، وحكماء ، وعلماء ، ومتصوفة ، ونساء ، ومحاربين ، وأناس بسطاء ، تطالعنا هذه الملامح التى يوشك الكثير منها أن يتجسد من خلال السطور والكلمات . تنتظم هذه الطوابير الطويلة عبر صفحات كتب التراجم التى يصل بعضها إلى حد الموسوعات . هذا شكل عربى أصيل . قديم لم يتناوله أحد بالبحث المفصل ، باستثناء دراسة قصيرة ، ذات طابع تعليمى ، صدرت منذ سنوات فى القاهرة للباحث فى التراث العربى المرحوم محمد عبد الغنى حسن .

* * *

ـ التراجم باختصار نوع أدبى يتناول بالتعريف حياة إنسان ما ، تعريف يطول أو يقصر ويلزم الإحساس الروائى لتقديم الشخص من خلال الوقائع والصفات حتى تكتمل صورته حية فكأنه مازال بعد يسعى . والتراث العربى غنى بفن التراجم يفوق فى ذلك سائر الآداب الأخرى ، حتى مجال الترجمة الذاتية ، أى أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد . نجد أقدم النماذج المعروفة على مستوى الأدب العالمى فى تراثنا العربى . كثير من نصوص الشعر الجاهلى تتضمن ترجمة ذاتية ، أما أول ترجمة ذاتية مباشرة فنجدها فى كتاب الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ (٤٨٨ هـ ـ ٥٨٤ هـ) أى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى نفس الفترة تقريبًا كتب الداعى الفاطمى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (توفى ٤٧٠ هـ) كتب سيرته الذاتية . أما الشاعر اليمنى عمارة اليمنى فترجم لنفسه فى كتاب « النكت العصرية » كما ترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم فى أخريات العصر الفاطمى ، وقد لا يعرف الكثيرون أن المؤرخ العظيم عبد الرحمن بن خلدون ترجم لنفسه فى نهاية تاريخه الكبير ، لست أخوض فى باب المقارنة . لكن يكفى أن نعرف تاريخ صدور أول ترجمة ذاتية فى الأدب الإنجليزى . كان ذلك فى القرن السابع عشر الميلادى عندما كتب صمويل بيبس ١٦٣٣ ـ ١٧٠٣ م يومياته ومذكراته وفى نفس القرن كتب ريتز مذكراته فى فرنسا عام ١٦٧٢ ، فى ذلك الوقت عندما بدأ فن كتابة التراجم يظهر فى أوروبا ، كانت التراجم العربية قد بلغت حدًّا من الكثرة والتنوع لا نقاس به بداية غير منتظمة الخطا فى الآداب الأوروبية ، إنما أسوق المقارنة وأضرب المثل ليتبين لنا إلى أى حد

نظلم أنفسنا ونجهل تراثنا عندما نجهل هذا المصدر المهم الذى يمكن أن يصبح وافدًا هامًا يثرى فنون القص وأشكاله فى أدبنا العربى .

* * *

السيرة النبوية أوسع وأشمل ما فى التراجم الإسلامية ، إذ كانت المحور الذى تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وتطوره ، ثم أصبحت حياة الصحابة والتابعين محورًا هامًا للتراجم فكتب ابن سعد موسوعته عن الصحابة « الطبقات » فى القرن الثالث الهجرى ، وفى نفس القرن وضع ابن سلام الجمحى كتابه « طبقات الشعراء » ، ويلاحظ اهتمام المؤلفين فى هذه الفترة بذكر الأسانيد والرواة . وربما تأثروا فى ذلك بطريقة رواية الأحاديث النبوية ، وفيما تلا ذلك تنوعت كتب التراجم والطبقات ، والملفت للنظر أن معظم هذه الكتب التى تنبئ بحس روائى واضح عند مؤلفيها . وضعت بمبادرة ذاتية منهم ، لا تقرباً إلى حا كم ولا تزلفًا إلى سلطان ، ولا استجابة لطالب ، إنما كانت بدافع ذاتى منهم . ويؤكد ذلك الحس الأدبى فى أعماقهم ، يقول ابن خلكان فى مقدمة موسوعته « وفيات الأعيان » بعد أن يشرح منهجه فى التأليف :

« وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصورًا على أسلوب واحد فيملّه ، والدواعى إنما تنبعث لتصفُّح الكتاب إذا كان مُفَنَّنًا . وبعد أن صار كذلك لم يكن بُدّ من استفتاحه بخطبة وجيزة للتبرك بها ، فنشأ من مجموع ذلك هذا الكتاب ، وجعلته تذكرة لنفسى . . » .

ولنتوقف مطولاً أمام هذه العبارة الجميلة ، الدالة ، الموحية « وجعلته تذكرة لنفسى . . » .

إننى أعتبر وفيات الأعيان درة فن كتابة التراجم العربية ، ولى وقفة أطول معه ، خاصة فيما يتعلق بطريقة ابن خلكان فى تقديم الشخصية . فى القرن التاسع الهجرى ، نجد المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى يشير فى مقدمة كتابه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » إلى أنه ألف كتابه هذا :

« غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان . ولا مطالب به من الأصدقاء والخلان ، ولا مكلف لتأليفه وترصيفه من أمير أو سلطان . . » .

كان الدافع عنده ذاتيا محضا ، ليكمل كتاب « الوافى بالوفيات » لمؤلفه الصفدى المتوفى

سنة ٧٦٤ هجرية ، والذى أعقب كتاب ابن شاكر الكتبى ، « فوات الوفيات » والذى قدم فيه لمن لم يترجم ابن خلكان لهم .

أما ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » توفى سنة ٦٢٦ هجرية ، فيؤكد فى مقدمة موسوعته النادرة أنه جمع مادة كتابه هذا « لفرط الشغف والغرام ، والوجد بها حوى والهيام . لا لسلطان أجتديه ولا لصدر أرتجيه . . . » .

أما ابن بسام الشنتريني ـ توفى ٥٤٣ ـ «صاحب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» ، والذى ترجم فيه لرجال الأندلس ، فيقول عبر مقدمة جزلة مؤثرة .

« أخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات وهوى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غَيْرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدُورُه أهِلّة ، وتُصبح بحاره ثِمادًا مُضْمحِلّة ، مع كثرة أدبائه . ووفور علمائه . . . » .

أما السخاوى صاحب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والذى يتميز بترجمته لعدد كبير من بسطاء الناس ، أصحاب الحرف وصغار المشايخ ، ومن خلالهم يقدم صورة حية للمجتمع المصرى فيقول فى مقدمته .

« والله أسأل أن يجنبنا الاعتساف المجانب للإنصاف وأن يرزقنا كلمة الحق فى السخط والرضا ويصرفنا عما لا يرتضى ويقينا شر القضا . . . » .

كان أولئك الذين قدموا أجمل موسوعات التراجم العربية فنية ، وقدرة على الوصف ، وتجسيدًا لحيوات الناس ، مدفوعين برغبة داخلية قوية فى إعادة خلق ما اندثر من سِيَر الآخرين . وهذا ما جعل آثارهم تدنو من حدود الإبداع الأدبى المستند إلى الواقع المروى ، وتحاور كافة أشكاله فى مختلف العصور .

* * *

تنوعت كتب التراجم تنوعًا كبيرًا ، بدءا بالتراجم العامة التى تجمع عددًا من سير أناس يختلفون صناعة وطبقة وعصرًا ومكانًا . لكنهم يتحدون فى صفة الجدارة بأن يُذكروا . من هذه الكتب ، « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » لكمال الدين الأنبارى ، المتوفى سنة ٥٧٧ هجرية ، والثانى « معجم الأدباء » لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية . وكتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان .

وهناك كتب التراجم التى صنفت حسب العصور ، ومنها « يتيمة الدهر » للثعالبى ، والذى ترجم فيه لأعلام الشعراء فى القرن الرابع الهجرى ، وكتاب « البدر المسافر وتحفة

المسافر » للادفوى المصرى وترجم فيه لأعلام القرن السابع الهجرى، وكتاب «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » للمؤرخ ابن حجر العسقلانى ، ثم كتاب السخاوى «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وكتاب « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى . و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » لمحمد أمين المحبى وكتاب « مسلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للشيخ محمد خليل المرادى وفى العصر الحديث صدر كتاب « حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر » للشيخ عبد الرازق البيطار .

وهناك كتب التاريخ العام التى تعتبر من مصادر التراجم شديدة الأهمية مثل كتاب «المنتظم » لابن الجوزى . و « الكامل » لابن الأثير ، و « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى ، و« بدائع الزهور » لابن إياس ، و « عجائب الآثار » للجبرتى .

أما كتب الخطط التى تناولت العمران والمجتمعات العربية فتحفل بالتراجم ، وأهمها ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ جرجان للسهمى ، وتاريخ حلب لابن العديم . وخطط المقريزى ، وخطط على باشا مبارك .

وتعد كتب الطبقات من مصادر هذا الفن الفريد ، طبقات الصحابة لابن سعد وطبقات الفقهاء ، منها « طبقات الفقهاء والمحدثين » للهيثم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٧ هجرية ، و « طبقات الفقهاء » لابن إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هجرية و «طبقات الشافعية الكبرى » لتاج الدين السبكى ، توفى سنة ١٧٧ هجرية . وهذا كتاب شديد الحيوية ، يقدم صورة متكاملة واقعية جدًا للمجتمع المصرى خلال القرن الثامن الهجرى . وهناك كتاب « طبقات الشافعية » لابن قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ هجرية ، وهناك مؤلفات فى تراجم الحنابلة والمالكية والحنفية ، وللشيعة العديد من كتب التراجم منها (أعيان الشيعة) ، و « مقاتل الطالبيين » للأصفهانى صاحب كتاب الأغانى . وبالمناسبة فإن كتاب الأغانى الشهير فى جوهره ما هو إلا كتاب تراجم ، هناك مؤلفات اختصت بطبقات المحدثين والحفاظ والقُرّاء ، والنحاة ، والشعراء ، والقضاة ، وكتاب واحد فقط فى التراث العربى للأطباء ، الذى وضعه ابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هجرية ، أما طبقات الصوفية فهناك العديد من الكتب الضخمة التى تحفل بتراجم رجال الصوفية وكراماتهم وخوارقهم وعاداتهم . إن المجال ليضيق بحصر تلك المؤلفات . ولكن لابد من الإشارة لثلاث موسوعات كبيرة . الأولى « حلية الأولياء » لأبى نعيم الأصبهانى ، وقد طبعت عدة مرات فى عشرة أجزاء ، وكتاب الإمام الشعرانى « لواقح الأنوار فى طبقات

الأخيار » واشتهر باسم « طبقات الشعراني الكبرى » . وهناك كتاب هام صدر أخيرًا في المغرب هو « التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي » لابن يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات وقد صدر في الرباط عام ١٩٨٤ بتحقيق الدكتور أحمد التوفيق . ونلاحظ في كتب التراجم الخاصة بالمتصوفة وجود البعد الغرائبي أو العجائبي المرتبط بالرجال والنساء المترجم لهم من أصل الكرامات .

* * *

هكذا . . ما قصدت إلا الإشارة إلى ذلك الفن القديم ، العريق في تراثنا ، قبل الإبحار في لجة مضمونه ، ومحاولة تلمس أسراره ، طرق الرواية ، وأساليبها ، وما يميز هذا عن ذاك . وما يذخر به من تفاصيل وحيوات تضج بها السطور بعد أن خلت الأرض من أصحابها ، كما ستخلو منا يومًا . .

لطائف المنن والأخلاق
فى وجوب التحدث بنعمة الله
على الإطلاق

فى بداية سعيى ، زمن اكتمال غضاضتى ، وشروق أمرى ، لم تكن يد الوالد الكريم ، تخلو من يدى عند توجهه هنا أو هناك ، لزيارة قريب ، أو للفسحة . أو للطواف بمقام أحد الكُمل الصالحين ، الثاوين فى تراب مدينتى الشاسعة ، كان أحد مقاصده مسجد سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، الذى ينسب إليه حى بأكمله يعد من أكثر مناطق القاهرة ازدحامًا وأصالة ، باب الشعرية ، مازلت أذكر ظلال المقام ، ورسوخ الضريح ، وخشوع القوم ، ورائحة القدم المنبعثة من أغطية الأرض الفقيرة عند الركوع مازلت أعى وقفة أبى ، وإطراقته ، والتماسه الغوث ، العون ، من الشيخ جليل القدر الذى رحل منذ حوالى خمسة قرون ، مازلت أذكر مع أن الشوط طال . والمسافات انقضت ، والصحبة انفرطت بعد التحاق أبى بالعدم . . رحمه الله .

فى السنوات الأخيرة عدت إلى سيدى عبد الوهاب الشعرانى من جديد ، هذه المرة عبر كتبه ، وآثاره ، سطوره حفزتنى لزيارته . ولكن هذه المرة بمفردى ، أترحم عليه ، وأقرأ له ولوالدى الفاتحة ، بعد أن نفذت إلى دقائق تكوينه الإنسانى من خلال ترجمته الذاتية البديعة ، الفريدة فى الأدبين العربى والعالمى ، والمعروفة بلطائف المنن والأخلاق فى وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، هكذا كتب الإمام سيدى الشعرانى حياته ، من خلال ذكر ما مَنّ الله به عليه . وتطرق إلى أدق تفاصيل معاناته الروحية ، وعلاقاته الإنسانية ، حتى ما يتعلق بزوجته ، رسم أيضًا صورة حية ، لمجتمعه ، ولعلاقات الناس ببعضهم البعض ، بحيث جاء صورة لعصر بأكمله ، بقدر ما عبر اضطرام وثراء الحياة الروحية . لواحد من الذين تعلق بهم الشعب . وأنزله فى أرفع مكانة .

المنن ، جمع منة . وخلال حياة سيدى الشعرانى أنعم الله عليه بالعديد منها . فرأى أن يذكرها . ليقتدى إخوانه به ، فيتخلقوا بها ، يقول فى سبب تأليفه الكتاب :

« وقد مكثت متخلقًا بها عدة سنين ، ولا يشعر إخوانى بذلك ، وكنت آمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لى يومًا جماعة منهم ، هذه الأخلاق التى تأمرنا بها لم نجد أحدًا تخلّق بها من أهل عصرنا حتى نقتدى به فيها ، فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلقى بها . قطعًا لحجتهم ، وقلت لهم : انظروا إلى هذه الأخلاق التى أذكرها لكم فى هذا الكتاب ، فكل خلق رأيتمونى متخلقًا به فاتبعونى عليه .

هكذا رتب الكتاب على مقدمة . وستة عشر بابًا ، وخاتمة ، فى الباب الأول يحدد نسبه الذى ينتهى بالإمام محمد بن الحنفية وخطته فى السرد إيراد فقرات متتالية . تبدأ كل منها بجملة « فمما مَنّ الله تعالى به علّى . . . » ، يقول أثناء سرد نسبه :

« وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد سلطانًا بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى رضى الله عنه ، ولما اجتمع به جدى موسى ، قال له الشيخ أبو مدين : لمن تنتسب ؟ . قال والدى : السلطان أحمد . فقال له : إنما عنيت اسمك من جهة الشرف ؟ فقال انتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك وشرف وفقر لا تجتمع . فقال له : يا سيدى قد خلعت ماعدا الفقر ، فرباه ، فلما كمل فى الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقال له أسكن بناحية « هِوّ » فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال . . » .

هكذا امتثل الجد السابع لأمر شيخه . فجاء من المغرب إلى مصر . وانتقل جذر سيدنا من المغرب إلى المشرق .

* * *

ولد فى ريف مصر ، فى القرن السادس عشر الميلادى ، يقول عن طفولته :

« ومما مَنّ الله تبارك وتعالى به علىّ : وأنا صغير ببلاد الريف حفظ القرآن وأنا ابن ثمانى سنين ، وواظبت على الصلوات الخمس فى أوقاتها من ذلك الوقت ، فلا أتذكر أننى أخرجت صلاة عن وقتها إلى وقتى هذا إلا نسيانا مرة واحدة فنسيت الظهر فى طريق الحجاز حتى دخل وقت العصر من غير نية تأخير ، وكثيرًا ما كنت أصلى بالقرآن كله فى ركعة وأنا دون البلوغ . فالحمد لله رب العالمين . . » .

جاء إلى القاهرة سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وعمره انذاك اثنتا عشرة سنة ، أقام فى

جامع سيدى أبى العباس الغمرى . وحنن الله عليه شيخ الجامع وأولاده ، فأصبح كأنه واحد منهم ، يأكل مما يأكلون ، ويلبس مما يلبسون :

« فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها ، وحللتها على الأشياخ ، ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فى المعاصى ، معتقدًا عند الناس يعرضون على كثيرًا من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وتارة أطرحها إباحة فى صحن الجامع ، فيلتقطها المجاورون ، وكنت كثيرًا ما أطوى الأيام وأنا دون البلوغ تعففًا عمّا فى أيدى الناس، وخوفًا من هوانى فى أعينهم . . » .

حفظ متون الكتب ، حتى صار يعرف متشابهاتها كالقرآن . واستمع إلى شيوخه وشروحهم ، وكانوا نحو خمسين شيخًا . وكان ينسخ الكتاب والزوائد عليه لضيق ذات يده عن شرائها يقول سيدى الإمام الشعرانى :

« وكان ذهنى بحمد الله سيالاً لا يسمع شيئًا وينساه ، ولم أزل كذلك حتى ترادفت علىّ الهموم ، لما بلغت فى السن إلى نحو خمس وعشرين سنة . وذلك نحو ثلاث وعشرين من القرن العاشر (الهجرى) التى دخلت فيها إلى مصر . لما جاءت دولة بنى عثمان نصرهم الله تعالى ، وقال لى مرات بدايتك نهاية غيرك ، فانى مارأيت أحدًا تيسر له مطالعة هذه الكتب كلها فى هذا الزمن أبدًا . . » .

ثم يقول :

« ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على حال اشتغالى بالعلم على الأشياخ حفظى من دعوى العلم والتكبر به على العامة ، فلا أستحضر أننى رأيت نفسى قط على أحد من عوام المسلمين » .

من نعم الله عليه أيضًا خفض الصوت عند حفظه . أو جدله مع رفاقه وكذلك كثرة المطالعة ، ومراجعة المشايخ سعيًا إلى الفهم الأدق وكان دائم السعى إلى نوادر المخطوطات .

« وكان الله تعالى قد سخر لى الشيخ شمس الدين المظفرى يأتينى بكل كتاب طلبته من خزائن مصر ، فجزاه الله تعالى عنى خيرًا . . » وبعد ذكر تحصيله ومجاهدته فى طلب العلم، يذكر مؤلفاته وتقريظ علماء عصره لها ، ويورد نصوص العبارات التى مدحوه بها ، ثم يقول :

« ومما أنعم الله تعالى به علىّ : موت جميع أشياخى وهم عنى راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى علىّ » .

كان سيدى الإمام يجاهد فى طلب العلم وتحصيله ، حتى أنه سعيًا إلى سهر الليالى مد حبلاً من السقف أحاط به عنقه ، يجعله حولها من العشاء إلى الفجر . ومكث على ذلك سنين ، حتى لا تأخذه غفوة .

القناعة باليسير

بعد ذكر ما حصله من كتب ، وما استوعبه من شروح ، ومتون ، يأخذنا شيئًا فشيئًا إلى عالمه الروحى . فيقول ما نصه :

« وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمتى ، فأغنتنى بحمد الله عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا .

ولم يقع لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا . وعرضوا علىّ الألف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئًا ، وكان المباشرون والتجار يأتون بالذهب والفضة فانثرهما فى صحن جامع الغمرى فيلتقطها المجاورون ، وتركت أكل لذيذ الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ، ثم أغاثنى الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامى إذ ذاك ، وكنت لا آكل طعام أمين ولا مباشر ، ولا تاجر يبيع على الظلمة ، ولا فقيه لا يسد فى وظيفته . ويأكل معلومها ولا غيرهم من جميع المتهورين فى كسبهم ، وضاقت علىّ الأرض كلها ونفرت من جميع الناس ونفروا منى . فكنت أقيم فى المساجد المهجورة ، والأبراج الخراب مدة طويلة ، وأقمت فى البرج الذى فوق السور من خرابة الأحمدى مدة سنة . وما رأيت أصفى من تلك الأيام . وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة وضعفت بشريتى ، وقويت روحانيتى ، حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمرى ، فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون ، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى وطلبها الصعود إلى عالمها ، فإنه لا يثقل الإنسان فى الأرض إلا كثرة الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر ، وتلاوة القرآن ، فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها ، إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلحق بعالمها السماوى ، وقد أنشدوا فى معنى ذلك :

ولما بدا الكون الغريب لناظرى

حننت إلى الأوطان شب الركائب

يقول سيدى الإمـام الشعرانى إنه كثيرًا مـا خرج إلى موارد البرك التى يغسـل الناس فيها الفجل والخس والجزر والبقل فيلتقط منها ما يكفيه ، ثم يقول :

« وقد مكثـت أنا نحـو سنة وعمامتـى من شراميـط الكيمان وقصاصـة الجلود . حتـى وجدت الحلال ، وبالغت فى التدقيق فى الورع بحماية الله عز وجل لا بحولى ولا بقوتى ، حتى كنت لا آكل مـن فراخ الحمام لأكلها من زرع الناس ، ماقد لا تسمـح به نفوسهم ، ولا أمشـى فى ظل عمارة أحـد من الـولاة أو أعوانهم ، ولما عمـل السلطان الغـورى بمصر السابـاطا ـ السقف ـ الخشب الذى بين مـدرسته وقبته الـزرقاء ، تركت المرور مـن تحته ، فكنت أدخـل من سـوق الوراقين ، وأخـرج من سـوق الشرب ، وأنا بحمـد الله على مقام الورع إلى وقتى هذا . . » .

الملتفت لا يصل

يذكر الإمام كثيرًا من شيوخه ، ولكن الاسم الذى يتردد أكثر من غيره . هو الشيخ على الخواص ، وقد أفرد لـه ترجمة مطولة فى كتابـه لواقح الأنوار المعروف بطبقـات الشعرانى . بعد أن يذكر مجاهدته من أجل العلم . واستيعاب الفقه ، والعلوم الشرعية ، والتفاسير ، بعد أن يذكر قبسًا مـن مجاهدته الروحية ، ينتقل إلى مجاهدته على يـد سيده وسيدنا الشيخ على الخواص الـذى أمره فى أول اجتماع بـه أن يبيع جميـع كتبـه ، وأن يتصدق بثمنهـا على الفقراء ، فامتثـل مع أنه يذكر نفاسـة كتبه وندرتها ، صار عنده التفات إليهـا وحزن لكثرة كتابته الحواشى والتقييـدات عليها ، شعر كأنه سلب العلم ، فطلب منـه شيخه أن يذكر الله تعالى فإنهم قالوا : ملتفت لا يصل .

وهنا :

« عملت على قطـع الالتفات إليهـا مدة حتـى خلصت بحمـد الله تعالى مـن ذلك ، فأمرنـى بالعزلة عـن الناس مدة حتى صفـا وقتى ، فصرت أهرب من النـاس وأرى نفسى خيرًا منهم فقال لى : اعمل على قطع رؤية أنك خير منهم .

فعملت فى المجاهدة مدة حتى صرت أرى أن أرذلهم خير منى .

ثم أمرنى بـالخلطة . والصبر على أذاهـم . وعدم مقابلتهم . فعملـت على ذلك حتى قطعته . فرأيت حينئذ أننى صرت أفضل مقامًا منهم فقال لى : اعمل على قطع ذلك .

فعملت على قطعه مدة ، حتى قطعته .

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله تبارك وتعالى سرًا وعلانية . وكل خاطر خطر لي بترك أكل الشهوات مطلقًا ، فتركتها حتى صرت أصعد بالهمة في الهواء . وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية ، ثم أمرني بالتوجه إلى الله تعالى في أنه يطلعني على أدلتها الشرعية . فلما اطلعت عليهما وصار لوح قلبي ممسوحًا من العلوم النقلية لا تدراجهما في الأدلة ، ترادفت عليّ حينئذ العلوم الوهبية ، وكان ابتداء ذلك بساحل بحر النيل عند بيوت البرابرة وسواقي القلعة ، فبينما أنا واقف هناك ، وإذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي ، كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث . واستنبط منهما الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك ، حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين ، فكتبت عن ذلك نحو مائة كراسة . فعرضت بعض ذلك على سيدي على الخواص فأمرني بغسله ، وقال : هذا علم مخلوط بفكر وكسب . وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك . فغسلتها وأمرني بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر ، وقال : بينك وبين علم الوهب الخالص ألف مقام . فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به عليّ ، وهو يقول : اعرض عن هذا واطلب ما فوقه . إلى أن كان ما كان . فهذا كان صورة فتحي بعد المجاهدة المذكورة . فالحمد لله رب العالمين .

* * *

هكذا ، بدأ سيدي الإمام الشعراني طريق القوم . وفي ختام الباب الأول الذي خصصه لشرح عناصر تكوينه ، يورد سطورًا لشيخه سيدي على الخواص .

« كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول : مررت على حجر مكتوب عليه اقلبني تعتبر، وذلك أيام سياحتي ، قال : فقلبته فوجدت في باطنه مكتوبًا : « أنت بما تعلم لم تعمل فكيف تطلب علم مالم تعلم فوالله إن أمثالنا لم يطلب العلم إلا لإقامة الحجة عليه لا غير، ومن ادعى غير ذلك كذبته أفعاله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . » .

يقول الإمام الشعراني في مفتتح الباب الثاني إن من نعم الله عليه عدم اصغائه منذ طفولته إلى من يزعم أنه يعرف علم الكيمياء ، أو يقدر على فتح المطالب ، وهذا من النعم الجليلة ، فقد تلف في ذلك حال كثير من الفقراء وطلبة العلم ، كان سيدي إبراهيم المتبولي يقول : ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحكام المقت فيهم ، من يحب اللواط . ومن يعمل الكيمياء ومن يريد فتح المطالب .

واضح أن المجتمع المصري كان مشغولاً بالأمرين معًا ، الاشتغال بالكيمياء لتحويل الحديد إلى ذهب . والعثور على الكنوز الخبيئة التي تضم الذهب والمجوهرات النفيسة ،

يقول الإمام الشعرانى إن سيدى « أبو » البقاء بن البارزى أخبره عن شخص نصب عليه . فأتلف عليه نحو ثلاثين الف دينار ، فصار يأخذ منه دفعات من المال ، ويطبخ ـ أى يجرى التجارب ـ فتطلع الطبخة فاسدة ، فيقول له : المرة الثانية تصح إن شاء الله تعالى ، واستمر الأمر حتى نفد جميع ما معه من مال .

سأله مولانا الشعرانى : وأين ، كان عقلك ؟

فقال : وهل لمحب الدنيا من عقل ؟

المطالب

أما الشيخ محمد أبو شعر الماوردى فكان من أصحاب سيدى الشيخ « أبو » السعود الجارحى . أخبر مولانا الشعرانى أن رجلاً نصب عليه قال له : بلغنى أن فى قاعتك مطلبًا عظيماً ومقصودى أفتحه لك ، ولكن يحتاج إلى نحو سبعة وعشرين ألف نصف نشترى بها بخورات ، ونحلى بها ضام الجن الذين يحرسون الكنز ، وكان النصاب يعرف علم الكيمياء ، فأخذه وأدخله القاعة ، وأطلق له عشبًا معروفًا عنده فرأى بمخيلته أن بابًا انفتح ، فنزل هو وإياه فوجدا أكوامًا من الذهب والفضة كالتلال الصغيرة ، وإذا بملك الكنز وحارسه نائم على سرير قوائمه من ذهب وهو مغطى بثياب من حرير ، وعليه شبكة من لؤلؤ. فقال له : بقى عندك شك ؟ ، فقال : لا ، فقال : أعطنى من المال لآتى لك بالبخور الذى يبطل الموانع لتبخر به ، فأعطاه جميع ما بيده من النقد ، وأخذ أساور أمه الذهبية ، وباع حتى ملابس زوجته ، وبعد أن أخذ النقود كلها اختفى ، ولم يعثر له على أثر حتى اليوم ، وبعد أن يأتى إمامنا الشعرانى بحكايات عديدة حول الذين سعوا إلى كشف الكنوز ، أو تحويل الحديد إلى ذهب ، يقول :

« وقد لعب الشيطان بجماعة كثيرة يدعون التصوف والسلوك فأتلفوا ما كان بأيديهم وأيدى أصحابهم من الأموال . وصاروا كلهم فقراء من الدنيا يأكلون بدينهم وصلاحهم ومجالسهم فى الذكر خبزاً وطعامًا وثيابًا . فكان الذى يأكل بالطبل والمزمار أحسن حالاً منهم . لأنه قد قيل بحل الأكل بالطبل والمزمار فى الجملة » .

ثم يحدثنا عن امتحانه لأحد الصوفية المشهورين فى عصره :

« وقد امتحنت سيدى محمد الجعفى لما حججت ، وقلت له : أنا أعرف علم الكيمياء فصار يخدمنى أشد الخدمة ، فلما عزمت على الرجوع من الحج تبعنى . وقال : علمنى ما وعدتنى . فقلت له : هيهات . . كيف أعلمك شيئًا يشغلك عن الله تعالى . فمازال

يقسم عليّ فلا أجيبه ، ثم قلت له : يا شيخ محمد أين شهرتك بالزهد فى الشام ومصر والحجاز والروم ، وأنت تحب الدنيا ؟ قال ، فاستغفر وتاب على يدى . وكلح منى » .

الشفقــة

من نعم الله العظمى على مولانا إحساسه بالآخرين . لم يكن ذاهلاً أو غائبًا عن مجتمعه أو ناسه .

« كثرة شفقتى على جميع المسلمين ، وولاة أمورهم ، حتى أنى ربما أمرض لمرض ولى أمرى . وأشفى وقت شفائه ، ومن شفقتى أننى أحوطهم فى كل يوم وليلة بما ورد فى الأخبار والآيات مما يدفع عنهم الآفات المعلقة على ذلك ، حتى أنى أحوط جسورهم أيام زيادة النيل خوفًا من أنها تنقطع قبل وقتها أو يقطعها العصاة كذلك فيعدم الناس رى أراضيهم أو بعضها ، وكذلك أحوط زروعهم من الدودة والهياف ـ المشرات ـ والفأر ، ونزول المطر الذى يحرق الزرع بعد اشتداد حبه ونحو ذلك إلى طلوع الثريا » .

والمقصود بالحوطة التى يذكرها مولانا أنه يقرأ آيات من القرآن الكريم وأورادًا تقيم حاجزًا وسياجًا حول الشيء المراد التحويط عليه لحمايته ، وقد وقع لى مثل ذلك فى طفولتى بصعيد مصر ، عندما كانت جدتى لأمى ترفع أصبعها وتحركها حولى رأسى متمتمة بما لا أعلمه وبين الحين والآخر تقول إنها تحوطنى من عين الحسود والمرض وأخطار الطريق والمجهول ، يقول مولانا وسيدنا :

« وكذلك أحوط زهر الفواكه والخضراوات خوفًا من البرد والحر الشديدين ، لأنهما يسقطان الزهر فيخسر الناس الذين يزنون المال على ذلك معجلاً ، وكذلك أحوط من يغفل عن الله عز وجل من رعاع الناس ، فى مثل يوم خروج المحمل أو خروج الحجاج أو دخولهم . أو كسر النيل أيام الوفاء ، أو دخول نائب جديد البلد ، أو عمل مولد . أو عرس . أو نحو ذلك . كالتفرج على البهلوان ، فأحوط جميع هؤلاء وأحوط دورهم خوفًا أن تسرق اللصوص ما فيها حال غيبتهم » .

بلغ من رهافة إحساسه بالآخرين ، أنه كان إذا سمع امرأة تجتاز مخاضًا صعبًا ، يشعر هو بآلام الوضع حتى تلد ، كان يرحم جميع الخلق ، فلكل مخلوق عنده رحمة تناسب حاله من مؤمن وكافر ، والرحمة على الخلق مقام لم يتفرد به إلا قلة محدودة جدًا من الصوفية ، ويحدثنا إمامنا عن رؤيا مرت به فى شبابه ، إذ رأى فى المنام أنه فى أرض من بللور واسعة وعليها سور شاهق نحو السحاب ، وليس له باب ، وهو خلف الشيخ نور الدين

الشونى ، شيخ مجالس الصلاة على رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى مصر وقراها ، فبينما هما ما شيـان إذ نزل من السماء قربـة من ماء فى سلسلـة من ذهب ، إلى أن وقف بقـدر ما يصلها فمـه ، شرب الشيخ نـور الديـن منها ، ثـم أعطاه الفضلـة ، تركـه حتى تجاوزه ، عندئذ نزل شىء يشبه اللوح وهو فى سلسلة مـن فضة إلى أن وقف بقدر ما يصل إليه الفم كـذلك ، فـرأى ثـلاثة عيـون تتفجر بماء بـارد ، على العين العليـا مكتوب ، هـذه العين مستمدة من حضرة الله تعالى ، أمـا الوسطى فمن العرش ، والسفلى من الكرسى ، ألهمه الله تعالى أن يشرب من الـوسطى . ولما قص رؤاه على الشيخ شهاب الهرامزى فسرها له . قال له إن ذلك يعنى الرحمة بجميع العـالم . لأن الحق تعالى ما ذكر أنه استوى على العرش إلا باسم الرحمن .

الأكـــل

يحدثنا مـولانا الشعرانى على امتـداد كتابه مرارًا عـن الأكل ، فمن منن الله عليـه أنه لم يأكل من طعـام فيه شبهة ، وإذا استراب فيه فإنه يتقيؤه ، كذلـك عدم الشبع من الحلال فضلاً عن الحرام والشبهات ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليه ، فإن أكل الحرام أو الحلال الزائد عـن الحاجة يجلب النـوم ، والنوم أخـو الموت ، لأنه يورث الغفلـة . عن جميع المصالح ، والخير ، كل الخير فى اليقظة ، والشر فى النـوم والغفلة ، ومن النعـم أيضًا عدم اشتهائه شيئًا من المطاعم والملابس إذا دخل السوق وإذا رأى فإنه يرى ببصر عقله لا بقلبه . كذلـك كرهه الأكل من الصدقـات الخاصة . وأيضًا حمايته من الأكل مـن هدايا الظلمة وأعوانهم من العمال ، ومشايخ العرب ، والكشـاف ، وشيوخ البلد ، والمباشرين ، أى من يمتون إلى السلطة ، قال تبارك وتعالى « ولا تـركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » فنهى عـن الركون والاستكـانة إلى الظلم . كـان سيدى إبراهيـم المتبولى يقول : إيـاكم أن تأكلوا مـن طعام من يعتقد فيكم الصلاح مـن الأمراء وغيرهم . فإنكم تأكلـون بدينكم . وكان رضى الله عنه يرد هـدايا الولاة . وقد أرسـل إليه شخص من جند السلطان فى رمضان صحن كنافـة مبخرة ، ونثر عليها السكر والفستـق ، فأكل منها لقمًا ، فقسـا قلبه جمعة ، وعجـز عن إخـراجه بـالقىء . ومـرة أخـرى أفطر عنـد شخص مـن مباشرى القلعـة فى رمضـان ، فوجد على مائدته أكثر من خمسة عشر لـونًا ، علم أنه متهور فى مكسبه ، فأكل لأجل خاطره ثلاث لقم بورق فجل ، وفى الليلـة نفسها رأى فى المنام من يقول له : استعد لمن يحاذيك على الصراط من أجل الثلاث لقم التى أكلتها الليلة بورق الفجل . عبثًا حاول أن يتقيأ فلم يتيسر له . يتساءل مولانا : فإذا كـان هذا فى مثل ثلاث لقم بفجل ، فكيف

الحال فيمن يشبع ، فأسأل الله تعالى من فضله أن يحمينى وإخوانى من مثل ذلك بقية أعمارنا ، أمين والحمد لله رب العالمين .

الولاة الحكام

يشعر إمامنا الشعرانى بآلام الحكام ، حتى أنه يمرض لمرضهم ، ولكنه يحسهم كولاة لأمور المسلمين وليس باعتبارهم حكامًا ذوى سلطة ، وقد نثر فى صفحات كتابه الكثير من المنن المتعلقة بعلاقته بهم ، ومعظمها يعكس تعففا ، وتجنبًا وشجاعة فى مواجهتهم عند وقوع الضرورة . يؤكد أنه لا يخاف من مخلوق مطلقًا ، حتى الحيات أو العقارب والتماسيح واللصوص والجان ، ولكنه قبل ذلك يقول :

« ومما أنعم الله تبارك وتعالى به علىّ : عدم خوفى من أحد من الولاة بسبب كلام نقله لهم بعض الحسدة فى حقهم عنى أو نحو ذلك إلا إن كان الخوف منهم يرجع إلى الخوف من الله عز وجل » .

ويروى إمامنا عن الأمير خضر كاشف الشرقية والقليوبية أن الشيخ المتصوف على البرلسى لقيه فى طريق قليوب ، ومعه العسكر فقبض على طوقه وأنزله من فوق الفرس ، وصار يصفعه ويضربه على عمامته ، حتى هدمها فى عنقه بحضرة عسكر السلطان ، حتى أن الأمير صار يرتعد من هيبته .

« ومن هنا تصدر العلماء العاملون لإزاله منكرات الولاة كالشيخ محيى الدين النووى ، والشيخ تقى الدين الحصنى ونحوهما لكمال زهدهم فى الدنيا ، ولو أنهم كانوا يحبون الدنيا لما قدر أحد منهم على مخاصمة أحد الولاة » .

يقول الإمام الشعرانى إنه حمل دائمًا على العلماء الذين يدخلون على الأمراء ولا ينصحونهم ، ولا يأمرونهم بمعروف ، ومن منن الله عليه نفوره من مدح الأمراء ، وقلة عبادته للظلمة ، وفى المقابل فإنه يشارك الخلق كل بلاء يقع عليهم ولا يهدأ إلا إذا ارتفع .

« ومما مَنّ الله تبارك وتعالى به علىّ : مشاركتى لكل من بلغنى أنه فى ضيق فى جميع ما يصيبه ، وينزل عليه من البلايا والمحن » .

« ومما يقع لى أنه إذاكان عندنا امرأة فى المخاض أحس أنى أطلق مثلها ، إذا بلغنى ما هى فيه من الوجع . وكذلك . إذا بلغنى أن أحدًا يعاقب فى بيت الوالى أحس بالمقارع ، والكسارات وعصر الرأس ، ووضع الخوذة المحماة بالنار على رأسى . . » .

وفى المقابل يقول إن من منن الله عليه حب الفقراء له ، واعتقادهم فيه حتى أن بعضهم يحلفون به ، ويقولسون لبعضهم : وسر سيـدى عبد الـوهاب . فيحلفـون به كما يحلفـون بالمشـايخ الموتـى ، المدفونين فى التـوابيت « مـع أنى لسـت بشيخ ، وإنما الله تعـالى مازال يسترنى بين عباده بوجوه شتى ، فله الفضل والمنة على سترتى بين عباده » .

الحيـاة الخـاصـة

لا أظن أن ترجمة ذاتية فى الأدب القديم أو الحديث حوت مثل صراحة امامنا الشعرانى وهو يسرد لطائف منته ، خـاصة فيما يتعلق بزوجته ، وعندما تـوجه إلى زيارة سيدى أحمد البدوى فى طنطـا صحب زوجته . كان قـد عقد عليها منـذ سبعة شهور وما تـزال بكرًا ، جاءه السيد أحمد البدوى ، وقال له : اختل بها فى ركن القبة الذى على يسار الداخل وأزل بكارتها ، ففعل .

« ومما أنعـم الله تبارك وتعالى بـه على : كثرة شفقتـى على ذريتى من قبـل أن تحمل بهم أمهم . وذلك أنى لا أجامع أمهم قط وأنا غـافل عن الله تبارك وتعالى ، ولا أجامعها وأنا غضبان ولا وأنـا مقبل على الدنيا ، ولا وأنـا مخاصم أمهم لحظ نفس ، ولا وأنـا حسود أو متكبر على أحد من المسلمين » .

ومن لطـائف المنن أيضًا كثرة صبره على زوجتـه إذا مرضت ، حتى أنـه لا يستنكف أن يمسح ما تحتهـا من القـاذورات إذا عجـزت عن الـذهاب إلى الخلاء ، أو الجلـوس على الطشت مثلاً . كما كانت تفعل معه إذا مرض ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

« وإن طـال مـرضها واحتجـت إلى التـزويج لم أتـزوج عليهـا لئـلا أجمع بذلـك عليهـا مرضين . حسيًا ومعنـويًا ، وإن خفت العنت استعملت الأدوية المسكنـة لهيجان الشهوة إلى وقت شفاء زوجتى أو موتها . كل ذلك قيامًا بحق الصحبة ولـو ليلة واحدة . وشفقة على خلق الله تعالى بمثل ما أصنع معها إذا مرضت » .

يقول إن من منن الله عليه عدم بخله عليها بأجرة الحمام ، سواء كان لإزالة جنابة جماع أو نفاس ، أو حيـض . لأن ذلك من جملة المعـاشرة بالمعروف ، فمن بخـل على زوجته لم يعاشرها بمعـروف ، وعلى امتداد الكتاب يوصـى بغض الطرف ، وعدم النظـر إلى محاسن امرأة الجار ، أو تلك التى غاب زوجها ، والرحمة بالأبناء ، والمودة والقربى للزوجة .

* * *

لطائف المنن دستور إنسـاني رفيع فيما يجب أن تكون عليه علاقـة الإنسان بمجتمعه ، بأسرتـه ، بصحبه ، بالحكـام والولاة ، يفصل أحـوال المجتمع المصرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، ويثبت أن المتصوفـة الكبار كانـوا على صلة وثيقة بـأدق تفاصيـل الحياة اليومية ، كانوا طرفًا أساسيًا فى المجتمع ولم يكونوا على هامشه ، وقد أدرك الناس ، خاصة البسطاء حقيقة هذه النفس الشفافة . الإنسانية ، فأنـزلوا صاحبها فى حياته أرفع منزلة ، حتى أنهم حلفـوا به . وبعـد وفاته رفعـوه إلى مرتبة الأوليـاء الصالحين . وإننـى إذ أمضى لزيارة ضريحه فى زمنى القاهرى العتيق ، احتوى بنظرى مئات الساعين إليه ، القادمين من قرى قصيـة ، أو أماكن بعيدة ، يطـوفون بمرقـده ، يقرءون الفاتحة ، ويبثون نجـواهم ، ومواجعهم . لقد عبر جـوهره الإنسانى الحقب والعصور المتتاليـة . فصار ضوءًا مشعًا ، هـو الذى لم يقـدم على تـدويـن لطائف المنـن التـى أنعـم بها الله عليه ، إلا ليقتـدى بـه الآخرون، ويتبعوه ، فتصبح إنسانيتهم .

ابــن سينــا .. يتحــدث عن نفســه

تبدو الترجمة الذاتية فى أدبنا العربى لغير المدقـق ، الخبير بجوانب هذا التراث نادرة بل قد يقول البعض إنها منعـدمة ، غير أن الواقع لا يؤيد ذلك ، فإلى جـانب النصوص التى كتبت كترجمة ذاتية مباشرة ، أى أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد ، مثل (الاعتبار) لأسامة بـن منقذ ، و (المنقذ من الضلال) لـلإمام الغزالى ، و« السيرة المؤيديـة » للمؤيد الشيرازى ، هناك نصوص عـديدة فى بطون الكتب ، إلى جـانب الشعر العربـى القديم ، الذى نجـد فى العديد مـن قصائده ترجمة ذاتيـة للشاعر ، وهـذا موضوع يحتـاج إلى بحث ودراسة منفصلة ، وبـالطبع فإننى أتحدث عـن الترجمة الذاتية ، أما عـن كتب التراجم فما أغنى الأدب العربى بها ، وكتب الطبقات والتراجم يزخر بها تراثنا فى مختلف العصور .

من النصوص المندسة فى بطون الكتب ، نص فريـد يتحدث فيه ابن سينا عن نشأته ، وتكوينه أملاه على أحـد المقربين منه ، أبى عبيد الجوزجانى وهذا النـص موجود فى كتاب «عيون الأنباء فى طبقـات الأطباء » لابن أبى أصيبعـة ، والذى حققه وشرحه الـدكتور نزار رضا ، وصدر فى بيروت عن منشورات دار مكتبة الحياة منذ عدة سنوات . يقول المحقق فى مقدمة الكتاب :

« من أطباء العرب المعروفين وأدبائهم المرموقين ، رجل ترجم فى كتاب واحد ، لم يؤلف غيره . أطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يـومه الذى هو فيه ، إنه موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الخزرجى » .

ولد فى دمشـق عام ٦٠٠ هجـرية ، وكان والـده طبيبًا تلقـى علم الطـب فى دمشق ، والقاهـرة ، وذاعت شهرتـه حتى وصلت إلى أمير صرخـد ، إحدى مدن جبـال حوران ، فأرسل يطلبـه ، فرحل إليه ، وهناك عاش حتـى توفى فى ٦٦٨ هجرية ، وضع كتـابه هذا لأمين الـدولة وزيـر الملك الصـالح ، وقـد بـدأ فيه بترجمة كبـار الأطباء زمـن الإغريـق ،

والرومان، والهنود ، والعرب ، والعجم . ترجم لأطباء مصر والشام ، كل قطر على حدة . طبع لأول مرة على يد المستشرق الألمانى مولر الذى عثر على نسختين مخطوطتين منه عام ١٨٨٤ . ثم قامت المطابع المصرية بطبعه مرة أخرى ، نقلاً عن طبعة مولر، إلا أن العثور على طبعاته القديمة بات صعبًا ، ولم يصبح متاحًا إلا بعد التحقيق الجديد الذى قدمه الدكتور نزار رضا .

* * *

ابن سينا أو الشيخ الرئيس ، أو إمام العلوم كلها ، ولد عام ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) قرب بخارى . كان أبوه من أهل بلخ . أتم دراسته فى اللغة والأدب وهو فى سن العاشرة على يدىْ رجل مجهول لم تذكره الترجمة التى نتحدث عنها . ويقول الأستاذ محمد ثابت الفندى فى تعليقه على المادة التى كتبها المستشرق دى بور لدائرة المعارف الإسلامية إن هذا الرجل من المحتمل أن يكون هو أبا بكر أحمد بن محمد البرقى الخوارزمى (يراجع كشف الظنون لحاجى خليفة الجزء الثالث ـ ص ٣٧٦) ، وتقول الترجمة إنه درس الطب بمفرده ، من جهة أخرى يروى أنه تلقاه على أبى سهل المسيحى ، وأبى منصور الحسن بن نوح القمرى، عام ٣٩٢ هـ ، وبعد سقوط عرش السامانيين بين يدىْ أمير غزنة السلطان محمود بن سبكتكين ، خرج من كركانج إلى جرجان عام ٤٠٣ هـ ، فارًا من وجه سلطان غزنة أيضًا ، ويذكر فريد الدين العطار أنه التقى بالشيخ أبى سعيد بن أبى الخير شيخ متصوفة هذا العصر فى نفس هذا العام ، فى عام ٤٠٦ هـ يظهر ابن سينا فى المدى ثم نجده فى همذان حيث تولى الوزارة مرتين ، إلا أنه من المؤكد أنه ترك الوزارة عام ٤١١ هـ ، إذ نجد فى أخبار هذا العام عند ابن الأثير ذكرًا لوزير آخر ، بعد تركه الوزارة اضطهد من قبل أمير همذان الجديد ، بث حوله البصاصين ، بل إنه سجن لفترة ، وأخيرًا . . فر إلى أصفهان عام ٤١٤ هـ ، وعاش مقربًا من أميرها علاء الدولة بن كاكاويه . ثم توفى فى عام ٤٢٨ هـ . ويروى ابن خلكان فى وفيات الأعيان روايات مختلفة عن موضع وفاته ، كما ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأنه توفى بالأندلس إثر دسيسة من ابن رشد ، ولكن هذه أقاويل تفتقر إلى أبسط الأدلة ، وحتى الآن فإن قبره مازال بهمذان يزار . كان ابن سينا قويًا ، جلدًا ، وفى نص ترجمته صورة حية ، بليغة تصف مواصلته السهر لتحصيله العلم ، وسكبه المياه الباردة على رأسه كلما أوشك على النوم حتى يفيق ، فى السادسة عشرة كان قد استوعب الطب ، والمنطق ، والألهيات ، وعندما تمكن من علاج سلطان بخارى نوح بن منصور سمح له بدخول دار كتبه ، ولأنه كان يتمتع بقوة ذاكرة مدهشة فقد

استطاع فى فترة وجيزة أن يحصل من العلم الكثير . وفى الواحدة والعشرين بدأ يصنف الكتب . تعرضت حياته لا ضطراب بعد وفاة والده ، إلا أنه كتب أهم مؤلفاته خلال فترات الراحة والهدوء التى كان ينعم بها فى بلاطى همذان ، وأصفهان ، وقد أتم فى هذه الفترات دائرة معارفة الفلسفية (الشفاء) ومصنفه الطبى (القانون فى الطب) . وقد تركت مؤلفاته الموسوعية أثرًا عميقًا على الفكر الإسلامى ، والعصور التالية له ، وبعد موته تكونت له فى الأذهان ملامح أسطورية . والترجمة التى نورد نصها تلقى الضوء على بعض سيرته ، خاصة سنوات تكوينه ، إلا أننا ننبه إليها من زاوية محاولة تسليط الضوء على بعض الجوانب المجهولة فى الأدب العربى ، خاصة وأن كتابًا مثل (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) قد لا ينظر إليه دارسو الأدب العربى باهتمام . وكثير من المصادر التى يمكن أن تثرى أدبنا الحديث فى بطون كتب غير مطروقة . وهذا النص يؤكد وجود شكل السيرة الذاتية فى تراثنا العربى والإسلامى ، إلى جانب نصوص أخرى سوف نحاول تسليط الضوء عليها تباعًا .

* * *

إن أبى كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصوف . وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى . وبقربها قرية يقال لها أفشنة ، تزوج أبى منها بوالدتى وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب . وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى . وكانوا ربما تذكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى ، وابتدءوا يدعوننى أيضًا إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه ، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلى وكان يدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على العجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم به .

ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجى على الناتلى ، ولما ذكر لى حد الجنس ، إنه هو المقول

على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ، فأخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل العجب وحذر والدى من شغلى بغير العلم . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيرًا منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه . وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب أقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية ، قال لى الناتلى تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه . ثم فارقنى الناتلى متوجهًا إلى كركانج ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح ، من الطبيعى والآلهى ، وصارت أبواب العلم تنفتح علىّ .

ثم رغبت فى علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة . ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفا ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفى هذه المدة نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره وجمعت بين يدى ظهورًا فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ورتبتها فى تلك الظهور ، ثم نظرت فيما عساها تنتج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة . وكلما كنت أتحير فى مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع ، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لى المنغلق ، وتيسر المتعسر .

وكنت أرجع بالليل إلى دارى وأضع السراج بين يدى ، واشتغل بالقراءة والكتابة . فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلىّ قوتى ، ثم أرجع إلى القراءة . ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام . وكذلك حتى استحكم معى جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنسانى . وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت على المنطق والطبيعى والرياضى . ثم عدلت إلى الآلهى ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة . فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس على

غرض واضعه، حتى أعـدت قراءته أربعين مرة وصار لى محفوظًا . وأنـا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه . وإذا أنا فى يوم من الأيـام حضرت وقت العصر فى الـوراقين وبيد دلال مجلـد ينادى عليـه . فعرضـه علىّ فرددتـه رد متبرم معتقد أن لا فائدة مـن هذا العلم . فقال لى اشتر منـى هذا فإنـه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنـه ، واشتريته فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتـاب ما بعـد الطبيعة : ورجعت إلى بيتـى وأسرعت قـراءته ، فـانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لى محفـوظًا على ظهر القلـب . وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانـى يومه بشيء كثير على الفقراء شكرًا لله تعـالى . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بـن منصور ، واتفق له مرض التّج الأطباء فيه وكـان اسمى اشتهر بينهم بالتوفـر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يـديه وسألوه إحضـارى ، فحضرت وشاركتهم فى مداواته وتـوسمت بخدمته فسألته يـومًا الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتهـا وقراءة ما فيها من كتب الطـب ، فأذن لى فدخلت دارًا ذات بيوت كثيرة فى كل بيـت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . فى بيت منها كتب العربية والشعر، وفى آخر الفقه وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد .

فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضًا من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مـرتبة كل رجل فى علـمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى ، فرغت من هذه العلـوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شيء وكان فى جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضى فسألنى أن أصنف له كتابـًا جامعًا فى هذا العلم ، فصنفت له المجموع وسميته به . وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى . ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى . وكان فى جوارى أيضًا رجل يقال لـه أبو بكر البرقى ، خوارزمى المولد ، فقيه النفس ، متوحد فى الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له فصنفـت له كتـاب الحاصـل والمحصول فى قـريـب من عشريـن مجلـدًا ، وصنفت لـه فى الأخلاق كتـابًا سميته كتاب البر والإثـم . وهذان الكتابـان لا يوجدان إلا عنده فلـم يعر أحـدًا ينسخ منهما ثـم مـات والـدى وتصرفت بـى الأحـوال ، وتقلـدت شيئًا مـن أعمال السلطـان ، ودعتنى الضرورة إلى الإخـلال ببخـارى والانتقال إلى كـركـانـج . وكان أبـو الحسين السهلى المحب لهذه العلـوم بها وزيرًا ، وقدمـت إلى الأمير بها وهو على بن مـأمون

وكنت على زى الفقهاء إذ ذاك بطيلسان وتحت الحنك ، وأثبتوا لى مشاهرة دارة بكفاية مثلى ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ، ومنها إلى باورد ، ومنها إلى طوس ، ومنها إلى شقان ، ومنها إلى سمنيقان ، ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفق فى أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضًا صعبًا وعدت إلى جرجان ، فاتصل أبو عبيد الجوزجانى بى وأنشأت فى حالى قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعى   لما غلا ثمنى عدمت المشترى

قال أبو عبيد الجوزجانى ، صاحب الشيخ الرئيس ، فهذا ما حكى لى الشيخ من لفظه .

* * *

إلى هنا ينتهى النص الذى ورد فى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ويكمل أبو عبيد الجوزجانى قائلاً :

هذا ما حكى لى الشيخ من لفظه !

الاعتبـــــار

للأمير أسامة بن منقذ

وهو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري

« إن ركـوب أخطار الحروب لا ينقـص أجـل المكتوب ، فـإنني رأيـت معتبرًا يوضـح للشجـاع العـاقل ، والجبـان الجاهـل أن العمـر مـوقـت ، مقدر ، لا يتقـدم أجله ولا يتأخر . . » .

ما خطه الأمير العربي أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » الذي بدأ تدوينه بعد أن بلغ التسعين من العمر ، عمر طويل شهد فيه أحداثا جسيمة وحاسمة ، الحروب الصليبية ، زوال الدولة الفاطمية في مصر ، عرف صلاح الديـن الأيوبي والعادل نور الدين ، وعاش في البلاط الفاطمي وكـان طرفًا رئيسيًا في الصراعات التي جـرت في عهد الخليفة الحافظ ، والخليفة الفائز ، خاض معارك لا حصر لها ، كان فارسًـا شجاعًا ، وشاعرًا أديبًا ، وقطع سنوات طـوالا من عمره جوابًـا ، ولد في ٢٠ جمادى الآخر ٤٨٨ هـ (٤ يـوليو ١٠٩٥) . أطلق عليه والده اسم أول قائد عربي عهد إليه فتح الشام ، نشأ في قلعة شيزر على ضفاف نهر العاصمة . قضى معظم شبابه ما بين بـلاط نور الدين في دمشق ، والبلاط الفاطمي في القاهـرة ، كهولته قـد أمضاها في الموصـل ، في حصن كيفا المطـل على نهر دجلة ، زار بيت المقـدس في فلسطين وحج إلى الحرمين ، وتنقل بين معظـم البلاد الإسلاميـة وخلال سنوات عمره الأخيرة ، وفي حصـن كيفا ، كان يشرف على السنوات الطويلـة التي قطعها في هذه الحياة الـدنيا ، يتأمل ، ويسجل ، ويستخلص العبرات ، وفي حـدود ما أعلـم ، فإن هذا الكتاب فريد من نوعه في التراث العربي ، إذ يمكن اعتباره سيرة ذاتية متكاملة في الأدب العـربي ، الكـاتـب والمكتوب عنـه شخص واحـد ، فهـو سيرة ذاتية تتطـرق إلى تفاصيل إنسانية لم تتطرق إليها السير الأخرى كعلاقة مؤلف بوالده ، وإحساسه بالطبيعة ،

والزمن ، مما يجعل الكتاب أثرًا فريدًا فى الأدب العربى ، حيث لا يتكلف السجع أو يستعرض فخامة الألفاظ ، إنما يترك أسلوبه ليسترسل على سجيته ، هناك سيرة ذاتية أخرى تسبق الاعتبار بسنوات قليلة لأحد الدعاة الفاطميين ، وهو المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى المتوفى ٤٧٠ هـ غير أن الطابع العقائدى يغلب عليها ، كما أنها لا تتطرق إلى التفاصيل .

مخطوطة كتاب الاعتبار وحيدة لا أخت لها ، محفوظة فى مكتبة الاسكوريال ، وقد نشرت لأول مرة فى ليون عام ١٨٨٤ . وفى عام ١٩٣٠ نشر الأستاذ فيليب حتى السفر العربى محققه فى الولايات المتحدة . وقد أعيد نشره فى بيروت منذ عدة سنوات ، وفى هذا الإعداد الذى أقدمه أحاول أن أجعل النص متاحًا للقارئ ، لا أتدخل قط بالتعديل فى الأجزاء التى أقتطعها منه ، وقد حرصت على توضيح خلفيات بعض الحوادث التاريخية ، وإعادة ترتيب بعض الأجزاء حتى يكون متاحًا ، واضحًا للقارئ الذى تبدو أمامه كتب التراث كالألغاز والأحاجى . وتنأى عن المتناول بسبب ظروف عديدة فى حياتنا الثقافية :

أسامة فى مصر

(. . الدولة الفاطمية فى مصر تمزقها الانقسامات ، والاضطرابات ، تزايد الصراع بين أطراف الدولة المختلفة ، فى هذه الأوقات العصيبة وصل إلى مصر من الشام الأمير أسامة ابن منقذ . .) .

« . . فكان وصولى إلى مصر يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٩ ـ ١١٤٤ م) . فأقرنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى ، فخلع على بين يديه . ودفع لى تخت ثياب ومائة دينار . وخولنى دخول الحمام ، وأنزلنى فى دار من دور الأمير الأفضل بن أمير الجيوش فى غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس . كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة . إقامة فى إكرام واحترام ، وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج .

(فى ذلك الوقت كان يتولى الوزارة رضوان بن الولخشى ، كان شاعرًا وجنديًا مقدامًا ، ثم عزل من الوزارة ففر إلى الشام وطلب إلى زنكى أتابك الموصل مساعدته ، كان يريد غزو مصر . غير أن الأمير أسامة بن منقذ أثناه عن ذلك ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار دفعها له من أموال الخليفة الفاطمى ، عاد الوزير رضوان إلى القاهرة بعد أن أمنه الخليفة الفاطمى الحافظ غير أنه لم يف بعهده . فقد حبسه عشر سنوات تمكن فى آخرها من

الفرار. وجمع أنصارًا كثيرين ، واستقر فى الجامع الأقمر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وأسروه ، فقطعوا رأسه ، وقطعوا جسمه ، والتهموه اعتقادًا منهم أنهم بذلك يماثلونه فى بأسه وشجاعته . . وبعد يومين من مقتل رضوان توفى الخليفة الحافظ . .) .

« . . وجلس بعده الظافر بأمر الله . وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخًا كبيرًا ، والأمير سيف الدين « أبو » الحسن ، على بن السلار ، رحمه الله إذ ذاك فى ولايته . فحشد وجمع وسار إلى القاهرة ونفذ إلى داره فجمع الظافر بأمر الله الأمراء فى مجلس الوزارة ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء فى مجلس الوزارة ، ونفذ النبأ زمام القصور يقول « يا أمراء هذا نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمتثل بأمره . » .

قال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » .

فقال أمير من الأمراء ، شيخ يقال له « لكروان » : « يا أمراء نترك على بن السلار يقتل؟» قالوا : « لا والله » قال « قوموا » فنفروا كلهم وخرجوا من القصر . شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا إلى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالاً كثيرًا وقال « اخرج إلى الحوف ، اجمع واحشد وانفق فيهم . وادفع ابن السلار . . » ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرنى أن أبيت أنا وأصحابى فى داره وأفرد لى موضعًا فى الدار أكون فيه .

(دارت الحرب بين ابن السلار ، والوزير المخلوع إبن مصال وكان الأمير أسامة بن منقذ فى جانب ابن السلار ، وعند مدينة الواسطى بالوجه القبلى دارت معركة حاسمة هزم فيها ابن مصال . واستقر ابن السلار عنوة فى منصب الوزارة غير أن الخليفة الظاهر لم يكف عن الكيد له . .) .

« . . فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استمالهم ، واتفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه وكان شهر رمضان والقوم قد اجتمعوا فى دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل وافتراق أصحاب العادل (ابن السلار) وأنا تلك الليلة عنده .

فقد فرغ الناس من العشاء وافترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين (المتآمرين)

عليه ، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهما أن يهجما عليهم للدار التى هم فيها مجتمعون . وكانت الدار لما أراده الله من سلامة بعضهم ، لها بابان ، الواحد قريب من دار العادل ، والآخر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب قبل وصول أصحابهم إلى الباب الآخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب ، وجاءنى منهم فى الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال ، كانوا أصدقاء غلمانى فخبوهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منه قتل .

وأعجب ما رأيت فى ذلك اليوم أن رجلاً من السودان الذين كانوا فى العملة انهزم إلى غلو دارى ، والرجال بالسيوف خلفه ، فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفى الدار شجرة نبق كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة فثبت عليها ثم نزل ودخل من كم مجلس قريب منه فوطئ على منارة نحاس فكسرها ، ودخل إلى خلف رجل فى المجلس . وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه . فصحت عليهم وأطلقت عليهم الغلمان . دفعوهم ودخلت إلى ذلك الأسود . فنزع كساء عليه وقال « خذه إليك » قلت « أكثر الله خيرك ، ما أحتاجه » .

وخرجته ، وسيرت معه قومًا من غلمانى فنجا . .

(استدعى الأمير أسامة بن منقذ لمقابلة الوزير ابن السلار ، الذى طلب منه أن يتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين ، يطلب مساعدته لغزو مدينة طبرية التى كان يحتلها الصليبيون ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين لمصر ، وفى هذه الأثناء يسير الوزير ابن السلار لغزو غزة وعسقلان .

(يخرج الأمير أسامة من مصر موفدًا فى مهمة من قبل الوزير ابن السلار إلى الشام لمقابلة الملك العادل نور الدين ، يطلب منه العون ضد الصليبيين) .

يقول أسامة بن منقذ

« . . وسرت وقد أزاح علة سفرى بكل ما أحتاجه من كثير وقليل ، فلما من الجفر «واحة بين مصر وفلسطين» قال لى الأولاد :

« هذا مكان لا يكاد يخلو من الأفرنج » .

فأمرت اثنين من الأولاد ركبا مهرتين وسارا قدامنا إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا والمهارى تطير بهما ، قالا :

« الفرنج على الجفر ! » .

فوقعت وجمعت الجمال التي عليها ثقلى ورفاقًا من السفارة كانوا معى ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكى وقلت :

« تقدموا وأنا فى أثركم »

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه ، وتفرق أصحابى فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهما ، مسكت ثوبى وقالت : « يا شيخ أنا فى حسبك » . قلت « أنت آمنة مالك ؟ » .

قالت : « لقد أخذ أصحابك لى ثوبًا وناهقًا ونابحًا وخرزة » .

قلت لغلمانى : « من كان أخذ شيئًا يرده » .

* * *

« ومن طريف ما جرى لى فى الطريق أننى نزلت ليلة أصلى المغرب والعشاء قصرًا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الأرض ، وقلت للغلمان : « تفرقوا فى طلب الجمال ، وعودوا إلى . فأنا ما أزول من مكانى » .

فتفرقوا . وركضوا . كذا وكذا فما رأوهم ، فعادوا إلى وقالوا :

« ما لقيناهم ، ولا ندرى كيف مضوا » .

« نستعين بالله تعالى ونسير على النوء » .

فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال فى البرية على أمر صعب وفى الأدلاء رجل يقال له « جزّية » فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا علم أنا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحه وجعل يقدح وهو على الجمال . . والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ، فقصدنا النار حتى لحقناهم . ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا .

* * *

ومما جرى فى تلك الطريق أن الملك العادل (الوزير ابن السلار) قال لى : لا تعلم الزملاء الذين معك بالمال . فجعلت أربعة آلاف دينار فى خرج على بغل سروجى مجنوب ، معى وسلمته إلى غلام وجعلت ألفى دينار فى خرج على حصان مجنوب معى وسلمته إلى غلام ، فكنت إذا نزلت جعلت الأخراج فى وسط بساط ، ورددت طرفية عليها ، وبسطت

فوقه بساطًا آخر ، وأنام على الأخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابى ، يجئ الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانها ، فاذا شداهما على الجنائب ركبت وأيقظت أصحابى ، فهممنا بالرحيل ، فنزلنا ليلة فى تيه بنى إسرائيل فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذى معه البغل المجنوب أخذ الخرج وطرحه على وركى البغل ودار يريد شده ، فنزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج ، فركبت حصانى ، وقد قدمه الركابى ، وقلت لواحد من غلمانى : « اركب . . اركب » . وركضت خلف البغل فما طقته ، وهو كأنه حمار وحش ، وحصانى قد أعيى من الطريق ، ولحقنى الغلام ، فقلت « اتبع البغل » فمضى وقال : «والله يا مولاى ما رأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت أطلب والبغل أهون مفقود » ، ورجعت إلى المنزلة وإذا بالبغل قد جاء يركض دخل فى طوالة الخيل ووقف ، فكأنه ما كان قصده ألا تضييع أربعة آلاف دينار .

* * *

« ويمضى أسامة إلى الشام ، يلتقى بأسد الدين شركوه ، وبالعادل نور الدين ، يرفض نور الدين محاربة الصليبيين فى هذه الفترة ، لأن أهل دمشق لم يكونوا معه ، وبرغم ذلك سمح للأمير أسامة أن يجند تحت لوائه عددًا كبيرًا من المتطوعين وسمح لعدد من جنود حرسه الخاص الانضمام إليه لينسب إلى نفسه ما قد يحوزه أسامة من نصر ، ويحاصر أسامة الفرنج فى عسقلان مدة أربعة شهور ، غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها أمام الفرنج من جهة ، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره ، سار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب غير أن ابن السلار أمره بالعودة إلى القاهرة ، وفى القاهرة كانت تنتظره أحداث جسام » .

« لقد كان بصحبة أسامة شاب اسمه عباس ، وهو فى نفس الوقت ابن زوجة الوزير ابن السلار . وكان عباس متألمًا بسبب سفره إلى الشام لمحاربة الصليبيين ومغادرة مصر الجميلة ذات المناخ الجميل ، كذلك كان يضيق بعبء الحياة العسكرية . وفى بلبيس أفضى عباس بمتاعبه إلى أسامة . ويقال إن أسامة أراد حينئذ أنه فى إمكانه أن يتجنب هذا كله بقتل الوزير ابن السلار ، زوج أمه ، وعندئذ أرسل عباس ابنه المسمى «نصر» إلى القاهرة ، وقام باغتيال الوزير ابن السلار ، وعاد عباس إلى القاهرة وتقلد الوزارة بدلاً من ابن السلار .

« يقول ستانلى لين بول : إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر ، وما تبعه من قتل الخليفة بنفس هذه اليد الآثمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ فى مصر » .

غير أن الخليفة لم يكتف بقتل ابن السلار ، بل راح يحرض « نصر » على قتل أبيه

عباس ، كان نصر والخليفة فى نفس السن تقريبًا ، وكانا صديقين ، غير أن تدبير الخليفة انقلب عليه .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« كانا يخرجان فى الليل متنكرين وهما أتراب ، وسنهما واحدة فدعاه إلى داره ، وكانت فى سوق السوفيين ، ورتب من أصحابه نفرًا فى جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وأربعمائة (١٥ ابريل ١١٥٤) ورماه فى جب فى داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة فقتلوه ، وأصبح عباس ، جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس فى خزانة فى مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الخليفة الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال :

« مالمولانا ما جلس للسلام » ؟

فتبلد الزمام فى الجواب ، فصاح عليه وقال :

« مالك لا تجاوبنى » ؟

قال :

« يا مولاى ، مولانا ما ندرى أين هو » ؟

قال :

« مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » .

فمضى ورجع وقال :

« ما وجدنا مولانا » .

فقال عباس :

« ما بقى الناس دون خليفة ، أدخل إلى الوالى أخوته ، يخرج منهم واحد نبايعه » .

فمضى وعاد وقال :

« الوالى يقولون لك ، نحن مالنا فى الأمر شىء ، والده عزله عنا وجعله فى الظافر والأمر لولده ، بعده » .

قال :

« أخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر ، وعزم على أن يقول « أخوته قتلوه » ويقتلهم ، فخرج ولد

الظافر ، وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذي القصر ، فوجده عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن أخيهم أبو البقى .

« أثار قتل الخليفة وأهله أهالي القاهرة ، فنشبت المعارك في طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجمون اتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم ، ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سلطة الأهالي وثورتهم ففر هو وابنه إلى الشام ، كان الأمير أسامة قريبا من عباس فتأهب لمغادرة مصر » .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، وأخذوا من قاعة داري أربعين غرارة مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير، وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصانًا وبغلة مسروجية بمروجها بسروجها وعدتها كمامات ، خمسة وعشرين جملاً ، وأخذوا من إقطاعي مائتي رأس بقر ، ولما سرنا عن باب النصر اتجهت قبائل العرب الذين استحلفهم عباس وقاتلونا من يوم الجمعة وضحى تار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلوننا النهار كله . فإذا جنّ الليل وأغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فارس ، ويدفعون فيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه . .

وانقطعت يومًا عن أصحابي وتحتي حصان أبيض ، هو أردى خيلي ، شده الركابي ولا يدري ما جرى ، وما معي من السلاح غير سيفي ، فحمل عليّ العرب فلم أجد ما أدفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « أثب عن حصاني وأجذب سيفي ، أدفعهم » . فجمعت نفسي لأثب ، فتفتع الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت جلدة من جلدة رأسي ودخت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه . فوقف عليّ منهم قوم ، وأنا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفي مرمى بجهازه ، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » ، وأنا لا أدري ما يقول ، ثم أخذوا حصاني وسيفي ، ورآني الأتراك فعادوا إليّ ، ونفذ لي ناصر الدين بن عباس حصانا وسيفًا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي ، فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا أردت أشرب ماء ترجلت شربت بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي وعرضوا عليّ ستة عشر جملاً » .

. . ويستمر الأمير أسامة فى طريقه إلى دمشق ، يلقى مصاعب جمة ، وفى دمشق يتصل مرة أخرى بخدمة الملك العادل نور الدين ، غير أن أسرته كانت ما تزال بالقاهرة ، وأرسل الملك العادل إلى الوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك يطلب منه السماح بسفر أسرة الأمير أسامة ، فرد الصالح قائلاً إنه يخاف عليهم من الفرنج ، وفكر الأمير أسامة فى العودة إلى مصر .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« ففاوضت الملك العادل ، واستطلعت أمره فقال :

يا فلان ، ما صدقت متى تخلص مصر وفتنتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الفرنج وأسير من يحضرهم » .

فأعاد ، رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصليبه فى البر والبحر ، وسيرت الأمان مع غلام لى وكتاب الملك العادل وكتابى إلى الملك الصالح ، فسيرهم إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعوا من دمياط فى مركب من مراكب الإفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك نفذ رحمه الله ، فيها نفذ قومًا فى مركب صغيرة ، كسروا المركب بالفؤوس ، وأصحابى يرونهم ، وركب ، ووقف على الساحل نهب كل ما فيه ، فخرج إليه غلام لى سباحة ، والأمان معه ، وقال له : « يا مولاى الملك ما هذا أمانك؟ «قال » : بلى . . ولكن هذا رسم المسلمين : إذا انكسر لهم مركب على بلد نهب أهل ذلك البلد ، « قال » : فتسبينا ؟ « قال » : لا « وأنزلهم لعنة الله فى دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهن ، وقد كان فى المركب حلى أودعه النساء وكسوات وجوهر ، وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار ، فأخذ الجميع وترك لهم خمسمائة دينار ، وقال : « توصلوا بهذه إلى بلادكم » .

« لا يكتب الأمير أسامة ما يشير إلى تحسره على سرقة ماله ، ومتاعه ، غير أن حديثه عن كتبه يختلف » .

يقول الأمير أسامة :

« . . وكنت إذ ذاك مع الملك العادل فى بلاد الملك مسعود (قونية) فهوّن علىّ سلامة أولادى ، وأولاد أخى ، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لى من الكتب . فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فإن ذهابها حزازة فى قلبى ما عشت . فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفنى الأموال . والله سبحانه يعرض برحمته ويختم بلطفه

ومغفرتـه . وتلك وقعات كبـار شاهدتها مضـافة إلى نكبـات نكبتها سلمت فيهـا النفس لتوقيت الآجال . وأجحفت بهلاك المال .

. . يتوقف الأمير أسامة بن منقذ عن سرد الحوادث التـاريخية التى عاشها ، ثم ينتقل إلى نوع من التذكر ، استرجاع التفاصيل الدقيقة التى لم تغب عـن ذهنه وقد بلغ التسعين من العمر . .

« . . ترى فى أى موضع من حصنى كيف المطل على نهر دجلة كان يجلس الأمير أسامة ابن منقذ ، يحملق فى مياه النهر ، أمواجه المتـابعة كسنوات عمره التسعين ، لابد أنه كان يستدعى أيامه البعيدة ، ما مر به من أحـداث ، ومن مخاطر يستعيد ملامح من عرفهم فى البلاط الفاطمى ، فى دمشق ، ملامح صلاح الدين الأيوبى ، كان يطل على ذلك الماضى الطويـل العريـض ، ثم يغمـس ريشته فى المداد ، وفى هـدوء الليل ، أو صمـت النهار يستعيد ، ويدون . . يدون . . » .

يقول الأمير أسامة بن منقذ وهو يحدثنا عن أول مرة خاض فيها القتال :

. . ومثل ذلك ما جرى لى على أفامية (بلدة فى الشـام) ، فإن نجم الدين بن اليارزى ابن أرتق ، رحمه الله ، كسر الإفرنج على البلاط ، وذلـك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وأفناهـم وقتل صاحب الكاكيت روجار وجميع فرسانه ، فسار إليه عمر عز الدين أبو العسـاكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدى ، رحمه الله فى حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرنى إلى افاميه بمن معى بشيزر من الناس ويستنفر الناس والعرب لتهب زرع افـامية ، وكـان قد هـدف من العـرب إلينا خلـق كثير ، فلما سار عمـى نادى المنادى بعد « يوميات » من مسيره ، وسرت فى نفر قليـل ما يلحق عشرين فارسًا ، ونحن على يقين أن أفامية مـا فيها خيالة ، ومعى غـلام عظيم من النهابة والبـادية فلما صرنا على وادى « أبو » الميمـون ، والنهابة والعـرب متفرقون فى الزرع ، خـرج علينا من الإفـرنج جمع كثير ، وكان قـد وصلها تلك الليلة ستـون فارسًا وستـون راجلاً ، فكشفونا عـن الوادى ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين فى الزرع يتتبهونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان على الموت لهلاك ذلك العـالم معى ، فرجعت على فارس فى أولهم قد ألقـى عنه درعه وتخفف ليجـوزنا من بين أيدينـا ، فطعنته فى صدره فطـار عن سرجه ميتا ، ثـم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم ، وتحتى فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم أجتن عنهم ، وفى آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب ، أنا خائف منه لا يكون جاذبًا لى ليعود على ، حتى رأيته

خرب حصانه بمهمازه فلوّح بذنبه فعلمت أنه قد أعيا . فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا أظن أني قتلته ، فجمعت أصحابي وهم سالمون ، وكان معي مملوك صغير يجر فرسًا لي وهماء مجنوبة وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجرة فطارت به إلى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة سألت عن الغلام « راح » فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ـ رحمه الله ـ فدعوت رجلاً من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدى بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال :

« أي شيء لقيتم ؟ قال : يامولاى . . خرج علينا الإفرنج فى ألف : وما أظن أحدًا يسلم إلا مولاى . . » قال : » « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيته قد لبس وركب الخضراء . . » .

هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ووصلت بعده فاستخبرني رحمه الله ، فقلت :

« يا مولاى ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان عليّ الموت ، فرجعت إلى الإفرنج لأقتل أو أحمى ذلك العالم . . » .

* * *

« ثم ينصح الأمير أسامة من وصل إلى الطعن أن يشد ذراعه ويده على الرمح ، ويدع الفرس يعمل ما عمله فى الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح ومدها به لم يكن لطعنته تأثير . ويتذكر مواقف مرت به أثناء القتال » .

يقول الأمير أسامة :

. . شاهدت رجلاً من رجالنا يقال له ندى بن تليل القسيرى ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والأفرنج وهو تعرى ، ما عليه غير ثوبين فطعنه فارس من الإفرنج فى صدره فقطع هذه العصفورة التى فى الصدر ، وخرج الرمح من جانبه ، فرجع وما نظنه يصل منزله حيًا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ، لكنه لبث سنة إذ نام على ظهره لا يقدر إن يجلس أن لم يجلسه إنسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان .

قلت : فسبحان من نفذت مشيئته فى خلقه يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير » .

. . غير أن أسامة إذ يفرغ من تذكره لهذا الرجل الذى عاش بعد أن قطع قلبه بالسيف ، يذكر آخرًا مات بسبب إبرة .

« كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه ، كانت فيه إبرة ، دخلت فى راحته فمات منها ، وبالله كان يئن فى المدينة ، فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته . . يموت من إبرة وهذا القشيرى يدخل فى صدره قنطارية (رمح) تخرج من جنبه لا يصيبه شىء » ؟!

* * *

يتذكر الأمير أسامة فارسًا إفرنجيًا هزم أربعة من المسلمين :

« . . وكان بافامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا فكان أبدا يقول :

« ترى ما التقى جمعة فى القتال » .

وجمعة يقول :

« ترى ما التقى بدرهوا فى القتال » ؟

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه فى الموضع الذى كان ينزله وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم وصاح بهم :

« فيكم جمعة » ؟

قالوا :

« لا . . » .

وكان ذلك الفارس « بدرهوا » ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته ، فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدًا منهم طعنه طعنة فشله ما ألحقه حصانه ليمكن الطعن ، وعاد إلى الخيام .

ودخل أولئك النفر إلى البلد فافتضحوا واستخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا :

أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ! كنتم افترقتم له فكان طعن واحدًا منكم ، وكان الثلاثة قتلوه ولاقد افتضحتم ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميرى ، فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبًا غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتحوا وقاتلوا واشتهروا فى الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة .

أما « بدرهوا » فإنه سار بعد ذلك من افامية فى بعض شغله يريد انطاكية ، فخرج عليه الأسد فى طريقه ، فخطفه عن بغلته ودخل به إلى الغاب أكله ـ لا رحمه الله .

« كثيرة تلك التفاصيل التى يتذكرها الأمير فى آخر حياته ، إن ذاكرته تعج بأصوات صليل السيوف ، وركض الخيول لا ينسى قط أنه طعن فارسًا من رجاله على سبيل الخطأ وأن طعنة واحدة من فارس مسلم أودت بحياة فارسين من الإفرنج فى وقت واحد ، لا ينسى هذه اللحظة التى جرح فيها عمه فى جفن عينه ، وكيف أن الجفن سقط وبقى معلقا بجلدة من مؤخرة العين ، والعين تلعب لا تستقر ، حتى جاء الطبيب وأدواها فعادت كحالها الأولى ، لا تعرف العين المطعونة من الأخرى ، يتذكر قتاله مع الفارس الشجاع جمعة ، وكيف أنهما هزما ثمانية فرسان من الإفرنج ، ولا يلبث أن يتذكر كيف هاجمهما شاب صغير منهم واضطرهما إلى الفرار ، طويل ذلك العمر الذى عاشه الأمير، وخلال حروبه مرت به مواقف كثيرة كان يمكن أن يقتل خلالها ، ومن هنا يحدثنا عن عجائب السلامة » !

يقول الأمير أسامة :

« . . ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر وسبقت المشيئة أن الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن سقمان بن ارتق ، رحمه الله ، عمل على مدينته أحد عدة مرار ، وأنا فى خدمته ، ولا يبلغ عنها مقصوده ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميرًا من الأكراد كان مديونًا بأمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقدر الأمر أن يصله العساكر فى ليلة تواعدوا إليها ويطلعهم بالحبال ويملك فخر الدين فى ذلك المهم على خادم له إفرنجى يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه ، فركب فى بعض العسكر وتقدم ، وركب باقى الأمراء فتبعوه . وتوانى هو فى السير فسبقه الأمراء إلى أمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردى وأصحابه من برج ودلوا إليهم الحبال وقالوا : «اطلعوا» ، فما طلع منهم أحد ، فنزلوا كسروا أقفال المدينة وقالوا : « أدخلوا » فما دخلوا ، كل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبى جاهل فى هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار ، وعلم بذلك الأمير كمال الدين على بن نيسان والبلاية والجند ففرغوا إليهم ، فقتلوا بعضهم ورمى بعضهم نفسه وقبضوا

بعضهم ، ومد بعض الذين رموا نفوسهم وهو نازل فى الهواء يده كأنه يريد شيئًا يتمسك به ، فوقع فى يده حبل من تلك الحبال التى دلوها أول الليل وما طلعوا فيها فتعلق به فنجا دون أصحابه . إلا أن كفيه انسخلتا من الحبل ، وأنا حاضر ، وأصبح صاحب أمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلوهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة أنقذ الإنسان من لهاة الأسد ، فذلك حق لا مثل .

كان فى حصن الجسر رجل من أصحابنا من بنى كنانة يعرف بابن الأحمر ، ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له فاجتازوا بكفر نبوذا ، وقافلة عابرة على الطريق ، فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر جرية تلمع ، فصاح إليه أهل القافلة : « ياصاحب الخشب البراق ! دونك الأسد » ، فحمله الحياء من صياحهم أن حمل على الأسد فهاصت به الفرس ، فوقع ، وجاء ، فخبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شعبان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم وهو بارك عليه لا يؤذيه ، قال : «ففتحت عينى فأبصرت لهاة الأسد ، ثم جذبت نفسى من تحته ، ورفعت فخذه عنى ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرآنى وجاء خلفى ، فسبقته وطلعت فى الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاتى من شىء عظيم على تلك الجراح (والدر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر) قال : فرأيت الأسد قد قعد وأنصب أذنيه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول ، فإذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه إلى بيته ، وكان أثر أنياب السبع فى جبهته وخديه كوسم النار ، فسبحان المسلم .

« . . لا ينسى الأمير أسامة أن يبدى رأيه فى العدو ، لقد خبر الفرنج سنوات طويلة ، وقاتلهم وقتل منهم ، وبارز فرسانهم فكيف رآهم بعد هذا العمر كله » ؟

يقول الأمير أسامة :

« . . والإفرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان فهم أصحاب الرأى وأصحاب القضاء والحكم ، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بيناس من الشعراء ، وبينته بينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك . « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا » فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكمًا » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شىء واحد وعادوا إلى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بيناس عليه غرامة ما

أتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلى وثقل على وسألنى حتى أخذت منه أربعمائة دينار وهذا يفيده ولا ينقصه ، فالفارس أمر عظيم عندهم .

يحدثنا الأمير عن تصرفات حمقى من بعضهم ، وعن طبهم ولكنه يشيد بالطب العربى فى مواجهة طب الإفرنج ويستمر فى ذكر عاداتهم وأخلاقهم كما خبرها وعرفها . .

يقول الأمير أسامة :

« . . فطل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ، فمن جفاء أخلاقهم ، قبّحهم الله ، أننى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى وفى جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة ، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى ، وفيه الداوية (فرسان من الفرنج) ، وهم أصدقائى ، يخلون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه ، فدخلته يومًا فكبرت ووقفت فى الصلاة ، فهجم على واحد من الإفرنج مسكنى ورد وجهى إلى الشرق ، وقال : « كذا صل » فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه ، أخرجوه عنى وعدت إلى الصلاة ، فاقتعلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ، ورد وجهى إلى الشرق ، وقال : « كذا صل » ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلى ، وقالوا « هذا غريب وصل من بلاد الأفرنج فى هذه الأيام، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق » فقلت « حسبى من الصلاة ! » فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

« . . وليس عندهم شىء من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل فى دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجى يبيع الخمر للتجار يأخذ فى قنينه من النبيذ وينادى عليه ، ويقول « فلان التاجر قد فتح بنية (قارورة) من هذا الخمر من أراد منها شيئًا فهو فى موضع كذا وكذا » وأجرته عن ندائه النبيذ الذى فى القنينة فجاء يومًا ووجد رجلاً مع امرأته فى الفراش فقال له : «أى شىء أدخلك إلى عند امرأتى؟ » قال : « وجدت فراشًا مفروشًا نمت فيه . قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » قال : « وحق دينى إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » .

فكأن هذا نكيره ومبلغ غيرته !

« لا يتوقف سيل الذكريات وتتابعها ، ولكن أرقها بلا شك تلك المتعلقة بوالده ، بأعمامه ، بما يدور حول المرأة العربية » .

الـوالـد

. . يقول أسامة بن منقذ عندما يحدثنا عن والده :

كان الوالد رحمه الله ، كثير المباشرة للحروب ، وفى بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه .

هكذا فى بساطة وعمق يلخص أسامة سيرة والده الذى ترك فيه أثرًا عميقًا ، لقد تولى والده إمارة الدولة المنقذية بشيزر فى سوريا بعد وفاة شقيقه الأكبر « أبو » المرهف ، غير أن شغفه بالصيد ، ونسخ القرآن الكريم جعله يتنازل عن السيادة والإمارة لأخيه الأصغر عز الدين أبى العساكر ، وكان يردد :

« والله لأوليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » .

وما دوّنه أسامة عن والده يؤكد صورة هذا الرجل الصالح الذى يفيض بالتقوى يقول :
« وذلك أن والدى رحمه الله ، كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن ، والصيام ، والصيد فى نهاره ، وفى الليل ينسخ كتاب الله تعالى ، فكان قد نسخ ستًا وأربعين ختمة بخطه رحمه الله ، منها ختمتان بالذهب جميع القرآن ، ويركب إلى الصيد يومًا ويستريح يومًا ، وهو صائم الدهر . . » .

ويقول فى موضع آخر مشيرًا إلى علم والده بالنجوم :

« وكان رحمه الله له اليد الطولى فى النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن ، وكان يحرضنى على معرفة علم النجوم فأبى وأمتنع فيقول : « فاعرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب » ، فكان يرينى النجوم ويعرفنى أسماءها .

وبرغم زهد والده ، وتفرغه للعبادة ، إلا أنه كان صيادًا ماهرًا ومقاتلاً متمرسًا يقول أسامة عنه :

« والله ما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهانى عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى فىّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لى » .

لم يكن والده ـ كما نرى من خلال صورته التى تركها لنا فى الكتاب ـ له شغل سوى

الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ كتاب الله ، ومن العبارات ذات الدلالة قوله لابنه : « ياولدى فى طالعى أننى لا أرتاع » ، ومن الحوادث التى يرويها أسامة ويرد فيها ذكر الوالد ، ووقائع الصيد ما يرويه عن فهدة كان يمتلكها والده :

« وكان للوالد رحمه الله فهدة فى الفهود مثل اليحشور فى البزاة ، اصطادوها وهى وحشية من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرمها واستجابها ، وكانت تركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزيد ، ويقدم إليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده ، حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة نحوا من سنة ، فخرجنا يومًا إلى الأزوار ، فدخلت الخيل إلى الزور وأنا واقف فى فم الزور ، وألفها وبهذه الفهدة قريب منى ، فقام من الزور غزال وخرج إلىّ ، فدفعت حصانًا كان من تحتى من أجود الخيل أريد أرده إلى الفهدة ، وعاجله الحصان بصدره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادمة ، فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت : « خذوا من الصيد ما أردتم » ! ، فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه .

وكانت هذه الفهدة دون باقى الفهود فى دار الوالد رحمه الله وله جارية تخدمها ، ولها فى جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفى الحائط سكة مضروبة يجىء الفهاد بها من الصيد إلى باب الدار ، وتدخل إلى الدار ، إلى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتجىء الجارية تربطها إلى السكة المضروبة فى الحائط ، وفى الدار ، والله ، نحو من عشرين غزالا آدميا وأبيض فحول ومعزى وخشوف قد توالدت فى الدار فلا تطلبهم ولا تروعهم ولا تزول عن موضعها ، وتدخل إلى الدار وهى مسيبة فلا تلتفت إلى الغزلان .

يفرد أسامة الجزء الأخير من كتابه للحديث عن ذكريات الصيد الذى كان يمارسه الوالد ، خروجه إلى البرية ، الطيور ، الحيوانات التى كان يصطادها ، يرسم لنا لوحة متكاملة لأحد جوانب الحياة فى هذه العصور النائية ، ويبرز أيضًا أحد ملامح الحياة العربية ، يقول أسامة عن والده :

« وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنه ، وأنه لا يزال صائمًا يركض نهاره كله ، وكان لا يتصيد إلا على حصان أو أكديش كواد ، ونحن معه أربعة أولاد ، نتعب ونكل وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب » .

يبدو أسامة خبيرًا بالصيد ، صيد الطيور ، وصيد الحيوان ، عالمًا بوسائله ، وطرقه وأساليبه ، والفرق بين الحيوانات المتوحشة وطبائعها وخصالها ، يسردها من خلال الوقائع

التى عايشها ومن خلال التجربة المباشرة وبأسلوب الرواية الذى يكسب النص فرادته فى التراث العربى المكتوب .

* * *

كانت والدته قوية الشخصية ، ويبدو ذلك من خلال حادثة أوردها أسامة ، إذ حدث أن هاجم الإسماعيلية شيزر ، وكان الجنود خارجها ، عندئذ قامت أم أسامة ووزعت السلاح ، وألبست ابنتها الخف والأزار وأجلستها فوق مرتفع مشرف على الوادى حتى إذا ما انتهى الأعداء إليها تدفعها وترميها إلى الوادى ، تقتلها بيدها . وتراها ميتة . ولكن أبدًا . . لن تراها أسيرة منتهكة ، على امتداد ذكريات الأمير أسامة نلمح ، بل ويلفت نظرنا احترامه للمرأة ، يذكر العديد من أعمال البطولة التى قمن بها . وكان ينادى خادمته العجوز « يا أمى » ، ومن مؤلفاته التى وضعها كتاب أفرده لأخبار النساء .

* * *

فى آخر حياته ، بعد أن بلغ من الكبر عتيا وأتم التسعين ، يدون تأملاته التى يبدو فيها رؤية آخر المرحلة ، ونهاية الشوط :

« لم أدر أن داء الكبر عام ، يعدى كل من أغفله الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين ، وأبلانى مر الأيام والسنين ، صرت كجواد العلاف ، لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعض فى بعض ، حتى أنكرت نفسى ، وتحسرت على أمسى .

ثم يقول :

« فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففى بقائى أوضح معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام ، والجروح ، وأنا من الأجل فى حصن حصين ، إلى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالصحة داء » ، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ، ما هو أصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك فى كنه الجيش ، أسهل من تكاليف العيش ، استرجعت منى الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات ، وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد » .

ثم ينشد :

تناسـتنى الآجـال حتـى كأننـى دريثـة سـفر بالفـلاة حسيـر
ولـمـا تـدع منـى الثمـانون منـة كـأنى إذا رمـت القيـام كسير
أؤدى صـلاتى قـاعدًا وسـجودها علَىّ إذا رمـت السجـود عسير
وقـد أنـذرتنى حطـة الحـال أننى دنـت رحلـة منـى وحـان مسيـر

هذا هو الأمير أسامة بن منقذ ، الفارس ، والشـاعر ، والأديب ، هذا هو يلخص لنا تجربة عمـره الطويـل ، والتى مـن أجلها سمى كتـابه « الاعتبـار » ، أقدم تـرجمة ذاتية فى التراث العربـى طبقًا لما وصل إلينا ، أسـامة بن منقـذ سماه المؤرخ الذهبـى بأحـد أبطال الإسـلام ، أما ابـن الأثير فـوصفه بـأنـه « كان مـن الشجـاعـة فى الغايـة التـى لا مزيـد عليها . . » .

كتاب العصا

هذا نص أدبى نادر ، غير شائع ، وغير معروف حتى لبعض المهتمين بالتراث العربى ، والمخطوطات القديمة ، المؤلف هو الأمير أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبى الشيرزى . وقد عرضنا له .

ونتوقف الآن عند كتابه (العصا) . وهذا العنوان ليس من ابتداعه إذ يذكر لنا فى المقدمة الباعث له على تأليف الكتاب ، يقول الأمير أسامة « . . وبعد فإن النفس ترتاح لما سمعت . وتُلحُّ فى الطلب إذا مُنِعت . وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد ابن على بن مقلد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه ، حدثنى أنه لما توجه لخدمة السلطان ملكشاه رحمه الله وهو إذ ذاك بأصفهان ، قصد القاضى الإمام الصدر العالم أبط يوسف القزوينى رحمه الله ، عائدًا ومسلمًا بمعرفة قديمة بينهما ، ويد كانت عنده للجدّ سديد الملك ذى المناقب أبى الحسن علىّ بن مقلد رحمه الله . وذلك أن القاضى المذكور سافر إلى مصر فى أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن إليه وأكرمه ، ووصله بصلات سنية فاستعفى منها ، وسأله أن يجعل صلته كتبًا يقترحها من خزانة الكتب فأجابه إلى ذلك ، فدخل الخزانة واختار منها ما أراده من الكتب ، ثم ركب فى مركب وتلك الكتب معه ، يريد بلاد الإسلام التى فى الساحل ، فتغير عليه الهواء فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية فخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب إلى جدى سديد الملك رحمه الله تعالى كتابًا يقول فيه :

« قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم . ومعى كتب الإسلام . وقد وقعت لك رخيصًا ، فهل أجدك حريصًا . . » .

فسّير إليه من يومه ولده عمى عِزّ الدولة أبا المرهف نصرًا رحمه الله ، وسير معه خيلاً كثيرًا من غلمانه وجنده ، وظهرًا لركوبه وحمل أثقاله ، فأتاه وحمله وما معه فأقام عند جدى

رحمه الله مدة طويلة وكانت له بالوالد رحمه الله عناية » وإلف . فلما اجتاز ببغداد قصده ليجدد به عهدًا . . » .

ويذكر والد الأمير أسامة أنه رأى كتاب العصا عند هذا الشيخ وهنا يقول الأمير :

« ولى منذ سمعت هذا نحوا من ستين سنة اتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر ، فلا أجد من يعرفه . وكلما تعذر وجوده ازددت حرصًا على طلبه . إلى أن حدانى اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا ، ولا أدرى أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره . . » .

هكذا يخبرنا الأمير أسامة أنه عندما أدركه اليأس من الحصول على كتاب العصا ، أقدم هو على تأليف كتاب حول الموضوع نفسه ويقول المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون إنه يعتقد أن الكتاب الذى أمضى الأمير أسامة عمرًا يبحث عنه ، ماهو إلا كتاب « العصا » للجاحظ . وهو من مشتملات كتاب البيان والتبيين . وأن الأمير أسامة التبس عليه الأمر فظن ذلك الكتاب الذى دار حوله الحديث كتابًا مستقلاً لمؤلف آخر غير الجاحظ .

والأستاذ عبد السلام هارون هو الذى نشر كتاب (العصا) للأمير أسامة ضمن مجموعة « نوادر المخطوطات » التى حققها وصدرت فى القاهرة .

العصــــا

بعد المقدمة يذكر لنا المؤلف لماذا سميت العصا ؟

قال أبو بكر محمد بن دريد رحمه الله : إنما سميت العصا عصا لصلابتها . مأخوذ من قولهم ، عَصِّى الشيء وعصا وعسا إذا صلُب . واعتصت النواة . إذا اشتدت . فأنما العصا مثل يضرب للجماعة . يقال شق فلان عصا المسلمين والجماعة . وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم « اياك وقتيل العصا » . يريد المفارق للجماعة فيقتل . وألقى الرجل عصاه ، إذا أطمأن مكانه . ويقال عصا وعصوان والجمع العُصِىّ .

ويقال عصوت الجرح . إذا دوايته .

والعصيان ، فلان الطاعة .

وينقل الأمير أسامة عن كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى ما نصه قال أبو هلال العسكرى ، أول من خطب على العصا وعلى الرّاحلة قس بن ساعدة الإيادى ، فما ورد عنه من خطبه قوله :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو أت أت، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة وأرض مدحاة . وأنهارًا مجراة . ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون . أرضوا فأقاموا . أم تُركوا فناموا، يقسم قس بالله قسمًا لا أثم فيه : أن لله دينا هو أرضى وأفضل من دينكم . الذى أنتم عليه ، أنكم لتأتون من الأمر منكرًا ، ثم انشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا	للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىّ	ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة	حيث صار القوم صائر

ثم يقول أسامة :

تقول العرب : فلان ممن قرعت له العصا إذا كان يرجع إلى الصواب وتقول : فلان صلب العصا . إذا كان ذا نجدة وحزامة وتقول إذا تفرقت الخلطاء واختلفت آراء العشيرة ومَرِج الأمر : انشقت العصا ، وتقول للمسافر إذا آب واستقرت به داره : ألقى عصا التسيار .

قرع العصا

الفصل الثانى بعنوان « قرع العصا » . يبدؤه بحديث شريف للرسول عليه الصلاة والسلام :

« ما قرعت عصا على عصا إلا فرح لها قوم وحزن آخرون » . ويذكر قصة عامر بن الظَّرب العدوانى . وكان حكمًا للعرب ، يُرجع إلى حكمه ورأيه . فكبر وأفناه الكبر والدهر وتغيرت أحواله ، فأنكر عليه الثانى من ولده أمرًا من حكمه فقال له : إنك ربما أخطأتَ فى الحكم ويُحمل عنك ، فقال : اجعلوا لى أمارة أعرفها ، فإذا أخطأت وقرعت لى العصا رجعت إلى الحكم ، فكان يجلس أمام بيته يحكم ويجلس ابنه فى البيت ومعه العصا ، فإذا زلّ وهفا ، قرع له الجفنة بالعصا .

ثم يذكر الأمير أسامة بعضا من أقوال العرب ، فالقول بأن فلانا (صلب العصا) ، إذا كان جلدًا قويًا على السفر والسير .

وفى القرآن الكريم « إذا ضربتم فى الأرض » أى سافرتم ، وضرب بالعصا أى شرع فى السير .

ويقال . فلان يشق العصا . إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة مخالفًا لأمر الآخرين . ويستعمل شق العصا فيمن يتفرق عنه أحبابه ويرحل عنه أصحابه ، فيظهر مكنون سرِّه ، ويبوح بخفى أمره ، لضرورة البين الداعية إلى ذلك .

ويقال (ألقى العصا) أى ألقى عصا التسيار . إذا أقام وترك السفر ، أو وصل الإنسان إلى مراده ، وراحته ، ومظنة استراحته وعن الجاحظ يقول الأمير أسامة :

« الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ، ومعدن شريف ، اتخاذ سليمان ابن داود عليه السلام العصا لخطبته وموعظته ومقاماته وطول صلواته وتلاوته وانتصابه . فجعلها لتلك الخصال جامعة و « المحجنة » أى العصا المعوجة . وفى الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت يستلم الأركان بمحجنه .

والعرب تقول « لو كان فى العصا سير ، للمقلّ والضعيف » .

وتقول أيضا : قد أقبل فلان ولا نت عصاه ، إذا أصابه السُّوَاف ـ وهو ذهاب المال ـ

وتقول العرب « العصا من العُصَيّة ، والأفعى من الحية » ، أى أن الأمر الصغير من الكبير .

* * *

يتضمن كتاب العصا عدة حكايات رواها الأمير أسامة عن مشاهدة ومعاينة ، وهذا أسلوب يتفرد به . ويبدو واضحًا فى أرقى صوره فى كتابه الاعتبار ، ويذكر الأستاذ عبد السلام هارون ، أن كتاب العصا تضمن تسعين بيتًا من الشعر لم يتضمنها ديوانه المطبوع ومن هذه الأبيات .

مع الثمانين عاث الضعف فى جلدى ... وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى جِدُّ مضطربٍ ... كخَطِّ مرتعشِ الكفين مرتعد
وإن مشيت فى كفى العصا ثقلت ... رجلى كأنى أخوض الوحل فى الجَلَد
فاعجب لضعف يدى عن حملها قلمًا ... من بعد حَطْم القنا فى لَبّة الأسد
فقُلْ لمن يتمنى طول مدته ... هذى عواقب طول العمر والمددِ

وينقل الأمير أسامة عن شاعر مجهول قوله :

حملتُ العصا لا الضعف أوجب حملها ... عَلَىَّ ولا أنّى تحنَّيتُ مِنْ كِبَرِه
ولكننى ألزمت نفسى حَمْلها ... لأعلِمها أن المقيم على سفره

المنازل والديار

للأمير أسامة بن منقذ ..

. . ثمة نصوص أدبية . قريبة من النفس ، كتبت من مداد ، من حروف ولكن تنشأ بينها وبين الإنسان صلات وثيقة . فكأنها نسيج بين مخلوقين من لحم وأعصاب ودم . وخلال إبحارى الطويل فى لجة التراث العربى . عرفت عددًا كبيرًا من هذه النصوص . أطالعها لأول مرة فتبدأ العلاقة ، وتمضى فترة زمنية ثم أعود مرة أخرى وكأنى أتطلع إلى رؤية صاحب حميم . أحيانًا يطالعنى المؤلف نفسه من بين سطوره . فأكاد أرى ملامحه . وأوشك أن أشعر بحالته النفسية عند تسطير هذه الصفحة أو تلك ، بل أوشك أحيانًا أن أتخيل نوعية النظرة فى عينيه ، أسيانة ، فرحانة ، أو حزينة .

من هؤلاء الذين قام بينى وبينهم وثيق صلة ، الأمير أسامة بن منقذ ، بالرغم من عشرة قرون وعدة سنوات تفصلنى عنه ، نشأت العلاقة بعد أن قرأت كتابه «الاعتبار» . أقدم ترجمة ذاتية معروفة حتى الآن فى الأدب العربى ، بدأت البحث عن كتاب له بعنوان « المنازل والديار » ، قرأت أن النسخة الوحيدة الموجودة منه فى العالم ، توجد ، فى لينينجراد بالاتحاد السوفيتى . وأن طبعة صدرت فى موسكو أول الستينيات ، تضم النص العربى ، والترجمة الروسية . وكتبت إلى الصديقة الدكتورة فاليريا كيربتشنكو ، المستشرقة المعروفة ، أسألها أن توفر لى نسخة من الكتاب . وأجابتنى قائلة إن المؤلف طبع فعلاً فى موسكو . ولكن الطبعة كانت محدودة جدًا . وإن النسخة الواحدة منها تعتبر الآن فى مصاف التحف ، والحصول عليها صعب جدًا ، الحق أننى شعرت بالضيق ، فلا شىء يكدرنى مثل رغبتى فى الحصول على كتاب ، وأبقى أنا فى ناحية ، والكتاب فى ناحية أخرى مجهولة لى ، لم يكن هناك حل إلا الانتظار حتى سفرى إلى الاتحاد السوفيتى ، وإلى لينينجراد بالتحديد . وهناك ، أحاول

تصوير نسخة من المخطوطة الأصلية . هذا إذا ووفقت ، وقبل ذلك إذا سافرت إلى روسيا وإلى لينتجراد بالتحديد .

طبعًا لم يدركني اليأس فى القاهـرة . وأوصيت عددًا من معارفى المتخصصين فى العثور على الكتب النـادرة ، أن يبحثوا لى عن نسخة مـن « المنازل والديار » ، ربما تكـون إحدى نسخ الطبعة الروسية قد وجدت طريقها إلى القاهرة ، أو . . من يدرى ، ربما طبع فى جهة ما .

إلى أن وقعت المفاجأة ذات صباح .

المنـــازل .. والـــديـــار

جاءنى صديق من ذوى الخبرة فى الكتب القديمة . وقال مبتسماً .

ـ لقد عثرت لك على نسخة من المنازل والديار . .

تطلعت إليـه غير مصدق . لكم طـال شوقى عبر سنـوات عديدة إلى هـذا الكتاب ، وعندما فتح حقيبته الجلدية القديمة . وأخرج منها النسخة ، فوجئت أكثر ، لم تكن طبعة روسية . ولا إنجليزية ، ولا هندية . كانت طبعة مصرية وحديثة نسبيًا .

نعـم . . فوجئـت أن الكتـاب حقق تحقيقًـا علميًا رائعًـا ، وصـدر عام ثمانيـة وستين وتسعمائة وألف فى القاهرة ، عن المجلس الأعلى للشئـون الإسلامية ، وهذا المجلس يضم لجنة لإحيـاء التراث الإسلامى ، تصـدر سلسلة من المطبـوعات الهامة ، ولكنهـا لا توزع بشكـل جيـد ، ومحدودة الانتشار ، كما أن معظـم النسخ تقـدم كهدايـا ، وفى الأغلـب الأعم ، تضل الكتب طريقها عن مستحقيها الحقيقيين عنـدما تقدم هدية ، خاصة لمن لم يسع إليها ، ولمن لم يطلبها .

على أية حال ، هـا هو الكتاب أمامـى ، بتحقيق الأستاذ مصطفى حجـازى ، حملته بعناية . وفى اليوم نفسه بدأت أرحل معه وفيه .

رحلـة الكتـاب

يقـول المحقق ، الضـالـع ، المتمكن ، مصطفـى حجـازى فى مقـدمته ، إن نـاشرى مؤلفات الأمير أسامة أشاروا إلى هذا الكتـاب ، وذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن نسختـه الوحيدة محفوظة فى لينتجراد ، وكان أول من نبه إليه المستشرق السوفيتى كراتشكوفيسكى ،

الذى كتب عنه مقالاً عام ١٩٢٥ فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق . وفى عام ١٩٦١ قام معهد الشعوب الآسيوية بموسكو بنشره ، بطريقة تصوير المخطوط ـ وهى الطبعة التى كنت أبحث عنها ـ وكتب له المقدمة المستشرق أنس خالدوف ، والنشر بهذه الطريقة يعنى توفير صورة من المخطوط لا غير . ويقول الأستاذ المحقق مصطفى حجازى إنه شعر بضرورة تحقيق الكتاب ، وفق مناهج التحقيق الحديثة ، وقد اكتشف خطأ بالطبعة الروسية فى ترتيب الصفحات .

المنهج

رتب الأمير أسامة كتابه أو قسمه فى ستة عشر فصلاً سردها فى آخر المقدمة . الفصل الأول فى ذكر المنازل ، والثانى فى ذكر الديار ، والثالث فى المغانى . ويستمر حتى يصل إلى آخر فصول الكتاب وقد خصصه فى بكاء الأهل والإخوان .

إنه يبدأ الفصل غالبًا بما يجده مناسبا له من آيات الكتاب العزيز ، يردفه بتفسيرها من المأثور ، وربما يورد بعد ذلك ما يناسبه من الحديث الشريف إن وجد ، ثم يفيض فى مختاراته الشعرية . وهذا أسلوب مألوف فى كثير من المؤلفات الأدبية العربية ، منها «الغُرر والغرر» للوطواط و «محاضرات الأدباء» للأصفهانى ، و «العقد الفريد» لابن عبد ربه .

أحيانًا كان يفصل معنى اللفظ اللغوى كما فعل فى فصل «الديار» وفصل «الآثار» لكنه لم يلتزم بذلك فى معظم الفصول .

المدخل

بشعور أسيان ، وبقلب يقطر حكمة ، وتجربة ، يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، يقول :

«الحمد لله ، وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدع شملنا أيدى سبأ ، وتشعبت بنا سُبل المذاهب ، وأخنت الحوادث على معشرى وآلى ، وأفنى الموت أسودى وأشبالى ، كل ذلك بقدَرٍ جرى به القلم فى القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروج إلى الوجود من العدم . . . .

ويمضى الأمير فى خطبة الكتاب ، أو المدخل الحزين . الأسيان ، ثم يخاطب القارئ مباشرة بأن يدعو له .

ـ وبعد جعلك الله بنجوة من النوائب . وأصفى لك الحياة من كدر الشوائب . ولا راعك بحادثة تُنْسى ما قبلها . وتُصْغر ما بعدها وتفتح من النكبات أبوابًا لا تستطيع سدها .

ثم يقول متحدثًا عن كتابه .

ـ وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، فافتتحت كل فصل بما يوافق حالى ، ثم أفضْتُ فيما يوافق ذا القلب الخالى ، لكيلا يأتى الكتاب وهو كله عويل ونياحة . ليس فيه لذوى البث راحة ، على أن رزايا الدنيا كالأجل ، تُمْهل ولا تهمل ، فإن تولت اليوم فغدًا تقبل .

ويبدأ الأمير أسامة بن منقذ فصول كتابه ، أو يبدأ فى عد الحبات التى انتظمتها هذه السبحة ، لتفرز أرق المشاعر وأجلها حزنًا . والتى عبق بها وازدحم هذا الأثر الأدبى الرقيق النفيس ، فماذا نجد فيه .

يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، ناقلاً عن شخص اسمه ابن أبى مريم قوله ، إنه مر بسويقة عبد الوهاب . وهى محلة قديمة بمدينة بغداد . فلقى المحلة قد خربت وعلى أحد الجدران المهدمة هذه الأبيات .

هــذى منــازِلُ أقــوامٍ عَهِـدْتهُمُ	فى خَفْضِ عيـش وعِزٍّ مـاله خَطَـرُ
صَاحَتْ بهم نائِبَـاتُ الدَّهـر فانقلبوُا	إلى القُبـورِ ، فـلا عيـن ولا أثـر

هكذا ، مباشرة يدخل الأمير فى موضوعه ، مبتدئًا الفصل الذى خصصه لذكر المنازل، ثم يورد أبياتًا من الشعر ، يشرح غوامضها . ويفسر غريبها ، وإننى لأتوقف عند بعض مختاراته فى ذكر المنازل . أى أننى أختار مما وقع عليه اختيار الأمير . وهو يكتب ليتسلى فى محنته .

يقول ابن أبى طاهر .

يـا منـزلاً لعـب الزمـان بأهْـلِه	طَـوْرًا يفـرقهـم . وطـورًا يجمـع
ايـن الذيـن عهـدتهم بـك مـرَّةً	كـان الزمـان يَضُـرُّ بهـم وينفـعُ

وينقل عن البحترى قوله :

فَيِّـىْ إليْـكَ ، فَقَـدْ تَخَـوَّنَ أُسْرتِى	حتـف الـرَّدى وتحامـل النَّكبـاتِ
تلـك المنـازِلُ مـا تُمَتّـعُ واقِفًـا	بزُهَى الشُّخوصِ . ولا وغى الأصواتِ
لـن تُـخْلِـفَ الأيامُ لى بـدَلا بهـم	أيهـات مـن بـدل بهـم أيهـات

ومُعيرِّي بالـدَّهــرِ يعـلمُ فـى غـدٍ   أنَّ الحصــادَ وراءَ كُـلِّ نبــاتِ

ويقول شاعر مجهول :

دعْنِى وتسكابَ دمعى فى منازِلهم   فللشئُون ولى من بعدهم شانُ
أحبابنا ما الديارُ اليوم بعدكُم   تلك الدِّيارُ ولا الأوطان أوطانُ !

ولا يكتفى الأمير أسامة بإيراد الشعر الذى يتضمن رثاء المنازل ، وإنما يذكر الحكايات المتعلقة بنفس الموضوع . يقول نقلاً عن زنام الزَّامِرِ : لما اشتد المرض بالمعتصم ـ فى مرضه الذى مات فيه ـ أفاق فى بعض الأيام ، فقال : هيئوا لى الزّلال . لأركب فيه فى دِجْلة غدًا ، فعملوه . فركب : وركبت معه ، فهو فى دجلة بإزاء منازله فقال يا زنام ازْمُر لى :

يـا مَنْـزِلاً لـم تَبْـلَ أطـلالُـه   حاشـا لأطـلالك أن تبْلَـى
لـم أبـكِ أطـلالـك . لكننـى   بكيـت عيشـى فيـك إذ ولـى

ومازال ينتحب حتى عاد إلى منزله .

وتتوالى المقتطفات الشعرية الأسيانة التى اختارها الأمير أسامة ، حتى يقول ما نصه :

« لى على من تقدم ذكره من الشعراء فضل المزيَّة . إذ كنت دونهم صاحب الرزية ، فكان شعرى أولى أن يقدم على اشعارهم . وأن قصَّرت بى البلاغة عن اقتفاء آثارهم . لكن للمتقدم السبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق . وإن كنت وهم كما قال ذرّ لأبيه : يا أبت مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم . قال : يا بنى ليست النائحة المستأجرة كالثكلى .

ثم يورد أشعاره هو التى نظمها حزنًا على أهله الذين أبادهم الزلزال . ومن أرق شعره هذا البيت :

أبكيـك . أم أبكـى زمـانـى فيكِ أم   أهْلِيـك ، أم شَـرْخَ الشبـابِ الزائِلِ

الـديـار

من المنازل ينتقل الأمير أسامة إلى الديار ، يبدأ بذكر آيات القرآن الكريم التى ذكرت الديار .

قال تعالى ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . . ﴾ ـ سورة البقرة ٨٤ .

ثم يمضي طبقًا لمنهجه ، فيورد مختارات من الشعر العربي ، كلها تدور حول الديار وفرقتها . والحنين إليها ، وتعكس هذه المختارات سعة اطلاع الأمير وغزارة ثقافته ، يذكر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي .

لمن الديارُ بأبرقِ الحنَّانِ فالبُرْقِ فالمضباتِ من أدمانِ
أقوت منازِلُهُمْ وغيّر رسمها بعد الأنيس تعاقبُ الأزمانِ

وعن البحترى :

متى تَسْتَزِدْ فضْلاً من العُمْرِ تَغْتَرِفْ بسَجلَيْكَ من أذى الخطوبِ وصابها
يُسَرُّ بعُمرانِ الديار مُضَلَّلُ وعمرانُها تدونو به من خرابها
ولم أرتضِ الدنيا أوان مجيئِها فكيف أرتضائيها أوانَ ذهابِها

وعن أبى عبد الله الطبرى ينقل الأمير أسامة قصة يقول فيها : قال رجل لأبى محمد الحريرى : كنت على بساط الأنس . وفُتح لى طريق إلى الانبساط ، فزلَلْتُ زَلَّة ، فَحُجِبْتُ عن مقامى ، فكيف السبيل إليه ؟ دُلَّنى إلى الوصول إلى ما كنت عليه ، فبكى أبو محمد وقال : يا أخى ، الكُلّ فى قهر هذه الخُطَّة ، وفى أسْرِ هذه الرزية ، ثم شهق ، ثم سكت ساعة وأنشد :

قف الديار فهذه آثارُهم نَبْكِ الأحِبَّة حَسْرة وتشوقًا
كمْ قد وقفت بها أسائل مخبرًا عن أهلها ، أو صادرًا ، أو مشفقًا
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها فارقتَ من تهوى فعزَّ المُلْتَقَى

ويذكر الأمير نص قصيدة نظمها الأمير طلائع بن زريك رجل الدولة الفاطمية القوى فى مصر ، يعزى فيها الأمير على فقد أهله . يبدؤها قائلاً :

لَهْفَ نفسى على ديار من السُكـ إنِ أقْوتْ . فليس فيها عريبُ
ولكم حَلَّها فانسته أوطا نَ صباه والأهل يومًا غريبُ

ويذكر الأمير أسامة أنه كان بقرية « فنك » القريبة من سمرقند ، فقرأ على حائط مسجد البيت التالى مفردًا :

تَجَنَّبتُ غِشْيَانَ الدِّيَارِ وليس فى تجنُّبها بعد الفِراقِ مَلامُ

* * *

عندئذ اضاف الأمير أسامة تحته :

وما كنت أهوى الدار إلا لأهلِها على الدارِ بعد الظَّاعنينَ سلامُ

* * *

المغانى ، الأطلال ، الربع

المغانى هى المنازل التى هجرها أهلها . يفرد لها الأمير أسامة فصلاً . ومن مختاراته . أبيات لابى تمام :

شهدتُ لقد أقْوَتْ مغانيكُمْ بعدِى ومَحَّتْ كما مَحَّت وشائع من بُرْدِ
فانجد تم من بعد اتْهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجدِ
لعمْرى لقد أبليْتم جِدَّةَ البُكا بِلاىَ ، وجَدَّدْتُم علىَّ بلَى الوجْدِ

ويلى المغانى فصل فى ذكر الأطلال . تطالعنا فى بدايته أبيات امرئ القيس الشهيرة .

إلا أنعم صباحًا أيها الطلل البالى وهل ينعمن من كان فى العصر الخالى

وتعد مختارات الأمير فى هذا الفصل من أرق وأغنى المختارات فى الكتاب ، أو فى المجموعات الشعرية التى خصصها أصحابها لجمع ما اختاروه من الشعر العربى ، فما أكثر الوقوف على الأطلال فى الشعر العربى ، والوقوف على الأطلال هو قمة التعبير عن الإحساس المر بمرور الزمن ، وزوال الوقت ، والمكان معًا . يلى الأطلال ، فصل عن الربع ، والربع أى المنزل ، ودار الإقامة . ومن المقطوعات الشعرية التى اختارها الأمير نورد أبياتًا لأبى الطيب المتنبى :

أيــــدرى الــربــع أيَّ دَم أراقـــا ... وأى قـــلوبِ هـــذا الركـــبِ شـــاقا
لنـــا ولأهـــله أبـــدًا قلـــــوبٌ ... تـلاقى فـى جســـومٍ مـا تـــلاقى
فليْـــتَ هَـوى الأحـبة كـان عـدلا ... فحَمَّـل كـل قـــلب مـــا أطـــاقـــا

* * *

الـــدمــن ، الــرســم ، الآثـــار

الدمن ، جمع دمنة ، ودمنة الدار ، أى أثرها ، والـدمنة أيضًا آثار الناس وما سودوا . وقيل ما سودوا من آثار البعد وغيره ، عن البحترى ينقل :

دِمَـنٌ لزيـنبَ قبـلَ تشـريدِ النّوى ... مـن ذِى الأداكِ بـزينـب ولَعُـوبِ
تأبــى المنازلُ أن تجيــب ومـن جَوى ... يـوم الدِّيـــار دعـوتُ غيــر مُجِيبِ

بعد الدِمَن ، يذكـر الأمير أسامة ما قيل فى الرسم . والرسـم أى الأثر ، وهو ما لصق بالأرض منها ، ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقًا بالأرض ، وعن العرجى يذكر .

أفـى رسْـــمِ دارٍ دمعُـكَ المتحـــدِّرُ ... ســفاها . وما استنطـاقُ ما ليـس يُخْبر
تغيّر ذاكَ الرسْــم مــن بعـد جِـدَّةٍ ... وكــلُّ جـديـــد مـــرَّةً يتغيـــرُ

أما الفصل الذى خصصه للآثار . فيبدأ بقوله تعالى :

« إنَّا نحْنُ نُحْيِى الْموْتَى . ونَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهُمْ . . » ـ سورة يس .

ويمضى بنفس النهج موردًا مقتطفات مما قيـل من شعر فى الآثار ، ثم يخصص فصلاً واحدًا لذكر المساكن ، والمعاهد ، والمعاهد جمع المعهد وهو الموضع الذى عهده الإنسان ، أو عهد هوى لـه فيه ، والمعهد أيضًا هو المنزل الذى ارتحل عنه القوم ثم رجعـوا إليه ، أما المحـال ، فمفرده محل . وهـو موضـع الحلول ، والمحلـة ، أى المكـان ينزلـه القوم . أمـا العرصات فهى جمع عرصة أى وسط الدار ، أو هى كل بقعة فسيحة بين الدور .

المساكن ، المعـاهد ، المحال ، العرصات ، لكـل يفرد الأمير أسامة فصـلاً ، يورد فيه ماقيـل من شعـر ذكر فيه كـل من هـذه المعالم . ثـم يخصـص فصلاً كبيرًا لـذكر الأرض ، وينقسم هذا الفصل إلى جزأين ، فى الأول يورد مقتطفات معانى البكاء على فراق الأرض ، مثل قول شاعر مجهول :

سقى الله أرضًا لو ظفرت بتربها كَحِلْتُ بها من شدة الشوق أجفانى
فهل بعد هذا للمحبين غايةٌ وهل أحدٌ أشجانه مثل أشجانى ؟ !

أما الجزء الثانى فيحض على مفارقة الأرض التى وقعت بها المصائب ، فأرض الله واسعة ، ومن ذلك قول الشنفرى :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن رام القلى مُتحوَّلُ
لعَمْرُكَ ما بالأرضِ ضيقٌ على امرىءٍ سَرَى راغبًا أو راهبًا وهو يعْقِلُ

ونفس الشيء نجده فى الفصل الذى خصصه للأوطان . فى الجزء الأول نجد أشعارًا تبكى الأوطان ، وتحن إليها ، وتذرف أبياتًا مبلولة بالدمع من أجلها ، يقول ـ على سبيل المثال ـ القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر :

أهيم بذكر الشرق والغرب دائمًا وما بى لا شرقُ البلاد ولا الغَرْبُ
ولكنَّ أوطانًا نأَتْ وأحبته فقدتُ ، متى أذكر عهودهم أَصْبُ

أما الجزء الثانى فيتضمن أشعارًا تحض على الغربة ، وهنا نجد أنفسنا أمام معان تتناقض مع البكاء على الأطلال ، والمنازل ، والديار ، يقول شاعر مجهول :

لأرْحَلَنَّ المطَايا رِحْلَةً عجَبًا يَكونُ أدنى مداها الصينُ أو عَدَنُ
فَكُلُّ خِلٍّ إذا صافيته سكَنٌ وكل أرْضٍ إذا أحمدتها وطن

ثم يخصص فصولاً للمدن ، والبلاد ، ويعود مرة أخرى ليفرد قسمًا للدار ، أى البيت ، وهذا أطول فصول الكتاب ، ثم يفرد فصلاً للبيت ، يذكر فيه قصة بناء سيدنا إبراهيم للكعبة ، ويذكر الآداب المتعلقة بدخول البيوت :

« وقد قيل : إن وقعت العينُ على العينِ قبل الاستئذان ، فالأولى تقديمُ السلام على الاستئذانِ ، وإن لم تقع العينُ على العين قبل الإذن . فالأولى تقديم الاستئذان على السلام . . » .

ويختتم الكتاب بذكر ما قيل فى بكاء الأهل والإخوان ، يقول الأمير أسامة بن منقذ إن هذا الفصل كان موضعه فى مقدمة الكتاب ، لكنه أخَّره ليختتم به كتابه ، ويكاد المرء

يشعر بانحنـائه ، وشجوه ، وحزنه ، إذ كان يخط الأبيـات التالية ، من شعـره هو ، وهو يوشك على اختتام واحد ، من أرق ، وأجمل ، كتب التراث العربى ، وأغزرها إنسانية .

يقول الأمير :

نافستنى صـروفُ دَهْرِى فى الفَـوْ ... زِ بِـبِرِّ الآبـاءِ فـى الـرَّحِـمِ
لـو كُنْـتُ أستطيـع أن أزورهمـا ... مشـيًا علـى الـرأسِ لا علـى القـدمِ
بـادرت أمشـى إلـى ثـرى جَـدَثَىْ ... أعـزِّ أَهْلـى علـىَّ كالقـلمِ
لكـنْ بمصـر قبر وفى شـيزر قبـر ... ودارى بمتـنـاى العجـم
والظـلمُ فـى الأرض مـا نِعِى كُـلْ ... مـا أبنيـه حتـى زيـارة الـرحـم
ومـا ظننـت الذى لقيـت مـن الـدُّ ... نيـا تـراه عينـاىَ فـى الحُـلُمِ

رحمه الله ورحم أهله أجمعين !

الـــذخـــائـــر والتـحـــف

« الذخائر والتحف » للقاضي الرشيد بن الـزبير ـ القرن الخامس الهجرى ـ كتاب نادر وفريد ، كثيرًا ما وقعت عيناى على اسمه أثناء معايشتى لخطط المقريزى الشهيرة ، إذ ذكره عدة مرات ، ثم اكتشفت منذ عدة سنوات أن هذا الكتاب حقق وطبع فى الكويت عام ١٩٥٩ ، وصـدر كـأول مطبوع فى سلسلـة التراث العـربـى التـى كـانت تصـدرهـا دائرة المطبوعات والنشر ، للكتاب نسخة واحدة فقط فى العـالم . مخطوطة فى مكتبة بلدة «أفيون قرة حصـار » فى تركيا ، مؤلفـه القاضى الـرشيد أبو الحسين أحمد بـن الرشيد بن القـاضى الزبير ، لا توجد ترجمة له فى المصادر التاريخية المتداولة ، ولكن من خلال نصوص عديدة فى الكتاب نفسـه نجد بعـض المعلومات عنـه ، ومنها يمكـن الاستدلال على أنـه كان فى خدمة أبى كا ليجار . وعندما انتهت الدولة البويهية هاجر وأقام بمصر ، وعمل فى خدمة الفاطميين ، والمؤلـف يجمع فى هـذا الكتاب حكـايات وأخبـارا عن هـدايا الملـوك وكبار الأمـراء ، الـولائم المشهـورة ، الإعـذارات ، الأيـــام المشهـودة والاجتماعـات ، الغـرائب الموجودات والـذخائر المصونـات ، الترك الموروثات ، المغـانم فى الفتوحـات . النفقات ، حول هذه الموضوعات يورد المؤلف العديد من الحكايات التى تقترب فى بعض أجزائها من الفن القصصى ، ويصف فيها بعض التحف وصفًا دقيقًـا مما يجعل الكتاب مصدرًا هامًا للفنون الإسلامية ، إضـافة إلى تسليطه الضوء على جوانب اجتماعيـة لم تتعرض لها مصادر التاريخ الكبرى . كما أنـه يعرض أيضًا للعلاقات السيـاسية بين الشرق والغرب فى العصر القديم ؛ هكذا يبرز الكتـاب أحد الجوانب الفريدة لحضارتنا الإسـلامية . حقق الكتاب الدكتور محمد حميد الله ، وقدمه وراجعه الدكتور صلاح الدين المنجد .

الهدايـــا

الباب الأول مخصص للهدايا ، ويضم ستا ومائة حكاية قصيرة ، من الهدايا فى العصر الإسلامى يذكر أولاً هـدية جريسج بن مينـا ـ المقوقـس ـ عامـل قيصر الروم على مصر إلى

الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن راسله يدعوه إلى الإسلام . عاد الرسول وكان حاطب بن أبى بلتعة الضبعى إلى النبى بجواب الرسالة ومعه رسول من قبل المقوقس ، ومعه هدية بينها أربع جوار ، منهن جاريتان أختان هما مارية وسيرين ، وكان لهما شأن عظيم فى القبط ، جميلتان جدًا ، وخصى مجبوب لخدمتهما . وبغلة شهباء ، سماها الرسول الكريم « دلدل » . وماتت فى خلافة معاوية . وحمار سماه عليه السلام « يعفور » ، وفرس ، وألف مثقال ذهب وعشرون ثوبًا من قباطى مصر ، وعسل من بنها .

يقول المؤلف إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يرد هدية أحد ، ويكافئ عليها . وتزوج مارية . ووهب أختها سرية لحسّان بن ثابت ، ووهب الثالثة لمحمد بن مسلمة الأنصارى ، والرابعة لجهم بن قيس العدوى ، وتصدق بالمال ، وأعجبه العسل فدعا لعسل بنها بالبركة ، وعندما كتب ملك الصين إلى معاوية بن أبى سفيان يطلب منه إرسال من يشرح له الإسلام ، بعث إليه بهدية عبارة عن كتاب يتضمن بعضًا من أسرار العلوم ، يقول المؤلف إنه انتهى إلى خالد بن يزيد بن معاوية . وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة وغيرها .

ومن غرائب الهدايا قضيب الزمرد الذى أهداه أحد ملوك الهند إلى الرشيد ، كان أطول من الذراع . وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر ، لا قدر له من النفاسة ، فوهبه لأم جعفر زبيدة زوجته ، وانتقل منها إلى الأمين بالله ، ثم إلى أخيه المأمون ، ثم صار إلى المعتصم بالله بعدهما ، وجلس المعتصم بالله يومًا ، فشرب ، وعنده ندماؤه فطرح إليهم قضيب زمرد كان بيده . وسأل عما إذا كان أحدهم يعرف هذا القضيب ؟ فلم يعرفه أحد منهم . حتى صار إلى عبد الله بن محمد المخلوع فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا قضيب أهداه ملك الهند إلى الرشيد . وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر قيمته مائة ألف دينار ، ولست أراه ، فأمر المعتصم بطلبه ، وتوعد المسئولين عن الخزانة بالقتل إذا لم يحضروه من ساعته . فجاءوا به وركِّب على القضيب .

وفى عصر المأمون أهداه أبو دُلف بن عيسى مائة حمل زعفران ، على مائة حمار . فوصلت الهدية وكان المأمون عند حديمه ، وأحب أن ينظر إليها على حالها . لكنه فى نفس الوقت كره أن يكون بين الحمير شىء لا يصح للنساء أن ينظرن إليه ، فسأل : أهى أُتُنٌ (إناث) أم ذكور ؟ . فقيل له إن الحمير كلها إناث مرباة ، فسرُ لذلك وقال ، علمت أن الرجل أعقل من أن يوجه إليه حميرًا غير إناث . وهو عند حريمه !

قطر الندى

ويذكر المؤلف تفاصيل هدية قطر الندى أشهر عروس فى التاريخ العربى ، إذ أهدت إلى الخليفة العباسى المعتضد بالله سنة ٢٠٢ هجرية ، هدية ضمت عشرين صينية ذهبًا ، فى عشر منها علب عنبر زنتها أربعة وثلاثون رطلاً ، وفى العشر الأخرى علب ندّ معجون وزنها أيضًا أربعة وثلاثون رطلاً ، وعشرين صينية فضة بها صندل ، وزعفران ، وعشرين صينية من الذهب مغلفة بالزجاج ، بها مسك وزنه أكثر من ثلاثين رطلاً ، وخمس خلع وَشْيا قيمتها خمسة آلاف دينار .

وإلى المعتضد بالله أيضًا جاءته هدية من عمر بن الليث ، فيها تمثال أصفر على مثال امرأة لها أربع أيد . عليها وشاحان مرصعان بالجوهر ، ومعها أصنام صغار لها أيد ووجوه عليها جواهر . كان أصحاب عمر قد ظفروا بها من بعض المدن البعيدة فى البحر. وقد عرضت الهدية ببغداد أيامًا ليراها الناس ، وسميت (شغلاً) لاشتغال الناس بها .

بين المكتفى وبرتا

وكان للهدايا موضع متميز فى العلاقات بين الدول ، بل إنها الفرصة المتاحة لكى يظهر كل ذى سلطان مقدار تقدم أمته ، ونبوغها فى العلم ، يقول المؤلف ما نصه :

« وأهدت برتابنت الاوتارى (برتا فيليا لو تارى حفيدة شارلمان ملك فرنسا) ملكة الإفرنجة ومن والاها إلى المكتفى بالله ، مع علىّ الخادم ، أحد خدم زيادة الله بن الأغلب ، سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، خمسين سيفا ، وخمسين ترسا ، وخمسين رمحًا الأفرنجية ، وعشرين ثوبًا منسوجة بالذهب ، وعشرين خادمًا صقليًا ، وعشرين جارية صقلية ، حسانا لطافًا ، وعشرة أكلُب كبارًا ، لا يطيقها السبع ولا غيره ، وسبعه بزاة ، وسبعة صقور ، ومضرب حرير بجميع آلته ، وعشرين ثوبًا معمولة من صوف يكون فى صدف يخرج من قصر البحر هناك ، يتلوّن بجميع الألوان كقوس قزح . يتلون لونًا فى كل ساعة من ساعات النهار ، وثلاثة أطيار تكون ببلاد الفرنجة ، إذا نظرت إلى الطعام والشراب المسموم صاحت صياحًا منكرًا ، وصفقت بأجنحتها حتى يُعلم ذلك . وخرزًا تجذب النصول والأزجة بعد بناء اللحم عليها بغير وجع » .

ثم يورد المؤلف نص الرسالة التى بعثت بها برتا إلى المكتفى تطلب الزواج منه ومودته ، ونص الرد الذى أرسله الخليفة ، والرسالتان نموذجان لكتابات الملوك فى هذا الزمن

البعيد. وللعلاقات بين القوى الدولية أيضًا . طبعًا الخليفة رفض الزواج وقد أورد ابن النديم فى كتابه (الفهرست) قصة هذه المراسلة ، أما مؤلف الكتاب الذى نعرض له ، فقد ذكرها نقلا عن سيرة المكتفى بالله لعبيد الله بن أحمد الطاهر ، وكتاب آخر لم يسمه ، ويرجح المحقق الدكتور محمد حميد الله . أنه اطلع على نص الرسالتين فى ديوان الرسائل ، عندما كان يعمل فى خدمة أبى كاليجار ، فقد أورد تفاصيل أكثر من المصادر الأخرى .

والمؤلف لا ينقل فقط ، إنما كان شاهد عيان أيضًا ، فقد رأى بنفسه بعض الهدايا يقول :

« وأهدى ميخائيل ملك الروم أيضًا إلى المستنصر بالله فى وزارة الحسن بن عبد الرحمن اليازورى فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة . مع رسول له ورد فى البحر إلى تنّيس . هدايا جليلة ، شاهدت جميعها بتنيس . من جملتها غلمان أتراك متقاربو الأعمار .

وجوار تركيات . وحجل بيض . وطواويس بيض ، وكراكى بيض . . الخ » وينقل عن مصادر أطلعته مباشرة فيقول :

« وأخبرنى فيما تقدّم أن ميخائيل متملك الروم أهدى إلى السيدة والدة المستنصر بالله خمسة دسوت حليا . مجرى بزجاج من أربعة ألوان أحمر قان ، وأبيض ناصع . وأسود حالك ، وأزرق صاف .

ويقول :

« وأخبرنى من أثق به من وزراء المستنصر بالله فى سنة إحدى وستين وأربعمائه مايقارب ذلك أنه وُجد فى بعض خزائن القصر ، فى جملة ما أخرج منها ليباع فى أعطيات الرجال ، قفصٌ مقفل . وأنه فتح بين يديه فوجد فيه أربعة سروج ، أحدها معمول بديباج أسود . ودفتاه وركاباه من ذهب مصبوب ، مرصع جميعه بقطع من اليشب الأبيض ، المليح الجوهر ، وسيوره من جلودٍ سود ناعمة كالحرير ، ولجامه جميعه مكان الحديد منه ذهب مرصّع باليشب أيضًا ، وسيوره سودانية كأحسن ما يكون ، وعليه رقعة مكتوب فيها بخط المعز لدين الله :

« أهدى متملك الروم إلينا هذا السرج واللجام بعد دخولنا إلى مصر ، وذكر أنه من جملة ستة سروج كانت لذى القرنين ، انتقلت منه إلى خزائنهم ، وأنه بقّاه ، ولم يحدث فيه حادثة ، وطالع به » .

وترتبط بعض الهدايا بخصائص علاجية ، فيذكر المؤلف أن المستنصر بالله تلقى هدية

عبارة عن حجر أبيض معمول كالخرزة . إذا شُدّ ليلاً على سرة صاحب الاستسقاء المائى وذلك إلى الصباح وجُعل فى الشمس . قطرت منه قطرات ماء إلى أن يفرغ تمامًا . ويكرر ذلك حتى يشفى المريض ، ويعرف هذا الحجر باسم حجر الماء ، وقد ورد ذكره فى كتاب الأحجار لارسطا طاليس .

ويورد خبرًا عن أحد الباحثين عن الكنوز . أنه عثر فى كنيسة سرقوسة القديمة على حق من نحاس كل من يمسكه يصاب بالإنعاظ طالما بقى فى يده .

الـولائـم والـدعـوات

يفرد المؤلف بابا لأخبار الدعوات والولائم المشهورة . يذكر نقلاً عن ابن عُفَيْر أن عبد العزيز بن مروان خرج إلى الإسكندرية فى سنة أربع وسبعين فاعترضه صاحب بلدة « بلهيب » ، فطلب إليه أن ينزل عنده ، فقال له عبد العزيز : ويحك إن معى جماعة ، فأصرّ ، ولبى عبد العزيز الدعوة ، وكان معه ألف من خواصه ، مع كل رجل منهم اثنان وثلاثة ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام يقدم إليهم الأطعمة والطرائف فى كل يوم ثلاث مرات . وعندما عزم عبد العزيز على المسير ، جاء أربعة يحملون قفة عظيمة تسع ثلاثة أرادب ، فلما كشف عنها عبد العزيز وجدها مملوءة دنانير فأبى أن يقبلها . بلغ ذلك أم صاحب بلهيب . وكانت عجوزًا ضعيفة كبيرة ، فأقبلت عليه ، وقالت ، ما أدرى أيها الأمير اجئتنا لتسرنا أم جئت لتشمت بنا عدونا ؟ . فقال عبد العزيز : إنما جئت لأسركم . فتساءلت : لماذا ترد هديتنا علينا ؟ . وقبل عبد العزيز الهدية وقسمها على رجاله .

ويورد المؤلف نصًا حدثه به من يثق به :

« حدثنى من أثق به . عن ابن مهنّأ ، أحد عمال الريف ، قال : رُدَّ النظرُ إلىّ فى الضياع الجوانيّة . من كورة دَمْيس ، فى أيام المستنصر بالله . فنزلت يومًا الضيعة المعروفة بطاء النمل ، فرأيت فيها آثار بناء قديم كأحكم ما يكون من الابنية وأتقنها ، فسألتُ ما روت الضيعة عنه ، ولمن كان ، فقال لى : أنا آتيك بمن يعرفك به وبأربابه . فجاءنى بشيخ من القبط ، قد جاوز المائة سنة بعدة سنين ، صحيح العقل والحديث ، فسألته عن البناء فقال : قال لى أبى ، وعمره قريب من عمرى ، وقد سألته عن هذه الآثار وهى أبين مما رأيت وأجدّ . « لمن كان هذا البناء ؟ » فقال « لما روت من القبط ، عاملته وشاهدته ، وكان ذا يسار ، وقدر ، وهمة عالية . من أهل هذه الضيعة ، وله والدة تضاهيه فى القدرة والمروءة ، تدعى مارية . ولقد رأيتها أيّام ورد المأمونُ إلى مصر فى سنة ثمانى عشرة ومائتين ،

وانحدر إلى بلد اليحموم ، وكان يبنى له فى كل ضيعـة دكة ويجعل عليها ترسية(؟) . فإذا ورد الضيعة جلس فى التركية ، ونزل العسكر والقواد والوجوه بجوانبها وقد تمنَّى له الا ينزل فى طاء النمل .

واتصل الخبر بجاريـة المذكورة . فخرجت إليـه ، وتوصلت إلى خطابـه ، وكان بحضرة المأمون تراجمة يعـرفون الرومية ، والقبطيـة والنبطية وسائر اللغات ، لا يفـارقون عسكره فى كل أسفاره ، فسمع الترجمان ما قالت ، فقال :

« تقول يا أمير المؤمنين إنـك قد نزلت فى كل مكـان بنيتُ لك فيه دكـة . ومتى لم تنزل عندنا ، بقيتْ وصمة ذلك علينا وعلى ولْدنا من بعدنا ما بقى الزمان » .

فاستحسن كلامها ، ، وأعجبه عقلها . وعدل برأس دابته إلى التركية فنزل فيها ، ونزل جميع العسكر حوله ، ورجعـت إلى ولدهـا فأخبرتـه بما جرى بينهما وبين المأمـون ، فسُر بذلك ، وأحضر إليه وكلاء مطبخ المأمون وطباخيه ، وسألهم عن قوانين مطبخه فى كل يوم من الحيـوان والدجاج والجداء والخراف والفـراريج والأوز . وما يحتـاج إليه من التـوابل ، ورسمـه فى الحلاوات والطيب والشمـع ، وسائر مـا جـرت به عـادته مـن صغير وكبير ، واستدعـى كتاب جيـش العسكر وقـرر معهم ما يحتـاج إليه الـرجال مـن الوطـاء والأبقار والتعليف . . » .

بالغت المرأة وابنها فى إكرام المأمون وجيشه ، وعندما استعد الخليفة للرحيل ، أحضرت المرأة عشر صوانٍ مغطاة ، فلما كشفت بين يديه ، وجد فى كل صينية بها ألف دينار جميعها من نقد واحد . فسأل المأمون عما إذا كانت قد عثرت على كنز فضحكت . وقالت بعد أن أخذت بيدهـا قطعة طين : قل لأمير المؤمنين هذا من الطين . ومن عـدلك ! . «أعجب الخليفة بجوابها ، فكتـب لها إقطاعًا قيمته مائتـا فدان ، فقبلت ذلك وزرعتهـا ، وأقامت قنطرة عرفت باسمها .

أما أشهر الـدعوات فى الإسلام فثلاث ، منها دعـوة أقامها المعتز ، وعـرس زبيدة مع الرشيد ، وعرس المأمون ببوران .

الأيـام المشهـودة والأوقـات المعهـودة

فى هذا الباب يقدم المؤلف وصفًا لمظاهـر احتفالات مختلفة فمن الأيام المشهودة يوم أن وصـل رسولا ملـك الروم إلى الخليفـة المقتـدر بالله فى سنـة خمس وثلثمائة لطلب الفـداء ، اصطف الجيش كلـه من مكان نزولهما إلى القصر . كانـت فرصة لاستعراض قـوة الدولة ،

فهذان الرسولان سيعودان ليخبرا بما شاهداه ، ويورد المؤلف وصفًا دقيقًا يستغرق عشر صفحات لما تم عرضه ، مثل ذلك ما حدث مع رسل ملك الصين عند وصولهم إلى فرغانة ، وبعد العرض المذهل الذى شاهدوه ، منحوا هدايا ثمينة جدًا ، وعند انصرافهم لاحظوا أنهما بدون خفير يخفرهم ، فقيل لهم :

ـ فى ولاية الأمير السيد لا يُحتاج إلى خفير .

فتساءلوا .

ـ أننصرف إذن ؟

قيل لهم

ـ ذلك إليكم . . إن جلستم أبدا . فهذه الجراية لكم ، وإن خرجتم حيثما نزلتم يُقام بنزلكم إلى أن تخرجوا من ولاية الإسلام .

فخرجوا ومعهم العدد الموكل بهم ، حتى خرجوا من فرغانة ، فكان هذا سبب إسلام ملك الصين .

* * *

وفى معرض ذكره للتحف النادرة ، يذكر المؤلف « الدرة اليتيمة » ، ويقول إنها سميت باليتيمة لأنها لم يوجد لها أخت فى الدنيا ولا قرينة ، وكانت قد بيعت إلى هارون الرشيد .

أما « الفص الحافر » فكان من ياقوت أحمر ، وزنه سبعة دراهم . وقد انتقل من العباسيين إلى الفاطميين . ثم يذكر أشهر الثروات التى تركها أصحابها بعد موتهم . ويفرد بابا للمغانم فى الفتوحات ، وبابا آخر لذكر الكنوز والدفائن القديمة ، وفى كل باب تطالعنا تفاصيل دقيقة لذكر الثروات ، والتحف التى صيغت من أنفس المعادن ، وأوصافها العجيبة ، ويبقى تساؤل يثيره هذا الوصف الذى يفصلنا عن صاحبه ألف سنة .

« أين هى الدرة اليتيمة الآن » ؟

أين أثواب ملوك الروم . والتى كان الواحد منها مرصعًا بثلاثين ألف لؤلؤة ، أين . . أين ؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال ، إلا بذكر قوله الكريم :

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

الأنيق فى المنجنيق

فن رمى الحجارة فى التراث الحربى العربى سقى السيوف بدماء الدجاج والزرنيخ ، ورمى الأعداء بالحيات

من ؟

من هو ؟

هل اسمه « ابن أرنبغا الزرد كاش » ؟ أو اسنبغا الزرد كاش ؟ من هو مؤلف هذا المخطوط النادر ، الذى وصل إلى عصرنا ، ويستقر الآن فى مكتبة أحمد الثالث باستامبول؟

الدكتور إحسان الهندى محقق المخطوط الذى نشر فى حلب منذ ثلاثة أعوام ، لم يقطع ، وإنما رجّح ، فالمصادر المعاصرة مثل « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى ، و « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » للسخاوى ، و « السلوك» للمقريزى ، لا تمدنا بمعلومات وافية عن المؤلف الذى طمس اسمه من عنوان المخطوط ، وبقى لنا اسم والده « أرنبغا الزرد كاش » . و « أرنبغا » اسم يطالعنا كثيرًا فى المصادر المملوكية ، « بغا » تعنى الفحل ، أما الزَّدْر كاش فهو اسم مركب أعجمى الأصل ، ومعناه صانع الزرد .

على أى حال . .

وصلنا مؤلف أرنبغا العلمى ، والذى يبرز لنا الفن الحربى العربى ، وأصوله الهندسية ، وما كتبه أرنبغا فى بداية القرن التاسع الهجرى محصلة موروث علمى خاص بالعرب ، كان المنجنيق بمثابة المدفع فى الجيوش القديمة ، كان يقذف بالحجارة الثقيلة ، وبرميل النفط ، وسلال العقارب والثعابين ، المخطوط قصير ، ولكنه مزود بلوحات تفصيلية ، هندسية عديدة ، وقبل الخوض فى علم رمى الحجارة بالمنجنيق ، نطالع المقدمة التى صيغت من عبق الزمن القديم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـه توفيـقى

الحمد لله مـدبر الوجـود ، ومؤيد الجنـود ، بارى النسـم ومودعهم أسرار الحكـم ، مبدع الموجودات بحكمتـه ومتقنها ببـديع صنعتـه ، الواحـد القهار ، العـزيز الجبـار ، ذى البأس الشديد الفعال لما يريد . .

والصلوة [الصلاة] على سيـدنا محمد الذى بعثـه الله وجيش الكفر منشور بـالعصايب ، وغسقه محلـولك الغياهب . فشمّـر عن ساق اجتهـاده . وجاهد فى سبيل الله حـق جهاده ، حتى أشرق بدر الإسلام ، وانجلت غياهب ذلك الظلام ، وسطعت أنوار الإيمان ، وثبتت منه القواعد والأركـان ، وعلى أصحابه وأهل بيته الأطهـار ، وجميع المهاجريـن والأنصار ، ما لاح ضوء الصباح ولمع برق سلاح .

. . افتتاحية تدل على حرفة صاحبها العسكرية ، وتومئ مشيرة إلى موضوع المؤلف ، وتقليد الافتتاحية هـذا تخلت عنه الكتابـات العربية الحديثة ، مع أنـه من تقاليد النثـر العربى ، وفى معـايشتى للتراث لا أذكـر أننـى طالعـت افتتاحيـة تشبـه الأخرى ، لا فى المفـردات ، ولا فى الصياغة ، مع أن المضمون متقارب ، أو يكاد يكون واحدًا التسليم لله ، والصلاة على رسوله . تتفاوت كل منها فى القصر أو الطول ، بضعة سطور كما نجد عند صاحبنا هذا ، أو صفحات عـديدة كما نلقـى عند الشيـخ الأكبر محيـى الديـن بـن عربـى فى «فتوحـاتـه المكية» ، هـذه الافتتاحيات أشبهها بالمداخل المؤدية فى العمارة الإسلامية ، مبانى مدنية كانت ، أو مساجد ، أو منشآت دينية كالخوانق والأسبلة ، والأضرحة .

لن نناًى عن النص الذى نعرض له ، فـالموضوع طـويل ، وما يقال كثير ولكن قبل الخوض فى النص لنرجع إلى مقدمة المحقق ، فلقد نسى عصرنا المنجنيق وصار أثرًا ممحوا . بعد أن كان واقعًا يثير الرهبة . وهذا حكم الأشياء . .

* * *

العــــــروس

يدلل الدكتور إحسان الهندى على الأصل العـربى للمنجنيق ، ويؤكد أن العرب عرفوا هذا السلاح من العصر الجاهلى . فهناك أكثر من مصدر تاريخى يؤكد أن جزيمة الأبرش ، مؤسس دولة التنوخيين (١٣٨ ـ ٢٦٨م) كان أول من استخدم المنجنيق من العرب قبل الإسلام ، كما تؤكد دراسة حديثة للدكتور صلاح العبيدى أن عرب العراق عرفوا هذا السلاح منذ القدم .

كما ورد فى تاريخ الطبرى أن عروة بن مسعود ، وغيلان بن سلمة لم يشهدا مع الرسول وقعة

حنين لأنهما كانا يتعلمان صناعة الدبابات والمنجانيق فى بلدة « جـرش » . وهذا يدل على أن العرب الغساسنة الذيـن كانوا يقطنون فى هذه المدينة وما جاورها منـذ عهود ما قبل الإسلام . قد عرفوا هذا السلاح وبرعوا فى استخدامـه . كما ذكر صاحب «البداية والنهاية » أن المسلمين استخدموا المنجنيق لأول مرة فى حصار الطـائف ، أما الخليفـة عمر بـن الخطاب فقـد عنى أفضل عنـاية باستخـدام المنجنيق حتى أصبح لدى جيـش المسلمين الذى فتح بـلاد فارس عشرون منها استخدمها فى فتح مدينة بهرسير (المدائن) . وطبقًا لرواية الواقدى نجد أن جيش ابن الوليد استخدم السلاح نفسه ، وفى العصر الأموى اهتم الخلفاء بتطويره ، وعندما حاصر الحجاج الثقفى عبـد الله بن الـزبير مكة ، قـام بنصـب منجنيق ضخـم على جبل قبيـس ، وينسب إليـه أيضًا أنه أمـر بصناعة منجنيـق ضخم يحتـاج إلى خمسمائة رجل لتحريكـه وكان يسمى «العـروس » ، ويقال إنـه سلمه إلى محمد بـن القاسـم الثقفـى لما وجّهه لفتـح السند ، واستخدمه أيضًا فى فتح مدينة الدَّيْبُل (كراتشي حاليًا) وغير ها من مدن السند سنة ٨٩ هـ ، ويقال إن كبير الرماة الموكل بـالرمى على العروس ، كان اسمه « جؤبة » وأنه لمهـارته كان يرمى على صاربة علم بقطعة الحجر فيمزقها فى الرمية الثالثة على الأكثر .

مع بداية القرن الثانى الهجرى أصبح المنجنيـق شائعًا خاصة فى حصار المدن ، ويروى ابن الأثير أن مروان بـن محمد حاصر سعيد بـن هشام وأنصاره فى مدينـة حمص لمدة عشرة أشهر ، ليلاً ونهارًا ، ونصب عليهم نيفًا وثمانين منجنيقًا . وقد نقل معهم أمويو الأندلس هذا السلاح إلى هناك . فى هذه الفترة شاع استخدام المنجنيق عند العرب ، وبدأ يظهر فى الشعر .

يقول جرير :

يلقـى الـزلازل أقـوام دلفـت لهـم   بالمنجنيـق وصـكًا بالملاطيـس

والملاطيس هى الحجارة التى يرميها المنجنيق .

فى جيوش العباسيين أصبح سلاحًا رئيسيًا . وأصبـح له صنف خاص ، هو «المهندسين » يرأسـه قائد يلقـب بالمنجنيقـى ، وخلال الفتنـة بين الأمين والمأمون عـام ١٩٧ هـ (٨١٣ م) استخدم المنجنيق بكثرة .

فى العصر المملوكى ، جرى اهتمام عام بالصناعة الحربيـة ، وبالمنجنيق خاصة ، كان هذا يتم فى خزائن السلاح المسماة « الزردْ دخاناه » يصفها المؤرخ ابن تغرى بردى بقوله :

« وكانـت تحوى أشياء كثيرة محملة على العجـل . تجرها الأبقار ، وعليهـا آلات الحصاد ، ومن مكاحل النفط الكبار ، ومدافع النفط المهولة والمناجيق العظيمة ، ونحو ذلك . . » .

ويصف لنا أبو الفداء فى « المختصر فى تاريخ البشر » المنجنيق الذى استخدمه المسلمون فى حصار الصليبيين فى عكا ـ ٦٦٠ هـ (١٢٦١م) يقول :

« أمر السلطان الملك الأشرف بجر المنجانيق وآلات الحصار من جميع الحصون إليها ، فاجتمع على عكا من المنجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها » .

أما المؤرخ ابن تغرى بردى فيصف حصار قلعة صلخد ٨١٢ هـ .

« ثم طلب السلطان مكاحل النفط والمدافع من قلعة الصبيبة وصفد ودمشق ونصبها حول القلعة ، وكان فيها ما يرمى بحجر زنته ستون رطلاً شاميًا ، وتمادى الحصار ليلاً ونهارًا حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتى جمل ، فلما تكامل نصبه ، لم يبق إلا أن يرمى بحجره ، وزنة حجره تسعون رطلاً بالدمشقى ـ يساوى ٢٥٠٠ جرام ـ

وقبل الانتقال مع مقدمة المحقق إلى أنواع المنجانيق ، نعود إلى مخطوط ابن أرنبغا الزرد كاش .

* * *

منكلى بغا

. . من تقاليد المؤلفات القديمة ، أن يهدى المؤلف كتابه إلى صاحب له ، أو إلى سلطان . أو أمير ، له به وثيق صلة ، أو تلقى منه منة ، نجد هذا فى معظم المؤلفات العربية .

وغريب أننا لا نعرف على وجه الدقة اسم صاحبنا ، أو نحيط بحياته ولكننا نعرف شخصية من أهدى إليه كتابه ، لنصغ إلى النص :

« أتابك العساكر الإسلامية ، مؤيد الملة المحمدية ، هو المقر الأشرف . السيفى ، شمس العلا منكلى بغا الشمسى . ما زالت الأقدار قاضية بهلاك أعدائه ، متكفلة بإسعاد أحبائه وأودائه ، ممن أخذ من كل فن بأوفر نصيب ، وأضحى كل بعيد المتناول وهو منه قريب ، وجمع بين فضيلتى الحُكْم والحِكَم ، والسيف والقلم ، ورأيت أعظم مساعيه ، وأكثر دواعيه إلى إمعان النظر فيما يحفظ نظام الممالك ، وتنجلى به الخطوب ، الحوالك ، من أنواع جيسد الحروب ورمى أعداء الدين بمصميات الخطوب والتوصل إلى أخذ معاقلهم ، والحصون ، وزلزلة أركانهم ، وهتك سرهم المصون » .

والأمير منكلى بغا الذى أهدى إليه المؤلف كتابه ، فهو أتابك العساكر الإسلامية ، منكلى بغا ، الصالحى ، الظاهر برقوق ، ويعرف بالعجمى ، صيره الناصر ابن أستاذه ، وأرسله رسولاً إلى تيمور لنك سنة خمس وثمانمائة (هجرية) ، ثم رجع وتولى الحسبة فى زمن السلطان المؤيد شيخ ، تزوج من الأميرة خوند فاطمة ابنة الملك أشرف شعبان ، ثم أصبح أتابك ـ قائد

ـ للجيوش عام ٨٣٠ هجرية ، ومات عام ٨٣٦ هجرية ، وهذا يعنى أن ابن ارنبغا الزرد كاش قد وضع مؤلفه قبل عام ٨٣٠ هجرية .

بعد أن يفرغ المؤلف من الإهداء ، يذكر مضمون الكتاب ، فيقول إنه وضعه فى أنواع المنجانيق ، والزيارات (نوع من منجانيق السهام ـ والسلالم التى تستخدم فى حصار القلاع ، والزحافات التى يجلس فيها المحاربون بينما يقوم رفاقهم بدحرجتها باتجاه أسوار القلعة المحاصرة ، والجسور التى تمد لعبور الموانع المائية ، ورمى المكاحل (المدافع) . والقوارير المعبأة بالنفط .

« وما شاكل ذلك من مخترعات التدابير ، وجعلته كتابًا ورتبته فصولاً وأبوابًا ، وخدمت به الحضرة العالية ، ما زالت سعودها متوالية ، ولست فى ذلك إلا كما قيل . .

كالبحر تمطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه

ثم ينتقل ابن ارنبغا إلى وصف المنجنيق ، وأسلوب الرمى به :

« . . إذا أردت أن ترمى بعيدًا فإنك تضع الحجر فى المنجنيق وترمى به إلى مطلوبك ، فإن أردت أبعد منه فإنك تدهن فى الثانية أصبع المنجنيق بالزيت ، [دهن أصبع المنجنيق بالزيت يجعل انزلاقه أسهل ويزيد بالتالى من مدى الرمى] ، فإن رميت به ، وبلغت ما تطلب ، وأردت أبعد من ذلك فإنك تضع بين حلقة سواعد المقلاع ، وبين الأصبع الحديد قطعة من المشاق (ما يبقى من الكتان بعد المشق) وترمى به ، فإن بلغت مقصودك فحسن ، وإن أردت أبعد منه فإنك تدخل فى أصبع المنجنيق كعكة من حبل وترمى به فإنك تبلغ مقصودك ، وإن أردت أبعد منه فإنك تضع فيه كعكة أخرى فإنك تبلغ الذى تطلبه إن شاء الله تعالى ، وإن أردت أبعد منه تضع كعكة أخرى ، تفعل ذلك ثلاث مرات فإنك تبلغ الذى تطلبه .

ويمضى ابن ارنبغا فى تفصيل طرق الرمى إلى مسافات أبعد ، والعالمون بالفن العسكرى الحديث ، سيجدون أن القواعد التى وصفها تماثل فى خطوطها العريضة نفس قواعد إطلاق الصواريخ الحديثة مع مراعاة التعقيد وفارق العلم والعصر ، ينطبق هذا على ما قاله أيضًا بخصوص الرمى عن قرب . .

« وإن أردت القرب ، فإنك تضع الحجر وترمى به إلى حيث تريد ، فإن أردت أقرب من ذلك فإنك تدهن ثلث أصبع المنجنيق وترمى به ، وإن أردت أقرب منه فإنك تدهن ثلثى الأصبع وترمى فإنك تبلغ المقصود .

وإن أردت أقرب من ذلك فادهن جميع الأصبع وترمى فإنك تبلغ ما تريد ، وإن أردت أقرب منه فإنك تشيل رأس المدريب (ينصح المؤلف هنا برفع المنجنيق إلى أعلى ، مما يزيد فى

انحناء زاويـة الرمى وهـذا مما ينقص المدى حسـب مبدأ الرمـى بالأسلحة المنحنيـة مثل الهاون حاليًا) . إلى فوق ذراع واحد فإن أردت أقرب منه فإنك تشيلـه ذراعا آخر وترمى فإنك تبلغ ما تريد ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك توسـع المزريب وترمى به ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنـك تنزع جسر الدولاب وتـرمى به فـإنك تبلغ المقصـود ، وإن أردت أقرب منه فـإنك تغير الساعد بـأغلظ منه وأن أردت أقرب منه فـإنك تزيد الحجر رطـلاً واحدًا وترمى به فـإنك تبلغ المقصود إن شاء الله تعالى . . » .

ويمضى ابـن ارنبغا فى شرح وسائل تقـريب الـرمى ، والضرب على مسافـات قليلة ، ولا يفوته التأكيد بعد شرح كل خطوة أن تنفيذ ما قاله يبلغ صاحبه المقصود بإذن الله تعالى .

وفى نهاية شرحه يقول .

« وهذا الذى ذكرناه تمام العمل بالمنجنيق الذى يسمى قرا بغرى . . » .

وقرا بغرى ، نـوع خاص من المنجنيق ، خاص بـرمى الحجارة ، ويعمل طبقًـا لمبدأ الثقل المعاكس ، وهو النوع الذى ركز عليه ابن ارنبغـا فى بحثه . سواء فيما يتعلق بالنص ، أو الرسوم التفصيلية ، ولا يفوته أن يشرح تركيبه فى نهاية القسم الأول من المخـطوط . .

« ولابد من ذكـر وضع هذا المنجنيق فنقول كيفية وضعه (تركيبه) ، حتى يصير الـرامى به مستأنسًا فتـذكر ما يحتاج إليه مـن الأخشاب ، وهى ثمان وعشرون قطعة من الخشـب وفيها ما يزيـد وما ينقص ، فـإذا أردت وضعه فتنظر إلى مـا قد وصفتـه من الأخشاب فى هـذا الكتاب فتعمـل أمثالها وأعـدادها والصنـدوق المرسوم فيـه فلا تخرج عـن عمله وانظـر أيضًـا إلى طـول النشاب وما هـو عليه ، فاعمل هيئته وسفلـه وأعلاه وبخوش (ثقوب) الخنـزيرات (الجزء من الدولاب الذى يدخل فيه عمود السهـم) وغير ذلك من الأعمال ، ثم جمع المنجنيق وما يحتاج إليه . . » .

وهنا نعود إلى دراسة الدكتور سامى الدهان لنقف منها على أنواع المنجنيق .

* * *

من الحجـر إلى الثعـابين

المنجانيق بشكـل عام عبارة عن عدد من القـوائم الخشبية ، تتصل أعلاها بعارضـة يركب عليها عمـود خشبى طويـل يقال له « السهـم » ، يكون قصيرًا من جهـة ، وطويلاً مـن جهة أخرى ، ويحمل هذا السهم من جهته القصيرة ثقـلاً معاكسًا يسمى «الصندوق» إذا كان كتلة واحدة و « القواعـد » إذا كان جملة أثقال ، كما يحمل مـن جهته الطويلة «الكفـة » التى تحمل المقذوف سـواء كان هذا الأخير حجرًا أو بـرميل نفط ، ويتصـل «السهم » من جهته الطـويلة

بحبل من الشعر يسمى « ذيّار » ، يمكن شده بواسطة «دولاب » ، كان يطلق عليه أحيانًا اسم القوس لأنه كان يتصل بقوس يزيد انحناء كلما دار الدولاب فى حالة الشد .

كانت المنجانيق أنواعًا ، فمنها ، مجانيق قذف الحجارة ، وهى أشد الآلات الحربية القديمة تأثيرًا ، لا سيما فى الحصار ، ويتم الرمى عن طريق وضع قطعة الحجر فى الكفة التى يحملها السهم ، وكلما زاد اتساع الكفة كلما أمكن رمى قطع أكبر من الحجارة .

أما مجانيق قذف السهام ، وتسمى أيضًا بقسى الزيار ، فكانت عبارة عن أقواس كبيرة ترمى سهامًا هائلة الحجم يتراوح طولها بين ٦٠ و ١٨٠ سم ، وتزن من اثنين إلى ثلاثة كيلو جرامات ، ويصف ابن خلدون فى تاريخه قوسًا ضخمًا من قسى الزيار ، صنع عام ١٣٩٨ م ، ويقول إنه كان يلزمه أحد عشر بغلاً لنقله ، كانت هناك أيضًا مجانيق قذف النفط وكرات اللهب ، والقنابل ، وكانت أنواعًا منها قنابل النحاس ، والزجاج ، والغازات ، وتلك الأخيرة عرف منها العرب أنواعًا ، فكانت منها القنابل المضيئة ، وكانوا يصنعونها على شكل كرات من الكبريت الأسود ، والصمغ والزرنيخ ، وكانوا إذا رموا هذه الكرات بعد إشعال النار فيها تبقى مشتعلة ، سواء أثناء إطلاقها أو بعد سقوطها ولا ينفع الماء فى إطفائها .

أما القنابل الخانقة فكانوا يصنعونها من الكبريت والزرنيخ والأفيون والبنج الأزرق ، وكانوا يدخنونها على مهب الريح حتى يفسد الهواء الذى يستنشقه جنود العدو ، ابن ارنبغا يخصص قسمًا لوصف تركيب هذه القنابل ، ويسمى كلا منها قدرة ، ويورد رسمًا تفصيليًا لكل منها ، يصف خمسا وأربعين طريقة لصناعة هذه القنابل أو القدور بلغة عصره ، منها على سبيل المثال « قدر مخاسفة مضرَّس » . وهذا نوع من القنابل التى تنفجر ذاتيًا . . يقول فى طريقة العمل :

« يأخذ قدر مدور فخار ، يحط فيه فتاتيش (فتاش أى سهم نارى » ، وصفاريخ (صواريخ) فى سفل كل فتاش ضرس وهو حدّ (أى حارق) وفى سفل كل فتاش ثلاثة كواكب (أجهزة إشعال) وتملأ الصواريخ والفتاتيش ، وتملأ معهم دواحد (كرات صغيرة من المعدن) وتختم رأس القدرة ، وتنزل فى رأس القدرة إكريخ عراقى (الأكريخ هو جهاز لإشعال القدرة) . . » .

طبعًا يبدو بوضوح صعوبة النص ، والمصطلحات المستخدمة ، من هنا يبرز أيضًا مدى جهد المحقق فى تفسير معمياته ، وفيما يلى النص الخاص بتركيب قنابل الغازات .

« تأخذ ستين قنا ، وستين عنزروت (نبات يستخرج منه صمغ) ، وستين شامبى (نبات غير معروف) وستين وشق (صمغ يعطى حرارة للمكان الذى يلصق عليه يسميه عوام الشام ويشة) ، وستين حصالبان ، وستين علك صنوبر ، وستين حلتيت (أنواع من الصمغ) ،

وتحله ويطعم بالنفط ، وبالبياض (مستحضر سريع الاشتعال) وتخدم على الرخامة ، وينعلف بأربعين سندروس مخرمش ، وتأخذ حافر الفرس ، وتبرُدُه ويعمله ، وتأخذ من برادته ماية وخمسين ، وأفيون خمسة وعشرين ، ومن الزرنيخ خمسين ، ومن البينج الأزرق خمسين ، وتعلف الكل فى اللزاقات ، على الرخامات ، وتبيض القدر ، وتنزل الكل فى القدرة . . » .

أما قنبلة الجير فيصفها كما يلى :

« يأخذ قدرة مدورة ، ويحط فيه كلس مطفى ، ويسد رأس القدرة ويكسره فى الثقب . وأما فى الشواق (فوهات المراقبة فى القلاع) يطلع غبار الكلس إلى مناخيرهم ، وإلى أعينهم ، ما يقشعون (لا يميزون) القتال ، فتنزل وتمسكهم قبض اليد (بدون مقاومة)» .

وأغرب ما يصفه قنبلة الحيات والثعابين :

« تأخذ القدر الفخار ، أكبر ما يكون ، وتحط فيها حيات (أفاعى) وأحماسها (نوع من الزواحف) ونواشيد (نوع من الأفاعى ذات الصلال) ، وتسقطها فى الثقوب فى المركب ، فأى من لسعته قتلته ، والله أعلم . . » .

كانوا يرمون قنابل الأفاعى والعقارب هذه على مراكب العدو ، أو القلاع المحاصرة ، والأماكن المحدودة المساحة ، فإذا قذفت وتهشمت خرجت الأفاعى ، والعقارب ، فتؤذى جنود العدو ، أو تثير فيهم الذعر ، وكان هذا الرمى ، لا يتم إلا على أهداف محاصرة ، أو سفن العدو فى عرض البحر ، فأى من لسعته قتلته والله أعلم .

* * *

القسم الأخير من المخطوط مخصص لسقاية السيوف ، أى نقعها فى سائل معين بعد تسخينها على النار حتى تكون أشد حدة وأكثر قدرة على القطع ، ويذكر ابن ارنبغا مواد عديدة لسقى السيوف منها دم الفراخ ، وقشر الرمان اليابس ، وأكسيد الحديد ، وعرق الفرس والحمار وقرن الإيّل المطحون .

أما صمغ الصنوبر ، والمصطكى واللبان ، وبذر الكتان ، وبرادة الحديد ، فمواد تمنع صدأ السيوف .

أما السقاية الشريفة ، أى المعتبرة ، عالية المستوى ، فمن المواد المستخدمة فيها ، الجير ، وملح البول أى ما يتبقى منه بعد تبخره ، ومواد كيماوية أخرى . وتبل فيها السيوف ، وتترك لمدة ثلاثة أيام ، بعد ذلك :

« اضرب به عمود الحديد ، زنته عشرة أرطال فإنه يقطعه إن شاء الله تعالى » .

ولكى يكتسى السيف لونًا أحمر ، يوضع فى مواد مستخرجة من كبريتات الحديد، وتوضع

هذه المواد فى جراب من الجلد يُدخل فيه السيف ويوضع تحت التبن ، بعد مدة يخرج أحمر قاطعًا .

ولكى يصبح لونه أصفر تؤخذ مواد من خشب الورس الذى ينبت فى اليمن أو الحبشة ، والعصفر ، ويوضع السيف تحت ثقل بعد دهانه .

« ثم يخرج فإنه يكون ما أردت إن شاء الله تعالى ، والله أعلم . . » .

والله أعلم ، هكذا يختتم ابن ارنبغا الزرد كاش مخطوطه أو مؤلفه النادر .

* * *

وضع ابن أرنبغا حوالى مائة رسم توضيحى ، لأدوات المنجنيق ، وطرق استخدامه ، وأنواعه ، وأساليب الحصار ، ولتركيب القنابل ، وسقاية السيوف . قام الدكتور سامى الدهان بشرحها ، وتوضيح غوامضها ، هكذا يلقى هذا المؤلف النادر الضوء على جوانب هامة من أصول الفن الحربى العربى .

النص صعب ، إلا أن التحقيق العلمى الممتاز الذى . قام به المحقق ، إضافة إلى شروحه وتوضيحاته ، جعلته ميسرًا ، متاحًا ، ومقروءًا بسهولة ، ومن أهم ما تضمنه الفهارس ، بخاصة ذلك الجزء الخاص بأهم المؤلفات الحربية والعسكرية فى التراث العربى ، معظمها مازال مخطوطًا ، متناثرًا فى مكتبات العالم المختلفة .

ويبقى لنا بعد تقديم هذا المخطوط فى فن الحرب عند العرب . أن نردد مع مؤلفه فى ختام عرضنا ما ردده هو فى مفتتح مؤلفه :

وضع العبد الفقير المعترف بذنبه ، الراجى عفو ربه ابن ارنبغا الزرد كاش» .

* * *

الأنيق فى المنجنيق

لابن أرنبغا الزرد كاش

دراسة وتحقيق : الدكتور إحسان هندى . صدر عن

جامعة حلب (معهد التراث العلمى العربى)

بالتعاون مع معهد المخطوطات العربية (المنظمة

العربية للتربية والعلوم والثقافة) .

سلسلة مصادر ودراسات فى تاريخ التكنولوجيا

العربية ـ ٤ ـ

٢٨٨ صفحة ـ قطع كبير

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب

لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسابورى [٣٥٠ هـ - ٤٣٠ هـ]

للثعالبى ركن بأكمله فى المكتبة العربية .

عاش عمرًا مديدًا ، تجاوز الثمانين ، وكما طال عمره ، فقد تعددت مؤلفاته ، إذ تعدت الثمانين مصنفًا ، كلها حول الأدب واللغة والتاريخ ، دون فيها ملامح عصره ، ومعارفه ، ورسم صورة واضحة المعالم لأعلامه وكتّابه وشعرائه ، وصلنا معظمها ، مثل يتيمة الدهر فى شعراء العصر ، وفقه اللغة ، وسر العربية ، والتعريض والكناية ، والمبهج ، والتمثيل والمحاضرة ، وخاص الخاص ، والإعجاز والإيجاز ، والنوادر والتعليقات ، والمطربات المرقصات وغيرها .

ولد فى نيسابور سنة خمسين وثلثمائة ، وتوفى بها سنة ثلاثين وأربعمائة ، نُسب إلى الثعالب لأنه عمل فى خياطة جلودها ، المعلومات عن حياته شحيحة ، ضئيلة ، وما جاء عنه فى كتب التراجم سطور عامة لا تلقى ضوءًا كافيًا ، ولا تشفى غليلا .

يقول ابن خَلِّكان فى موسوعة « وفيات الأعيان » .

« كان فى وقته داعى تَلَعات العلم ، وجامع أشتات النثْر والنظم ، رأس المؤلفين فى زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، ساد ذِكْرُه سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب . . » .

أما تلميذه وربيبه علىّ بن الحسن البّاخرذى فلم يزد على أن قال فى حقه :

« جاحظ نيسابور ، وزُبدة الأحقاب والدهور ، لم تر العيون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف يُنكر وهو المُزْن يُحمد بكل لسان ، أو يُسْتَر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان ، وكنت وأنا بعد فرخ أزغب ، فى الاستضاءة بنوره أرغب . . » .

أما المصرى صاحب كتاب زهو الآداب ، فقال عنه :

« وأبو منصور هـذا يعيش إلى وقتنا هذا ، وهو فـريد دهره وفريـع عصره ، ونسيج وحده . وله مصنفات فى العلم والأدب ، تشهد له بأعلى الرتب .

هكذا ، مجرد أوصـاف عامة ، لكـن ما من تفـاصيل عـن أطوار حياتـه ، أو الأعمال التى مارسهـا ، أو البلاد التى رحل إليهـا ، كان ناثـرًا فذًا ، وشاعـرًا رقيقًا ومن كتبه التـى وصلتنا وطبعت أكثر مـن مرة ، كتاب « ثمار القلوب فى المضـاف والمنسوب » حققه محمد أبـو الفضل إبراهيـم ، وصدر فى سلسلـة ذخائر العـرب عن دار المعـارف بمصر ، كتاب ضخـم يقع فى ثمانمائة صفحة ، خصصه لـذكر أشياء مضافـة ومنسوبة إلى أشياء مختلفـة يُتمثل بها ، ويكثر استخـدامها فى اللغـة ، مثل القـول ، غراب نـوح ، ونار إبـراهيم ، وذئب يـوسـف ، ومثـل قولهم ، قـرطا ماريـة ، وتفاح الشام ، وورد جُور . . . ، قسـم الكتاب إلى واحد وستين بـابا ، الأبواب الخمسة الأولى يمكـن اعتبارها مفتتحا ذا طابـع دينى . الأول يذكر فيـه ما يُضاف إلى اسم الله تعـالى ، مثل القـول « بيت الله » ، والمقصود الكعبـة بيت الله الـذى جعله الله مثـابة للناس ، وقبلة لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكعبة لأمته ، ويقول إن العرب فى الجاهلية كانت لا تبنى بنيانًا مربَّعـا تعظيمًا للكعبة ، ثم يذكر خصائصه ، ومنها أنه بواد غير ذى ذرع ولا شجـر ، وينثنى فيـه الذئب عمن يطـارده ، ولا ينزلـه الحمام إلا إذا كان عليـلاً ، وإذاحاذاه الطير انقسـم إلى فريقين ، ثـم يقول الثعـالبى « ومن يستطيـع الإحاطـة بفضائل بيت الله وخصائصه . » .

* * *

الأنبيــــاء

يُقال « سفينـة نوح » ، تضرب مثلاً للشـىء الجامع ، لأن نـوحًا حمل فيها مـن كل زوجين اثنين ، ويُقال أيضًـا « غراب نوح » يضرب مثـلاً للرسـول الذى لا يعود ، وكـان أهل البصرة يقولـون : فلان لا يرجع حتـى يرجع غراب نـوح . ويُقال عمر نوح يُضرب مثـلاً فى الطول ، ويُنسب إلى سيدنا إبراهيـم ، « مقام إبراهيم » كناية عن كل مكـان شريف ، و « نار إبراهيم» للبرد والسلامة . أما « رؤيا يوسف » فيضرب بها المثـل للرؤية الصحيحة ، الصادقة ، و«ذئب يوسف » يُقال لمن يُرمى بذنب جناه غيره وهـو برىء ، ويُقال « عصا موسى » ، يورد الثعالبى قول الجاحظ : « من يستطيع أن يدعى الإحاطة بما فى قول موسى « ولى فيها مآرب أخرى » إلا بالتقريب وذكـر ما خطر على البال ! ولكننى سأذكر جُملاً تدخـل فى باب الحاجة إلى العصا ، فمنها ، أنها تحمـل للحية والعقرب والـذئب والفحل الهائج ويتوكـأ عليها الشيخ الـدالف ،

والسقيم المدنف ، والأقطع الرِّجل ، والأعرج ، وتنوب للأعمى عن قائده . . الخ » ، ومن ضرب المثل بعصا موسى فأحسن وأبدع ابن الرومي حيث قال :

مديحي عصا موسى وذلك أنني ... ضربت به بحر النَّدى فتضحضحا
فياليت شعري إن ضربت به الصَّفا ... أيُبعث لي منه جداولَ سُيَّحًا !
كتلك التي أبدتْ ثرى الأرض يابسًا ... وأبدت عيونًا في الحجارة سُفَّحًا
سأمدح بعض الباخلين لعله ... أن اطَّردَ المقياس أن يتسمَّحا

ويقول الثعالبي إن ابن الرومي أبدع اذ شبَّه مديحه بعصا موسى التي ضرب بها البحر فيبس ، ذلك أنه مدح جوادًا فبخل ، فقال ، سأمدح بخيلاً لعله يجود . ويُقال «خليفة الخضر » إذا كان الرجل جوّالاً ، جوّابًا للآفاق ، كما قال أبو تمام عن نفسه :

خليفة الخِضْرِ من يأوى إلى وطنٍ ... في بلدةٍ فظهور العيس أوطاني

ثم قال :

بالشام قومي وبغداد الهوى وأنا ... بالرّقتين وبالفسطاطِ إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت ... حتى تسافر بي أقصى خراسان

ومما ينسب إلى الأنبياء « صبر أيوب » . و « حوت يونس » و « نغمة داود » و« خاتم سليمان » و « طب عيسى » . و « بردة النبي » التي يضرب بها المثل في البلى ، وهي التي خلعها الرسول الكريم وكساها كعب بن زهير بعد أن أنشده قصيدته المشهورة .

* * *

القرون الأولى

والمقصود بها الأزمنة النائية ، المنقرضة ، يقال « أحلام عاد » ، كانت العرب تتصور أن قوم عاد عمالقة الأجسام ، وبالتالي كانت أحلامهم ضخمة كأجسادهم أما « ريح عاد » فتضرب مثلاً للإهلاك وللإخفاء ، أما « صاعقة ثمود » فتضرب أيضًا مثلاً في الإبادة ، ويقال « صرح هامان » للأبنية الشاهقة ، و « كنوز قارون » للأموال والثروات النفيسة ، و « نوم أصحاب الكهف » للنوم الطويل ، ومن أقوال العرب « جوف حمار » كان رجلٌ من عاد ، يقال له حمار بن مُويلع ، وبجوفه وادٍ له طويل عريض ، لم يكن هناك أخصب منه وفيه من كل الثمار ، فخرج بنوه يتصيدون ، فأصابتهم صاعقة فهلكوا ، فكفر ، وقال : لا أعبد من فعل هذا ببنىّ ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله ، فأهلكه الله ، وخرّب واديه فُضرب به المثل في الخراب والخلاء .

ومما يضرب به المثل « ذكاء إياس » . كان قاضيًا شديد الذكاء ، كان في صغره ضعيفًا ، ضئيلاً ، وكان له أخ أشد منه حركة وأقوى ، وكان أبوهما يقدمه على إياس ، فقال له إياس يومًا : يا أبتِ ، أنت تقدِّم أخي عليّ وسأضرب لك مَثَله ومثلي ، فهو مثل الفَرّوج حين تنفلق عنه البيضة يخرج كاسيًا كافيًا نفسَه فيلقط ويستخفه الناس ، فكلما كبر انتُقِص حتى إذا تم وصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح ، وأنا مثل فرخ الحمام تنفلق عنه البيضة عن شيء ساقط لا يقدر على حركة وأبواه يُغذّيانه حتى يَقْوى ويثبت ريشه ثم يحسن بعد ذلك ويطير ، ويتخذه الناس ويرسلونه من المواضع البعيدة ، فيجيء فيصان لذلك ويُكرَم . فقال أبوه : أحسنت المثل ، وقدمه على أخيه . وحج إياس يومًا فسمع نُباحَ كلب ، فقال : هذا كلب مشدود . ثم سمع نباحه فقال : لقد أُرسِل ، فلما انتهوا من الماء سألوا أهله ، فكان كما قال ، عندئذ سألوه : كيف عرفت ؟ . فقال : كان نباحه وهو موثق يُسمع من مكان واحد ، فلما أطلق سمعته يقرب مرة ويبعد مرة . وهو ذات ليلة بناحية ، فقال : أسمع نباح كلب غريب ، فقيل له : كيف عرفت ؟ قال : بخضوع صوته ، وشدة نباح الآخر .

ورأى يومًا أثر رعي بعير : فقال : هذا بعير أعور . فقيل له : من أين علمت ؟ فقال : لأني وجدت رعيه من جهة واحدة .

* * *

الرجـــال

ومما يضرب وينسب إلى رجالات العرب . «شيبة الحمد » ، كأن يقال ذلك لعبد المطلب بن هاشم لنور وجهه ، ذلك أنه كانت في ذؤابته شعرة بيضاء حين وُلِد . أما (حاتم الطائي) فكان من أكرم العرب ، وقيل « دُعَيْميص الرَّمل » لرجل كان من أمهر أدلة الطرق ، ضرب به المثل فقيل « أهدى من دعيميص الرمل » ويُقال انه دخل وَبَار ، وهي بلدة تزعم العرب أنها بلدة الجن ولم يدخلها إنسي غيره ، فرمته الجن بالرمل حتى عمي ، أما « وافد البراجم » فيضرب به المثل في الشقاء والجبن ، ذلك أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند انصرف ذات ليلة من مجلس صفائه وهو ثَمِل . فرمى رجلاً من بني دارم بسهم فقتله فوثب عليه بنو دارم فقتلوه ، فغزاهم عمرو بن هند ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم أقسم ليحرقن منهم مائة فبذلك سمي محرقًا ، وأخذ منهم تسعة وتسعين رجلاً فقذفهم في النار ، وأراد أن يبر قسمه بمن تكمل به العدة فمرَّ رجل يقال له عمّار ، من بني مالك ، فتشمم رائحة اللحم . فظن أن الملك قد اتخذ طعامًا للأضياف ، فعرج إليه ، فأتي به ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أبيت اللعن ، أنا وافد البراجم . فقال عمرو : إن الشقي وافد البراجم ، فصار مثلاً للشقي يسعى

بقدمه إلى مـراق دمه ، ثم أمر به فقـذف به فى النار ليتحقق قسمـه . ويقال « حمق هبنقة » ، وهو يزيد بن ثـروان أو هبنقة ذو الوداعات ، من حُمْقه أنّه جعل فى عنقـه قِلادةً من وَدَع وعَظْم وخزفٍ وهو ذو لحيـة طويلة ، فسئل عنهـا فقال : لأعرف بها نفسى ، فبـات ذات ليلة وأخذ أخوه قـلادته فتقلدها فلما أصبـح هبنقة رأى القلادة فى عُنـق أخيه ، فقال له : يـا أخى ، إن كنت أنت أنا ، فمن أنا ؟

ويُقال أيضًا حديث خُـرافة ، وخرافة كان رجلاً من بنى عـذْرة ، استهوته الجنّ فلما خلت عنه رجع إلى قـومه ، وجعـل يحدثهم بـالأعاجيـب من أحـاديث الجنّ ، فكـانت العـرب إذا سمعت حديثًا لا أصل له ، قالت : حديث خرافة .

* * *

العـــــرب

ومما يضاف أو ينسـب قولهم « أغربة العـرب » ، وهم أربعة سود شجعـان عنترة العبسى ، وخفاف السلمـى ، كان شاعـرًا شجاعًا ، شهد مـع الرسول فتـح مكة ، ومنهم السليك بن السلكة ، وأيضًا عبد الله بن خازم السلمى وإلى خراسـان ، ومن عجيب أمره أنه كان فى غاية الشجاعة ، لكنه يخاف الفأر خوفًا شديدًا ، فبينما هو ذات يوم عند عبيد الله بن زياد إذ أدخل عليه جُرَذًا أبيض فتعجب منه ، فقال لعبد الله : يا أبا صالح هل رأيت أعجب من هذا ؟ وإذا بعبد الله يتضاءل كأنه فرخ ، فقال عبيد الله : أبـو صالح يقبض على الثعبان ، ويلقى الرماح والسيوف بيده ، وقد اعتراه من جُرَذ ما ترَوْن ! إن الله على كل شىء قدير ! .

ومما يضاف أو ينسب إلى الشعراء « حُلّة امرئ القيس » تضرب مثلاً للشىء الحسن يكون له أثر قبيح ، ذلـك أنه لجأ إلى قيصر الـروم يستعين بـه على قتلة أبيـه ، ويستنجده ، وبعـد أن ساعده أوقـع الوشاة به عند قيصر ، فأرسـل فى أثره بحلة مسمومة ، فلما لبسهـا تقرح جلده ، وتساقط لحمه ، يقول فى ذلك :

وبُـدِّلـتُ قُرْحًـا داميًـا بعـــد صحــةٍ ... وبُـدِّلتُ بالنُّعمـــاء والخيـرا بؤســـا

ومات بأنقره .

ومما يضاف إلى البلدان ، قـولهم « عزيز مصر » ، ذُكر فى القرآن الكريـم ، ويقال «اسقف نجران » وهـو قس بـن ساعـدة ، أحد حكماء العـرب وبلغائهـم ، ويُقال « سحـرة الهند » إذ يضرب المثل بهم لأن للهند السحر والرقى والتدخين والشطرنج وخرط التماثيل .

ومما ينسب إلى أهل الصناعات قولهم (كلب القصّاب) يُضرب مثلاً للفقير يجاور الغنى ،

فيرى من نعيم جاره ويبؤس نفسه ما ينغص عيشته ، والعامـة تقول : كلاب القصابين أسرع عمىً مـن غيرها بعشرين سنة لأنها لا تـزال ترى من اللحوم مـا لا تصل إليه . فكأن رؤيـة ما تشتهيه وتُمنع منه يورثها العمى .

* * *

ابـو .. وأم

يخصص الثعـالبى الفصل الثـامن عشر لما يضاف أو ينسـب إلى الآباء والأمهات الـذين لم يلدوا ، والأبناء الذين لم يولدوا ، يُقال مثـلاً ، (أبو يحيى) لقابض الأرواح ، كما يُقال للأسود (أبو البيضاء) ولـلأعمى (أبو البصير) . ويُقال (أبو بـراقش) لطائر منقش بـألوان النقوش يتلون فى اليـوم بعدة ألـوان ، ويُضرب به المثـل للمتلون ، أمـا (أبو مـالك) فيعنـى الجوع ، والعرب تسمى الخبز جـابرًا وعاصيًا وعامرًا ، ثم يورد الثعـالبى قائمة بالعديـد من الكنى التى يتداولها العرب ، فمنها :

الفـرس : أبو المضـاء ، والفيل : أبـو الحجـاج ، والأسد : أبـو الحارث والثعلب : أبـو الحصين ، والقـرْد : أبو ذَنّـة وأبو قيـس ، والفهد : أبـو الـوثاب . والأرنـب : أبو نبهـان ، والسّنّور : أبو خداش ، والديك : أبو اليقظـان ، والماء : أبو غياث ، والثريد : أبو رزين . والخَلّ : أبـو نافـع . والجبن أبـو مُسافر ، واللحم : أبـو الخصيب ، والتمـر : أبو عـون ، والحلوى : أبو ناجع والغناء : أبو شـائق ، والنوم : أبو راحة ، والشبع : أبو الأمن ، والحمام أبو نظيف .

ثم ينتقل الثعالبـى إلى الأمهات ، (أم الكتاب) هى فاتحة الكتاب لأنها المقـدمة التى تقرأ أمـام كـل سورة فى الصـلاة ، (أم القـرى) هـى مكـة ، إنها أم كل أرض (أم النجـوم) هـى المجرة، (أم المؤمنين) هى عائشـة رضى الله عنها . (أمّ دَفْر) كنية الدنيـا ، كما يقال لها أيضًا (أم خِنَّوْر) ، ولما قال عبد الملك بن مروان :

وقد تمكنّـا من أمّ خِنّـور ـ يعنـى الدنيا ـــ ونعمتها وغضـارتها ، لم يعش بعـد قولـه هذا إلا أسبوعًـا ، (أم عامر) هـى الضبع ، (أم عـوف) هى الجرادة (أم طلحة) هـى القملة . (أم قشعم) هى المنيـة والحرب والداهية الكبيرة ، ويقال للحرب أيضًـا (أم قسطل) و(أم شملة) هى الشمس .

وعـن البنين يقول الثعـالبـى ، (ابـن الليالى يعنـى القمـر ، والعـرب تقول لمن يعيـش فى الصحارى (ابـن الليل) ومـازال الناس فى صعيـد مصر يطلقون نفس الكنية على المجرمين والخارجين عن المجتمـع ، وهناك فيلـم سينمائى مشهور يحمل الاسـم . ويُقال (ابـن ذكاء)

يعني الصبح ، و (ابن الغمام) أى البَرَد ، ويُقال (ابن الغِمد) للسيف ، وذلك لطول ملازمته إيّاه ، أما النهار فيقال له (ابن الدهر) أما (بنو الأيام ، هم أهل العصر ، و (بنو الدنيا) هم الناس .

وعن البنات يقول الثعالبى إن (ابنة الجبل) تعنى الصدى الذى يجيب المتكلم بين الجبال ، و (بنت الفِكْر) هى الرأى والشعر . وابنة الكَرْم هى الخمر ، أما بنات الليل فهى الأحلام .

* * *

من الأذواء إلى .. أصابع زينب ..

أما ما يضاف إلى الأذواءِ والذوات فكثير . من ذلك (ذو الأوتاد) وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم . و (ذو القرنين) ويُقال إنه الإسكندر الأكبر ، و (ذو النُّورَيْن) وهو عثمان بن عفان رضى الله عنه ، سمى بذلك لأن الرسول الكريم زوّجه ابنته رقية ، فكانا أحسن زوجين فى الإسلام ، ولما تُوفيت زوجه عليه السلام أم كلثوم ، ولما توفيت قال : لو كانت لنا ثالثة لزوّجناكها ، فهو ذو النُّورَين لهذه القصة . ويقال (ذو الرياستين) وهو الفضل بن سهل ، سماه الخليفة المأمون بذلك لأنه دبر أمر السيف والقلم ، وولى رياسة الجيوش والدواوين . و(ذات النطاقين) أمرها معروف وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق ، أما (ذات الخمار) فهى هُنيدة بنت صعصعة عمة الفرزدق ، وكانت هناك شجرة اسمها (ذات الأنواط) كانت قريش ومن سواهم من الكفّار من العرب يأتونها كل سنة فيعلّقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويقومون عندها يومًا .

أما النساء المضافات ، المنسوبات فمنهن (زرقاء اليمامة) ويضرب بها المثل فى دقة البصر وحدة النظر ، كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام ، وقد أخبرت قومها برؤيتها لأشجار تتحرك فلم يصدقوها ، ولم تكن الأشجار إلا جيشًا معاديًا تخفى بالأشجار ، تمكن من مباغتة قومها ، وأسروها وشقوا عينيها ، ويُقال (خضراء الدِّمنَ) وتلك من جوامع كَلِم الرسول صلى الله عليه وسلم ، القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى التى لم تسبقه العرب إليها . ولما قال : إياكم وخضراء الدِّمن ، قيل « يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت السوء .

أما ما يُضاف إلى النساء فمنه (كيد النساء) و (نخلة مريم) قيل فى القرآن الكريم ، «وُهزّى إليك بجذع النخلة تُسَاقِطْ عليك رطبًا جنيًا » ، و (عرش بلقيس) و (شؤم البسوس) هى بنت منقذ التميمية . زادت أختها أم جساس بن مرّة ومع البسوس جارٌ لها من جَرْم يقال

له سعد بن شمس ومعه ناقة ، فرماها كُليب وائل ، فأقبلت على صاحبها وضرعها ينزف دمًا ، فانطلق إلى البسوس فأخبرها بالقصة ، فقالت ، واذلاّه ، واغربتاه ، وسمعها ابن أختها جساس فركب ومضى إلى كليب حيث طعنه طعنة أثقلته فمات منها ، وهكذا بدأت الحرب بين بكر وتغلب فدامت أربعين سنة ، ويُقال (مرآة الغريبة) لأن المرأة الغريبة تتعهد مرآتها من الجلاء بمالا يتعهد غيرها ، وتتفقد دائمًا محاسن وجهها ، لذلك ضُرِب بها المثل ، فيُقال أنقى من مرآة الغريبة ، ويذكر الثعالبى (أصابع زينب) ويقول إنه ضرب من الحلوى ببغداد يُدعى أصابع زينب ، وما يزال هذا النوع من الحلوى موجودًا فى مصر والشام وبنفس الاسم .

* * *

من الرأس إلى .. الكلية

ومما يُنسب إلى الأعضاء عند العرب بكثرة (الرأس) ، فتقول : رأس المال ، ورأس الليل ، ورأس الجبل ، ورأس الزمان ، ورأس القوم ، ورأس الجريدة ، ورأس الأمر ، ورأس العقل ، ورأس الدين ، وهكذا . . ويخصص الثعالبى فصلاً كاملاً لما يضاف أو يُنسب إلى الإبل ، فيُقال مثلاً (حنين الإبل) تقول العرب ما أفعل ذلك ما حنَّت الإبل وما أطّت الإبل ، وتقول (ركبتا البعير) فى الشيء المتساوى بغيره . وتقول (ضبط عشواء) لمن يصيب مرة ويخطئ مرة ، والعشواء هى الناقة التى لا تُبصر ليلاً ، قال زُهير :

رأيت المنايا خبط عشواءَ من تُصِبْ ... تُمِتْه ومن تُخطئ يُعمَّرْ فيهرمِ

فى الفصل الذى يخصصه للحمير ، تستوقفنا ملاحظة خاصة بالمؤلف ، ربما لم ترد فى أى من كتبه الأخرى ، إذ يقول فى الفقرة المعنونة (خاصى العير) ويضرب مثلاً لمن يرجع خائبا من مهمته ، يقول الثعالبى .

« وقد ضرب أبو خراش مثلاً فى شعر له لست أستحضره » يفلت الثعالبى هنا من صرامة البحث ، ويعترف للقارئ أنه لا يذكر الشعر الذى أراد أن يستشهد به .

وفى الفصل المخصص للأسد ، يذكر الثعالبى عشر خصال مستعارة من الحيوان يجب أن تتسم بها القيادة ، فمن ذلك : جُرأة الأسد ، وخَتْل الذئب ، وروغان الثعلب ، وحملة الخنزير ، وصبر الكلب على الجراحة ، وتحنن الدجاجة وسخاء الديك وحذر الغراب وحراسة الكُركى وهداية الحمام . ويُقال للذئب (نوم الذئب) ذلك أنه يغمض إحدى عينيه ويفتح الأخرى أثناء نومه قال الشاعر يصفه :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى ... بأخرى المنايا فهو يقظان هاجعُ

وتقول العـرب (كلبة حَوْمل) يضرب بها المثل فيقال : أجوع مـن كلبة حومل ، وحـومل امرأة كانت تربـى كلبة للحراسة ، وتجيعها وتطردها بالنهار ، فرأت ليلـةً القمر طالعًا فنبحت عليه تظنه رغيفًا لاستدارته ، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها من شدة الجوع .

* * *

فـي الطيـــور

يُقـال (عِتَـاق الطير) أى أحـرارهـا ، وهى تصيـد ولا تُصـاد ، مثـل العقبـان والبـزْاة ، والصقور، والشـواهين ، ويُقال أيضًـا (عتاق الخيـل) هى التـى لا يمكن إدراكهـا . ولكنها تُدرك إذا طلبـت وكثيرًا ما يتردد (عنقـاء مُغْرب) ، ويضرب مثلاً للشـىء الذى يُسْمـع به ولا يُرى . وإذا أرادت العرب الأخبار عـن هلاك شيء وبُطلانه قالـت : حلّقتْ به فى الجوّ عَنْقاء مغرِب . أما (طير النار) فالمقصود به طائر السمندل ، وهو يدخل النار فيعود شابًا ، ويُقال (غُراب البين) كان القـوم يتشاءمون منه ، ومـن اسمه اشتقت الغربـة ، ويُضرب المثل بحمام الحرم مثالا على الأمـن والصيانة ، كما يُقـال (طوق الحمامـة) مثالاً لما يلزم ومـا لا يبرح ويقيم ويستديم ، ويُقال (كمـد الحبارى) يضرب مثلاً لمن يموت كمداً ، فيقال ، مـات فلان كمد الحبارى ، ذلك أن الحبارى إذا تحسرت فترت همتها ، وألقت ريشها كله مرة واحدة ، حتى إذا رأت صويحبـاتها يطرن ولا نهوض لها فربما ماتـت كمدا . ويضرب المثـل (ببيضة الـديك) ، للشيء النادر يحدث مرة واحدة ولا يتكرر ، إذ يُقال إن الديك يبيض مرة واحدة فى حياته . .

* * *

الأرض .. الـدور .. البـلدان

تقول العرب (سمـعُ الأرض وبصرها) ، عندما يلتقى اثنان ولا ثـالـث لهما إلا طول الأرض وعرضها ، وتقول أيضًا (أمانة الأرض) و (كتمان الأرض) لأنها تحفظ ما يودع فيها .

ويضرب المثل بدار أبى سفيان فى الأمن ، ذلك أن الـرسول الكريم لما فتح مكة ودخل دار أبى سفيان قال « من دخل دار أبى سفيان فهـو آمن » . أما قصر غمدان ، فأحد أبنية العرب المتينة ، الشهيرة ، كان بصنعـاء ، تسكنه ملوك حِمْير ، ثم تنقلت به أحـوال أدت إلى خرابه ، وما يزال موضعه معروفًا فى صنعاء حتى يـومنا هذا . ومما ضرب به المثل أيضًا (أهرام مصر) فى الثبات والقـدم والحصانة وكان عبـد الله بن عمرو بن العـاص يقول : عجائب الدنيـا أربع ، منارة الإسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق ، وقنطرة سنجـة .

وضرب المثل بخراج مصر فى الكثرة ، وكتان مصر ، وقطن خراسان ، وتفاح الشام ، قال الشاعر .

تفـاحـة شـامية	مـن كـف ظـبى غـزلِ
ما خُلِقت مـذ خلـقت	لغـيـر تـلك القُبـلِ
كأنمـا حُمـرتها	حـمـرة خـدٍ خجـلِ

ويقال أيضًا (زجاج الشام) يضرب به المثل فى الدقة ، و (زيت الشام) للجودة والنظافة ، ويقال (عود الهند) مثلاً على طيب الرائحة ، و (سيوف الهند) للجودة . و(سيوف اليمن) لحدتها ، و (ثياب الروم) لحسنها ، و (سكر الأهواز) لجودته ، و(ورد جُور) لطيبه ، و (سجاد أرمينية) لفخامته ، و(طرائف الصين) لندرتها . و(مسك التبت) لجودته .

كما يُضرب المثل بطرب الزنج ، وهم محبون للغناء والرقص ، ويُقال (حمى الأهواز) لشدة فتكها . و (هواء جوجان) لنقاوته وسرعة تغيره ، و (برد همذان) لوعورته .

* * *

هكذا . . يمضى الثعالبى ليذكر لنا ما يضاف وينسب إلى النار ، والماء ، والشجر ، واللباس والثياب ، والطعام والشراب ، والسلاح ، والحُلىّ ، والليالى ، والأزمان والأوقات ، والأدب وما يتعلق به ، ثم يخصص الباب الستين للأقوال التى يستشهدون بها ، مثل (عرق الموت) ويضرب مثلاً لأشد الشدة و (غضب العاشق) ويشبه سحابة صيف لأنه لا يدوم ، و (للذة الخلسة) وهو ما يُمتع أكثر ، ويُقال (ينبوع الأحزان) ، أنشد عُبيد الله ابن طاهر :

ألم تَـرَ أنَّ الـدهـرَ يهدمِ مـا بنـى	ويأخذ ما أعطى ويُفسد ما أسدَى
فمـن سرَّه ألا يـرى مـا يسـوءُه	فـلا يتخـذ شيئًـا يخاف لـه فقـدًا

ويصل الثعالبى بنا إلى خاتمة الأبواب ، ويخصصه للجنان كأن يُقال (جنة الدنيا) ويقول إن المقصود بها الشام ، ولما أُخرج هرقل عن بلاد الشام وفر هاربًا إلى بلاد الروم بكى وغُشى عليه ، فلما أفاق قال : السلام عليك يا سوريا يا جنة الدنيا ، سلام غير ملاقٍ . ويُقال (باب الجنة) و (روضة الجنة) و (كنوز الجنة) ، كان يُقال : أربعة من كنوز الجنة : كتمان المصيبة وكتمان المرض ، وكتمان الفاقة ، وكتمان الصدقة .

هكذا يختتم أبو منصور الثعالبى النيسابورى كتابه الفريد ، والذى حفظ لنا فيه ما كان يمكن أن يتبدد نثارًا فلا تدركه الأفئدة ، وبصَّرنا ببعض ما يشيع على ألسنتنا حتى الآن ، ونحن نجهل أصله . غفر الله له ورحمه .

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس

تأليف : أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي
هـذبه : محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)
حققه : الدكتور إحسان عباس

يُروى أن أحمد بن يوسف التيفاشي ، كان يتمتع بروح علمية دقيقة . محبًا للتجربة . . وتحمل المشاق فى سبيل المعاينة الذاتية ، وأثناء إعداده لكتابه الشهير عن الأحجار الكريمة «أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » . سمع عن أن الزمرد الذبابى إذا عرض للحيات انفقأت عيونها ، وكان عنده فص زمرد ذبابى خالص فاستأجر حواء ليصيد له أفعى ، ففعل ، وجعلها فى طشت ، ثم قرب الفص من عينيها ، فما لبث أن سمع فرقعة خفيفة ، ثم برزت عيناها بروزًا ظاهرًا ، وبقيت الحية حائرة فى الطشت لا تدرى أين تتوجه .

كان التيفاشى عالمًا ، أديبًا ، ذا معرفة موسوعية فى عصره ـ القرنين السادس والسابع الهجريين ـ كان متنوع الثقافة ، طبيبًا بين الأطباء ، فلكيًا بين الفلكيين موسيقارًا بين الموسيقيين ، كما كان شاعرًا وناثرًا ، كثير الترحال فى طلب العلم ، يطالع ، يسمع ، يدون مشاهداته . من هنا تنوعت تنوعا مؤلفاته كبيرًا ، نذكر بعضها تفسير التيفاشى للقرآن الكريم، لم يصلنا للأسف ، ذكره القلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى ، وقال إنه يغلب عليه الطابع القصصى وكتاب « مشكاة أنوار الخلفاءوعيون أخبار الظرفاء » وكتاب «سجع الهديل فى أخبار النيل » وكتاب « المنقذ من التهلكة فى دفع مضار السمائم المهلكة» وكتاب «العدة الفائقة فى محاسن الأفارقة » ، كما وضع عدة مؤلفات فى الجنس ، ومن أغرب الكتب التى نسبت إليه . « نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب » ويصور الحياة الخفية من المجتمع ، حيث جمع المؤلف ورصد نماذج عديدة من الحياة السرية للمجتمعات فى تونس ومصر ودمشق وبغداد ، ومن الكتب التى وصلتنا «فصل الخطاب» . وكان يقع فى حوالى عشرة مجلدات ، وجاء محمد بن منظور ليختصره ويرتب أبوابه ، وسماه « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» . وهذا وصل إلى عصرنا ، وأخرجه الدكتور إحسان عباس من مجاهل المخطوطات

المنسية ، وحققه تحقيقًا علميًا رائعًا . وقدم له ، وأصدره منذ سنوات فى بيروت . . وهذا ما نتوقف عنده .

* * *

فصل الخطاب

العنوان الأصلى لموسوعة التيفاشي « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » وطبقًا لماورد فى المصادر القديمة فيبدو أن الكتاب كان يقع فى أربعين جزءًا ، لا يقل الواحد عن مائتى صفحة ، يتناول مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والسماء والكواكب ، والعالم الحيوانى بما فيه من أصناف المخلوقات ، وعالم الأحجار والمعادن ، والطب ، والموسيقى ، وتاريخ الأمم .

من هذه الموسوعة الضخمة وصلنا جزء سماه المؤلف « نثار الأزهار فى الليل والنهار » وجزء آخر عنوانه « طل الأسحار على الجلنار فى الهواء والنار » أما البقية فلم تصلنا ، ربما ضاعت إلى الأبد ، وربما ما تزال فى مكتبة ما ، أو فى زاوية بعيدة فى الصحراء ، أو فى مكتبة مسجد عتيق . . ربما .

ما تبقى من الكتاب الذى اختصره ابن منظور إذن يحوى مادة علمية وأدبية فريدة ، يقول الدكتور إحسان عباس :

« لست أغالى فى ما لسرور النفس من قيمة ، فهو صورة لاجتماع ثقافتين ، الثقافة العربية الإسلامية والثقافة المستمدة من اليونان ، وهو كذلك صورة للقاء على المستوى الأدبى بين المشرق العربى والمغرب العربى ، كان أمثال التيفاشي وابن سعيد وابن دحية الكلبى وغيرهم من المغاربة المهاجرين يمثلون حلقة وصل بين المشرق والمغرب فيؤلفون للمشارقة وللمغاربة على السواء .

ولنلج عالم الكتاب .

* * *

الليل والنهار

يقول ابن منظور الذى اختصر الكتاب فى مقدمة قصيرة ، جميلة ، دقيقة النثر ، إنه بذل جهدًا كبيرًا فى العثور على نسخة من الكتاب حتى نجح بالفعل فى الحصول عليها :

« ورأيته قد جمع فيها أشياء لم يقصد بها سوى تكثير حجم الكتاب ، ولم يراع فيه التكرار ، ولا ما تمجه أسماع ذوى الألباب فاستخرت الله فى تعليق ما يختار منه ، ورغبت فى إبرازه إلى

الوجـود ، فإنه مادام بخطـه لا يفهم أحد شيئًا عنـه ، فأخذت دُبَده ورميـت زَبَده . وأوردت تكرره تركت مكرره . .

ثم يختتم مقدمته بتلك الجملة الجميلة .

« وإلى الله الرغبة فى الصفح عن مصنفه وعنى ، والعفو عما ابتناه بقلمينا ، فإن العفو غاية التمنى » . .

* * *

الليل والنهار هما موضوع الباب الأول . منهج المؤلف أن يـذكر الآيات القرآنية التى ذكرت الموضوع الـذى يتناوله ، والأحاديـث النبوية ، ثـم أقوال المحدثين وقصائد الشعـراء ، السؤال الأول الذى يواجهنا ، لماذا سُمى النهار نهارًا ، والليـل ليلاً ؟ . سُمى النهار نهارًا لظهور ضوء الفجر يجرى كالنهـر من المشرق إلى المغرب معترضًا حتـى يأتى على الظلام ، وسُمـى الليل ليلاً لأنه يلالى بالأشخاصِ حتى يتشكك الناظرُ فى الشىء ، فيقول : هوهو. ثم يقول لا ، لا فقد لا لا بها ، والنهار ضد الليل ولا يجمع كما لا يجمع العذاب والسراب ، فان جمع قُلْت فى قليله أنهر .

أمـا السؤال الثـانـى ، أيهما أسبـق ، الليل أو النهـار ؟ . بعـد استعـراض آراء الفلاسفـة والمتكلمين . يقول المؤلف إن مـذاهب العرب متفقة على تقديم الليـل على النهار ، وعلى هذا يؤرخـون ، فيقولون ، لخمـس بقين ولست بقين من الشهـر ، والعلة فى ذلك أن الشهـر تعلم بدايته بالهلال ، فيكون أوله على ذلك الليل .

يقول الرسول الكريـم « الليل والنهار مطيتان يقربان كل بعيد ويـأتيان بكل موعود » ، وفى كليلة ودمنة تمثل أيام العمر بغصنين نابتين على فسم بئر وإنسان قائم عليهما ، والليـل والنهار كجرذين أبيض وأسود مُجدّين فى قطع الغصنين وهولاءِ عنهما :

ومن أجمل الأشعار التى يوردها المؤلف فى وصف الليل والنهار ما قاله ابن الدمينة .

أقضّى نهارى بـالحديثِ وبـالمنى ... ويجمعنـى والهمّ بـالليلِ جـامـعُ

وقول النابغة الذبيانى فى طول الليل :

كلينـى لهم يـا أميمـة نـاصـبِ ... وليـلٍ أقاسيـه بطـىء الكواكـبِ

تقاعس حتى قلت ليس بمنجلٍ ... وليس الذى يرعـى النجوم بآيـبِ

أما الأصل فى وصف الليل بالطول ، فهو بيت الحارث بن خالد وهو :

تعـالوا أعينـونـى على الليلِ إنـه ... على كـل عينٍ لا تنـامُ طـويـلُ

الهـلال .. والقـمـر

من الليـل إلى النهار ، من الغبوق إلى الاصطبـاح ، يتنقل المؤلف بين الشعر والنثر ، يورد الحكايات ، وما قالـه أهل المغرب ، وما جادت به قريحة أهل المغـرب . حتى يصل إلى الباب الرابع الذى يخصصه للهلال وأطواره .

فى اللغة يقال ، أهللنا بشهر كذا ، ويقال لأول ليلة : النحيرة ، وغرة الشهر أول ليلة منه ، لأن الهلال يظهر فيها كالغرة فى وجه الفرس .

وللقمر من أول طلـوعه إلى اختفائه أسماء ، فمنها : الهلال . الطالـع ، الرمد ، النمير ، الزبرقان ، الباهر ، الزمهرير ، الفاسق ، ذريق ، البدر ، عفراء ، الساهور ، السهر .

والعرب تسمى الشمس والقمر القمرين ، فيغلبون القمر ـ والشمس أفضل منه ـ لعلتين : إحدهما التـذكير والأخرى أنهم أنسوا بالقمر لأنهم يجلسـون فيه للسمـر . ويهديهم السبل فى سرى الليل فى السفر ويزيل عنهم وحشة الغاسق . وينم على المؤذى والطارق .

قيل لأعرابى : الشمـس أحسن أم القمر ؟ قال : القمر أحسن والشمـس أجهر . قيل ، وكيف صار القمر أحسـن ، قال : لأن العيون عليه أجسر ، وتقول العرب : سـافروا فى يمنة الليالى فإن أنس القمر يذهب وحشة السفر .

والعرب تسمى كل ثـلاث ليال من الشهر باسم ، فيقولون : ثـلاث غرر ، وثلاث نفل ، وثلاث تسع ، وثـلاث عشر ، وثلاث بيض ، وثلاث درع وثلاث ظلـم ، وثلاث حنادس ، وثلاث دآدى ، وثلاث محاق . ومن أوصاف الشعراء ، ما قاله الدأواء الدمشقى :

ولربَّ ليـلٍ فيك ضـلَّ صباحُـهُ	فكـأنما هــو حيرة المتفكّــر
والبــدرُ أولَ مـا بـــدا متلثمًا	يبدى الضياء لنـا بخدٍّ مسفر
فكـأنما هـو خـوذةٌ مـن فضَّـةٍ	قـد ركِّبـت فى هامـةٍ من عنبر

والعرب تقول فى ذم الهلال : لا مرحبًا بمحجين ، مُحِلّ الـدَّيْنِ ، ومُعذِّب الحين ، قالوا وفى القمر عيـوب عدة ، لونـه لون الأبرص ، ووجهـه وجه المجـذوم ، يحل الدين ، ويعجـل كراء السكن ، وينهك الأبدان ، ويُخلقُ الكتان وينمُّ على العاشق ، ويفضح السارق .

* * *

الفجـــــر

أما الفجر فاسمه مأخوذ من انفجار الماء ، لأنه ينفجر كالماء شيئًا بعد شيء ، ويليه السحر ، أما السدفة فظلمة يخالطها ضوء يكون من أول الليل ومن آخره يذهب إلى بقايا الشفق ، لأن الشفق فى أول الليل كالفجر فى آخره .

ومن دقيق الشعر ، ما قاله الأمير تميم بن المعز .

شربنا على نوْحِ المطوقةِ الورق ... وأوديةِ الروضِ المفوَّفةِ البُلْقِ
معتقةً أفنى الزمانُ وجُودَهَا ... فجاءت كَفَوْتِ اللحظ أو رقَّة العشق
كأن السحابَ الغُرَّ أصبحنَ كؤسًا ... لنا وكأنَّ الراح فيها سنا البرق
فبتنا نحث الكأس فينا وإننا ... لنشربها بالحث صرفًا ونستسقى
إلى أن رأيت النجم وهو مغرِّبٌ ... وأقبل رايات الصباح من الشرق
كأن سواء الليلِ والفجر طالعٌ ... بقيةُ لَطْخِ الكحل فى الأعين الزرق

ومن الأصوات التى تتردد مع قرب شروق الشمس ، صياح الديك . وهديل الحمام ، وللديوك والحمام يفرد المؤلف فصلاً طويلاً ، كذلك للشمس وحركتها النهارية عبر السماء ، حتى يصل إلى الليل مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة يتحدث عن الكواكب ، وللكواكب فى الزمن القديم شأن عظيم .

* * *

النجــــــوم

« الثريا » من أشهر نجوم السماء عند العرب ، يعظمونها ، ويكثر ذكرها فى شعرهم ، وإذا طلعت فى السماء شتاءً اشتد البرد . قال شاعر :

خليلى إنى للثريا لحاسدُ ... وإنى على ريب الزمان لواجدُ
أيجمع منها شَمْلُها وهى سبعةٌ ... وأفقد من أحببته وهو واحد

أما نجم الجوزاء فمن أحسن ما قيل فيه شعر أبى بكر الخالدى :

وتمايلُ الجوزاءِ يحكى فى الدُجى ... ميلان شاربِ قهوة لم تُمْزَجِ
وتنقبتْ بخفيف غيم أبيض ... هى فيه بين تخفرٍ وتبرج
كتنفس الحسناء فى المرآة إذ ... كملت محاسنها ولم تتزوّج

وهكذا يتنقل المؤلف بين نجوم السماء ، الشعرى ، وسهيل ، والنسر والفرقدان ، وبنات نعش ، ثم . . نهر المجرة ، ثم ينتقل إلى الكواكب السيارة ، ومنها زحل والمشترى . والمريخ ،

وعطارد ، والزهرة ، وفى الباب الثامن يذكر آراء المنجمين والفلاسفة القدماء فى الفلك والبروج والكواكب ، وعلاقة الكواكب بعناصر العالم ، مثلاً ، علاقة الكواكب بالأمكنة :

زحـــل : له الجبال اليابسة التى لا تنبت .

المشترى : له الأرضون السهلة .

المريـــخ : له الأرضون الخشنة .

الشمس : لها الجبال ذوات المعادن

الزهـرة : لها الأرضون الكبيرة والأنهار والمياه .

عطـارد : له الرمال .

القمـــر : له كل قاع وأرض مستوية .

وهـذا الجزء يعد مـوسوعـة علمية مصغـرة لعلـم الفلك ، وهكـذا ينتهى الجزء الأول مـن الكتاب .

* * *

طـــل الأسحـــار

عنوان الجزء الثانى « طل الأسحار على الجلنار فى الهواء والنار ، وجميع ما يحدث بين السماء والأرض من الآثـار » ويعتبر امتدادًا للجـزء الأول ، إلا أن موضـوعاتـه يغلـب عليهـا الطابـع العلمى أكثر ، ينقسم هذا الجزء إلى عشرة أبواب ، الأول مخصـص للفصول الأربعة ، ومما قيل فى الربيع ، أبيات ابن الرومى :

ونـرجـسٍ كـالثغـورِ مبتسـم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لـه دمـوعُ المحـدّقِ الشـاكـى
أبكـاه قَطْـرُ النـدى وأضحكَـهُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فهـو مـن القَطْـرِ ضاحـكٌ بـاكـى

ومما يـذكره المؤلف عـن الصيف أصنـاف المراوح ، فمنها مراوح الخوص ، ومـراوح الأديم ومراوح الخيش ، أمـا الخريف فقـد سُمى خـريفًا لأنّ الثمار تُخرّفُ فيـه أى تجنى وتقطـع ومنه اشتق الخَرَفُ للشيخ ، وهوذهاب العقل ، ومما قيل فى الخريف ، ما أنشده ابن المعتز:

هـــات كـأس المدامِ فى أيلـــولِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بَـرَدَ الظـلُّ فى الضحـى والمقيـلُ
وخَبَـــتْ جَمْرَةُ الهواجـــرِ عنّـــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ واسترحنـا مـن النهـارِ الطـويـلِ
وخـرجنـا مـن السمـوم إلى دو ـ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ح شمالٍ وطيـبِ ظـلّ ظليـل
ونسيـم يبشر الأرض بـالقطـ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ـر كـذيـل الغـلالـة المبلـول
وكـأنـا نـزداد قـربًـا مـن الجنـ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ـة فى كـل شـارقٍ وأصيـل
ووجـوه البـلاد تنتظـر الغيـ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ـث انتظارَ المحبِّ رَجع الرسول

ويمدح أبوهلال العسكرى الشتاء فيقول :

لستُ أنسى منه دمائة دَجْنٍ ثمَّ من بعده نضارة صَحْوِ
وجنوبِيّا تبشرُ الأرض بالقطر كما بُشِّر العليلُ ببرد

وقال الأصمعى إن العرب كانت تسمى الشتاء « الفاضح » ، وقيل لأعرابى وقد هجم البرد : ما أعددت لهذا الفصل الضارب بجرانه ؟ قال « أعددت له عُرْى المتنين . وحفاء القدمين ، وقلقلة الفكين . ودمع العينين ، وسيلان المنخرين ، مع شدة الرعدة ، وقرفصاء القعدة وذرب المعدة وكسوف البال ، وفرط البلبال ، وقلة المال ، وكثرة العيال وقيل لأعرابى ، ما أشدُّ البرد ؟ قال : إذا أصبحت الأرض ندية والسماء نقية . والريح شآمية .

ورُئى أعرابى يرتعد يوم قر فقيل له : تحول إلى الشمس . فقال : الشمسُ اليوم تحتاج إلى قطيفة .

* * *

البرق وحنين العرب به إلى أوطانهم ، والغيم ، وقوس قزح ، والمطر وآراء الفلاسفة فى الثلج والمطر والبرد والجليد ، كل هذه الظواهر يتوقف أمامها المؤلف طويلاً ، ويذكر ما يختص بها فى النصوص الدينية ، والأدبية ، والعلمية ، طبقًا لمنهج الكتاب ، كذلك يفرد الباب السابع للرياح أنواعها ، ومواعيد هبوبها ، وأسمائها ، وما قيل فى كل منها شعرًا ونثرًا ، أما الباب الثامن فيتناول فيه النار ، ونار النفط ، والصاعقة ونار الفحم والكوانين .

قال العلماء : ليس فى العالم جسم صِرفٌ غيرُ ممزوج ، ومرسَلٌ غيرُ مركّبٍ ، ومطَلَقُ القوى غير محبوسٍ ، أحسن من النار ، ويقال شرابٌ كأنه النار ، وامرأةٌ حسناءُ كأنّ لونَ وجهها لونُ النار ، وقالت أعرابية : هذا والله وأنا أحسنُ من النار ، ويقال لمن يُوصفُ بالذكاء : ما هُوَ إلا نارٌ موقدة .

قال بعض الحكماء ، النيران أربعة نارٌ تأكل وتشربُ وهى نارُ المعدةِ ، ونارٌ تأكلُ ولا تشربُ وهى النار الموقدة ، ونارٌ تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر ، ونارٌ لا تأكل ولا تشرب وهى نار الحجر ، يتوقف المؤلف طويلاً أمام ألوان النيران وارتباطها بمصادرها وأنواع الدخان ، وألوانه ، ثم ينتقل إلى أوصاف الشموع والفوانيس والقناديل والثريات والسراج ، وبمناسبة السراج يروى المؤلف حكاية لقاء البنى باليكى يقول :

« كان أبو جعفر أحمد بن البنّى ، معاصرًا لليكى ، وكلاهما علم فى زمانه فى الأدب ، وكان كل منهما يتمنى لقاء صاحبه ، فرحل كُلٌّ منهما للقاء صاحبه ، فاتفق أنْ وصل البنى فى ليلة مطيرة ذات برد وريح إلى الجزيرة الخضراء بعدوةِ الأندلس ، وقد أمسى ، فقصد خانا وقد

أغلق الخانى بابه ، فقرع الباب فلم يُفتح له ، ولم يكن قدومه متوقعًا فى ذلك الوقت على تلك الحال من المطرو الظلام . وألحّ فى طلب البيات ، وسأله التجار أن يفتح له ففتح له ، فدخل فلم يجد موضعًا سوى بيت لا عهد له بساكن مدة طويلة ، فكنس له فيه موضعًا وأغلق بابه عليه ونام ، ثم دُقّ البابُ على الخانى ، وإذا بآخر فى مثل حاله قد قذف به الليلُ والسيل إلى الخان ، فضجَّ الخانى ، وأقسم ألا يفتح ، وضجَّ الواردُ من السيل والمطر وألحّ ورحمه التجار ورغبوا إليه أن يفتح له ، فدخل ، فأرشده إلى البيت الذى فيه الوارد الأول ، فدخل عليه وسلّم وهما فى الظلام ، فقام له الأول وآثره بموضعه الذى كنسه لنفسه ، وهيأ له غيره ، ، فعندما أخذا مضجعيهما اجتاز بهما الخانى والسراج فى يده يطوف به زوايا الخان فدخل عليهما ضوء السراج ، فتحركت القوة الشعرية للبنى فقال بديهة :

ومصباح كأن النور فيه   محيّا من أحِبُّ وقد تجلّى

فبادر الآخر وقال مجيزًا له :

أشار إلى الدجى بلسان أفعى   فشمر ذيله جزعًا وولّى

فنهض البنى وقال : تكون اليكّى ؟ . فتبسم اليكّى وقال : تكون البنى؟ وتعانقا وتعارفا ، وعرفهما التجار ، فلم يصبحا إلا على حالة رفاهية من المال والقماش مما جعل لهما التجار ، وسمع بهما والى المدينة ، فأوسع لهما وأحسن إليهما ، وأقاما مدة مجتمعين وافترقا على أحسن حال .

* * *

هذا ما وصلنا من الملخص الذى قام به ابن منظور لموسوعة التيفاشى ، مجرد جزأين صغيرين لكنهما عامران بالأدب ، بالنثر ، بالشعر ، بالمعارف القديمة ، تُرى فى أى مجاهل ترقد المجلدات العشرة التى تكوّن مختصر ابن منظور . أم أنها اندثرت إلى الأبد ؟

مـقـامـات يمنيـة

يومًا بعد يوم ، يـزداد إيماني ويقيني بخصوصية القص العربي بتفـرد أشكال الحكْي ، وما وما موقعنا الآن من هذا التراث الخصب إلاكـواقف على شاطئٍ بحر ممتد ، مجهول ، لم يُكتشف بعد . لم ندرك بعد كُل دُره ونفائسه .

أقول هذا بعد طول ممـارسة ، وطول اطلاع وسبر مجاهل طال انقطاعنا عنهـا ، منذ أسابيع لزمـت كتابًا جـديدًا ، نفيسًـا ، صدر منذ عـامين في صنعاء اليمن ، واستغـرق هذه المسـافة الزمنية الممتدة حتى وصل إلى القاهرة بشكـل استثنائي خلال معرض القاهرة السنوي ، وسُقيا لأيام خـوالٍ بعيدة جـدًا ، لم تكن فيها طـائرات ، ولا وسائل نقـل الكترونية ، كـان المخطوط ينسخ في الأزهر أو الـزيتونة ، أو القرويين ، أو دمشق ، أو بسوق الـوراقين في بغداد ، فيصل أطراف العالم العربي أو الإسلامي بعد أوقات جد قصار ، الأوقات التي تستلزمها حركة الجمال والقوافل لا غير ، لم تكن هنـاك رقابة ، أومعاملة للكتاب على أساس أمنـي ، هكذا وصل بنا الحال في عصر التقـدم ، لكن هـذا مـوضوع آخـر ، التفصيـل فيـه يطول ، والخوض فيـه ذو محاذير، فلنرجئه . . لعل وعسى، ولنتوقف لحيظات عند هذا الكتاب .

* * *

« مجموع المقامـات اليمنية » ، جمع وتحقيق ، عبد الله محمد الحبشي ، يضـم ثمانيا وثلاثين مقامة فـريدة ، تختلف تمامًا عـن مقامات بديع الـزمان الهمذاني والحريـري والزمخشري ، وما وصلنا من مقامات أندلسية ، اختلاف لا يقتصر على الشكل فقط ، ولكن في المضمون أيضًـا ، واليمن بلد غني ، ثـري بالتراث ، منه جاء كتاب « التيجان » لعبيـد بن رية الجرهمي ، الذي أعتبره عملاً فنيًا ، روائيًـا ، شديد الخصوصية ، ومـا يزال التراث القديم حيًـا يُروى في القرى التي تقـف عند الحد الفاصـل بين القمة والهوة ، بين المادة والفراغ ، أو على سفـوح الجبال ، راقد في بطـون المخطوطـات القابعة في خـزانة الجامع الكبير بصنعـاء ، أوهذا المسجـد العتيق المدثر بالـزمن في بلدة « مُشلا » ، والذي ما زال لـون الضوء في فراغه الرخيـم يتراءى أمامي ،

سواء وليت شرقًا أو غربًا ، أولزمت مكانى ، كل ما أرجوه أن تتواصل جهود جمع التراث اليمنى التى يقودها واحد من خيرة المثقفين العرب ، الدكتور عبد العزيز المقالح ، قبل أن تطمر بوسائل التحديث ، التليفزيون ، السينما ، وما شابه !

كان لأهل اليمن تقدير كبير لمقامات الحريرى ، وفى كتبهم الأدبية تتناثر الإشارات إليها ، يقول من ترجم للعلامة أحمد بن عمر المزجد المتوفى ٩٣٠ هجرية .

« كان إذا سئم من القراءة والمطالعة استدعى بمقامات الحريرى فيطالع فيها ويسميها طبق الحلوى . . » .

ونمضى مع شروح أدباء اليمن لمقامات الحريرى ، فنجدها تقرر فى دروسهم العلمية وبرغم تأثرهم وإعجابهم بها ، فلم يقلدوها عندما شرعوا فى إنشاء مقاماتهم هم ، فى المقامات اليمنية لا يوجد بطل واحد محورى ، مثل « أبو » الفتح السكندرى وعيسى ابن هشام عند الهمذانى ، أو الحارث بن همام « وأبو » زيد السروجى عند الحريرى ، فى اليمن نفاجأ بنوعية جديدة ، بطلها فريد ، ليس فى الأدب العربى وإنما فى إطار الأدب العالمى ، مرة يكون البطل إنسانًا عاقلاً ، ومرة يكون حيوانا ، ومرة يكون جمادًا ، أو عنصرًا من عناصر الطبيعة كالهواء أو البحر أوعنصرًا معماريًا كالمسجد والبناء ، أو مكانيًا كالضاحية والمقاطعة ، ويضفى المؤلف على هذه العناصر أحاسيس إنسانية ، ويُنطقها بمشاعر شتى ، وهذا أمر فريد ، ولتوضيحه يجب استعراض موضوعات المقامات .

* * *

المقامة الأولى بعنوان « المفاخرة بين الشمعدان والقنديل » . ويغلب عليها الطابع اللغوى ذو الطابع الدينى ، وتنتهى بالمصالحة بين الطرفين المتنازعين بعد أن يستعرض كل منهما مزاياه وينتقد عيوب الآخر ، يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجرى ، أما مقامة « كاشف الغمة فى المفاخرة بين النخلة والكرمة » فيدور الحوار فيها حادًا ، ويستعين كل طرف بالأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، وينتصر المؤلف محمد بن أبى القاسم النجدى (٨٢٥ هـ ٨٧٤ هـ) للكرمة .

« فلما قرع النخلة ما خرس لسانها عن الجواب وعلمت أنه ذهب بها عن منهاج الصواب ، أخذت تلوم نفسها حيث لا ينفع الملام والباحث عن حتفه بظلفه جدير بأن يُلام . . » .

وفى « المقامة المنظرية » لإبراهيم بن محمد الوزير (توفى ١٠١٣ هـ) ، وفى مقامة «أقراط الذهب فى المفاخرة بين الروضة وبئر العزب » للأديب عبد الله بن على الوزير ، نجد طرفى المقامة مكانين ، فالروضة وبئر العزب ضاحيتان لصنعاء ، وهناك مقامة أخرى حول نفس

الموضوع للأديب الخفنجي (توفى ١١٨٠ هـ) ، أما مقامة «الطراز المذهب» لابن أبي الرجال (توفى سنة ١١٣٥ هـ) ، فأبطالها مساجد تشكو أحوالها بعد نضوب أموال الأوقاف ، والصياغة على مستوى فني عال ، يعتمد على الحبكة الفنية والحوار الأدبي رفيع المستوى ، وفي المضمون قدر هائل من الجرأة في نقد الأوضاع نشك في أنه يمكن تحققه في أدبنا المعاصر خشية ردود الأفعال والمصادرة وضيق الأفق الذى استشرى في حياتنا الأدبية والفكرية .

* * *

« فقصد مسجد (جناح) وأوضح له الشكية غاية الإيضاح ، وطلب منه أن يواسيه أو يشير عليه بالنصيحة أو يؤسيه ، فأطرق (جناح) إطراق الأفعوان ، ثم رفع إليه رأسه بعد زمان وقال : قد عرفت ضعف حالك وركة مسحاك وخيبة آمالك ، وأنا وأنت من زمن الأتراك ، ولا يريد لنا الناظر غير الهلاك ، فنزّل نفسك منزلة الغريب وسيأتيك الفرج عن قريب ، فكم كربة في غربة ، ومنيّة في أمنية ، وهكذا حال الغريب إذا ظعن عن الوطن والحبيب . . » .

يشكو مسجد آخر ولكن شعرًا في مقامة نظمها عبد الله الشامي ، وتشكو مساجد الحُديدة شعرًا في مقامة أخرى نظمها صائم الدهر الأهدل ، ونلاحظ هنا جرأة أدباء اليمن في النقد الاجتماعي والسياسي ، ويضفي الحوار بين أطراف متعددة حيوية وطرافة على النص الأدبي . ومن أغرب المقامات تلك التي جرت على ألسنة الحيوانات .

* * *

كتب الأديب يحيى بن إبراهيم جحاف (توفى ١١١٧ هـ) مقامة على لسان بقرة ، وسماها بقرة السيد إسماعيل بن محمد زين العابدين ، يقول :

« وكانت من المتوكلات على رب العالمين ، جوابة ، طوافة ، كثيرة التنقل من حافة إلى حافة ، قالت : خرجت في بعض الأيام من السافل لا لتقاط فضلات المآكل ، والتعرض لما يسره الله من الغساول ، فما زلت أطلب المعيشة وانتقل من ريشة إلى ريشة ، حتى شاعت في المقالة وعرفت بالبقرة الجلاّلة .

وتمضى البقرة تقص لقاءها ببقرة أخرى ، ويدور حوار جاف بينهما ، وتختمه بقرة السيد إسماعيل قائلة .

« وخرجت من عندها وقد يبس ريقي وجهلت طريقي ، ورأيت عدوى في ثياب صديقي ، وجرت من عيني دمعة ، وفعلت لي في العالم سمعة ، وليتها قربت لي قليلاً من

الرقعة . ونويـت أنى لا أوجه إليها الكلام ولا أسلم عليها ما حييـت السلام ، ولا أعود إليها ولا أعود عليها . . » .

وللأديب نفسـه مقامة أخرى فى الكتاب ، بعنـوان « مقاومة فى انقراض الدولـة المتوكلية ، وفيها نجد درجـة رفيعة من النثر العـربى ، أما مقامـة إحراق الكتب فمن النصـوص الجميلة الفريدة ، لذا اتوقف عندها قليلاً . .

* * *

كتبها محمـد بن إسماعيل الأمير (١٠٩٩ هــ ـ ١١٨٢ هـ) ، يبدو أنـه كتبها بعد حـادثة تعرضت فيها الكتب الأدبية للاضطهاد ، يقول فى مفتتحها :

« الحمد لله المؤدب بأحسن الآداب ، والصلاة والسلام على مـن قال « إنه لا يعذب بالنار الأدب الأدبـاب » وعلى آله الـذيـن آدابهم ألطـف من « نسمـة السحـر » فى الـروضة النـديـة ومفاكهتهم ألذ مـن الحدائق الوردية . وبعد فإنه ورد إلينـا سؤال دامع العين لاطمًا للخدود . قائلاً « يتيمة الدهر » قد أوردت النار وبئس الورد المورود . طالبًا للجواب فيما يلزم من ارتكب هذه العظيمة وما جزاء من عذّب بالنار تلك اليتيمة . فأقول : إن صح ما قاله من تحريق تلك العذراء التـى من (الحور العين) ومـن إلقائهـا فى النار كـأنها من قـرناء الشيـاطين ، فأقسـم بـ(دمية القصر) مقلدة (بقلائد العقيان) و(سلافة العصر) ، يديرها الفتح بن خاقان ، لقد ذوى (ريحانـة الأدب) و (روضـة المشتـاق) بما ارتكـب مـن عظيـم التمـزيـق والتحـريـف والإحـراق ، وأقلعـت سحـب (الغيـث الـذى انسجـم) . وصـاح ديـوان الأدب : يـا الله للمسلمين ، أيهان فيما بينكم الأدب ويهتضم ؟

ويمضى الحوار على ألسنة أشهر كتب الأدب العربى ، إلى أن يقول المؤلف فى النهاية :

« إن هذه الجنـاية تقصر عن جواب السـائل عنها علماء الروايـة والدراية ، وأنه لجديـر بأن تسفك فيه دمـاء المحابر وتراق ، وأن تقوم الحرب بين ذوى الآداب منهـم على ساق ، فليتصّل السائل المقال ، وليوضـح من أى الطرفين وقع السؤال ، بعد أن يصلى ويسلـم على محمد وآله خير آل . . » .

* * *

ونمضى مع المقامـات اليمنية ، « براهين الاحتجاج والمناظر فيما وقـع بين البندق والقوس من المفاخـرة » لإبراهيم الهندى ، و « المفاخرة بين الشمعـة والسراج » لحسين بن صالـح ابن

محمد أبى الرجـال ، « والمفاخرة بين العجائز والبنات » لعلى الخفنجى و «المفـاخرة بين العنب والخل » لمحمد الأمير ، و « المفـاخرة بين القرط والعقـد » لمحسن بـن عبد الكريـم اسحاق . و«مسـامرة الـرفاق فى مناظرة القات والتنباق » للفقيـه عفيف بن هبة القاضـى، و«المفاخرة بين الثور والحمار » لعمـر بن عبـد الله المعلمى ، هكـذا تنطق كـل عناصر الـوجود، المتكلـم منها والأعجم ، عناصر البر والبحر وهذا الشكل من الإبـداع ليس منبت الصلة بالأدب العربى . فى الأقطار الأخرى ، نجد ملامح قريبة فى مقـامات السيوطى ، وفى التراث العربى الأندلسى نجد نصًا لابـن الخطيب يتضمن مفاخـرة بين بلدتى مالقـة وسلا ، وثمة نص آخـر لابن عبد الظاهر يتضمن مفاخرة بين دمشق والقاهـرة ، ويشير عبد الله الحبشى جامع المقامات اليمنية أن هذه النماذج السـابقة لم تصغ فى شكـل قصصى ، إنما كتبـت مباشرة على هيئة حـوار ، أما المقامات اليمنية فتتضمن صيغا أدبية قصصية فريدة ، ومتكاملة ، ولكم نتمنى الاهتمام بها ، وإعادة اكتشـافها ، أم . . لا بـد من الانتظار، حتـى يقع عليهـا أحد البـاحثين فى الغرب ، عندئذ تتبدل النظرة ، وتتضح القيمة التى تغيب عن الكثيرين الآن ؟

زخـرفة .. ألـف ليـلة

مدينة فاس ، ١٩٧٩ . .

أحد أيام ديسمبر ، أى منذ خمس عشرة تقريبًا ، وقفت فى فناء مدرسة العطارين ، أتأمل النقوش التى تغطى الجدران ، قطع الزليج الدقيقـة . المختلفة ، التى تشكل وحدات زخرفية رائعة ، متصلـة ، منفصلة ، لا نهائيـة ، تبقى النـاظر إليهـا فى تأمـل دائم ، أما المقـرنصات الجصية ، والخشبية ، فتتراكم فى تجاور بديع ، لا يلغى خصوصية كل منها .

يومها انبثق داخلى الخاطر ، لو أننى أقدر على تحقيق ذلك فى النثر ، أكون حقًا أنجزت أمرًا فريدًا ، على مستوى اللغة ، أو على مستوى التكوين ، وبالأخص ، المعمار الروائى ، ولأننى أؤمن أن الروايـة هى فن كل الفنون ، لم يزل هـذا دأبى ، وجوهر جهدى ، يـدفعنى إلى ذلك الرغبـة فى تحقيق الخصوصية ، مـن خلال عناصر مختلفـة ، متصلة أوثق الصلة بـالمضمون ، بمشاعـرى ، برؤيتى للحيـاة والكون ، ومحاولتـى النفاذ إلى كنه الصيرورة . صيرورة الـزمن ، والوقت .

ومع معايشتى لألف ليلة وليلة ، اكتشفت أن القصـاص القديم حقق هذا بالفعل ، وأن الرؤية التـى كانت تحكم الفنـان العربى المسلم ، سواء كـان خطاطا ، أو رسامًـا ، هى نفس الرؤيـة التى كمنت فى عمـل الراوى القديـم المجهول الذى صـاغ هذه الحكايـات . أو تلك الملاحم الكبرى ، مثل الهلاليـة ، وسيرة سيف بن ذى يزن ، وذات الهمـة . وعنترة . واستمر فى التوقف عند ألف ليلـة وليلة التى اعتبرها ذروة فن القص العربى ، وعنـدما أقول العربى ، فإننـى أعنى التراث الثقافى والفنـى الداخل فى عنـاصر تكوين الثقـافة العربيـة . والمنتمى إلى حقب تـاريخيه مختلفة ، وديـانات متعددة ، وحضارات متعـاقبة ، متجاورة . ومـؤثرات . . وافدة ، متفاعلة من ثقافات أخرى .

* * *

يقـول البـاحـث التونسـى الأستاذ على اللـواتى ، إن التجـريد الـزخرفى ، بـدأ من تبسيـط

الأشكال النباتية ، بدأ هذا الفن انطلاقه فى العصر العباسى ، وتحول الفن الإسلامى فى جزء كبير منه إلى فن نقشى يجسد كلام الله . ناشرًا آياته فوق كل شىء يصنعه الإنسان ، كما أصبح فنًا للزخرفة النباتية والهندسية ، زخرفة مطلوبة لذاتها ، لا لمجرد التزيين . وهو أيضًا فن خصب ومتنوع بشكل مذهل ، ويرمى هذا التزويق بتنوعه الخارق ، وإيقاعه المتواصل « ذهنيًا » خارج المادة التى تحمله ، إلى إيجاد متعة منقطعة النظير ، تتصل بالتأمل فى الله ، المقتدر غير المحدود الذى يعجز الإنسان عن وصفه ، وذلك بعيدًا عن أى شكل طبيعى معروف ومحدد ، يمكن أن يلهى الإنسان عن وجهه الكريم .

لقد أدت النصوص المقدسة والقائلة بتحريم التشبيه إلى إيجاد فن بالغ الخصوصية قائم بذاته ، ولا يتعارض مع أحاديث النهى عن التصوير ، لقد لجأ الفنان المسلم إلى عدد من الأساليب التشكيلية التى ترمى إلى الابتعاد عن نقل الواقع كما هو إلى الصورة .

ويرى الباحث الأوروبى الكسندربابا دوبولو ، أن الفنان المسلم تكيف مع مطالب النهى الدينى ، وأدى هذا إلى تصور خاص جدًا للعمل الفنى فى الحضارة الإسلامية وهو أن هذا العمل ينبغى ألا يكون مرآة أمينة للعالم المرئى ، بل عالمًا خاصًا من الأشكال والألوان يحكمه منطق تشكيلى داخلى . ويؤكد بابا دبولو فى بحثه الذى ناقشه فى جامعة السوربون وترجم مقدمته على اللواتى « أن الفنان المسلم قد اخترع جمالية الفن الحديث قبل ستة أو سبعة قرون وأن « جوهر كل فن وقانونه الأسمى هو أن يكون عالمًا مستقلاً وألا يخضع إلا لمنطقه الخاص » .

* * *

عندما صاغ الفنان التشكيلى المسلم رؤيته تلك ، كان يستمد عناصرها من التراث الإنسانى القديم ، وإذا نظرنا إلى الأشكال الرئيسية فى فن الزخرفة العربى سنجد أصولها فى ثقافات العالم القديم .

المربع ، أصله يونانى ، ويرمز إلى العناصر الأساسية الأربعة التراب ، الماء ، الهواء ، والنيران .

أما المثلث فينحدر من العصر الفرعونى ، يعبر عن الصلة بين السماء والأرض . بين البداية والنهاية التى تتلاشى فى نقطة من الفراغ ، نقطة اتصال المادة بالروح ، أليس هذا ما يوحى به بناء مثل الأهرام . واعتقد أن المثلث الفرعونى هو الأصل التاريخى للنجمة السداسية التى أخذها الإسرائيليون واعتبروها رمزًا لهم .

أما الدائرة فأصلها مصرى وهندى ، ترمز إلى الشمس ، إلى أفق السماء ، إلى الوحدة ، إلى البداية والنهاية ، إلى الاتصال والانفصال ، فى كل نقطة من محيطها تبدأ وتنتهى أيضًا . تمامًا

كدورة الحياة ، كالحياة التى تتضمن الموت والموت الـذى تنبعث منه الحياة . إنها المحيط الذى يدور حول المركز . .

فلنعتبر أن الحكايـة التى تبدأ منهـا قصة شهرزاد نفسهـا هى مـركز الدائرة ، وهـى منطلق الخط المستمر ، اللانهائى ، الذى يحيط ويتخلل أيضًا ما تحويه الليالى من حكايات .

داخـل الـدائرة يمكن أن يتـم فى فـراغـه تشكيـل المربـع ، والمثلث ، وشبـه المنحـرف ، والمستطيل ، ثم تتجـزأ المساحات الناشئة إلى مالا نهايـة ، أما شكل اللولب ، المستـوحى من كرمـة العنـب فأصله سـومرى ويونًا نـى ، أما المخمس فيـونانى ، والمثمن فينسـب إلى الخاتم السليمانى .

ثم تقـابلنا بقيـة الأشكال مـن عقد ، وضفـائر ، وأطباق نجميـة ، وشبكـات ، وتختلـط المؤثرات المنحـدرة من فنـون العالم القديـم ، منصهرة فى رؤية الفنـان المسلـم الجديـدة ، التى حققت بالفعل الخصوصية . .

* * *

لا يعنى ثبات هذه الأشكال جمود الفن الإسلامـى الزخرفى ، ومضيه وفقًا لقواعد محددة ، إنما كان همُّ الفنان وشغلـه الشاغل البحث عن تكويـن جديد مبتكر يتولد عـن تماس قواطع الزوايا ومزاوجة الأشكال الهندسية لتتوالد باستمرار فى حيوية وتدفق لانهائيين . ويقابل هذا فى الف ليلـة الوحدة والتنوع ، فـالعمل يحفل بمئات القصـص التى تختلف شكلاً ومضمـونًا . عوالم متتابعة ، تبدو متصلة ، لكنها مستقلة .

فى الرسم الزخـرفى الإسلامى ، تتأمل الوحدة ، وفى اللحظة التـى يخيل إليك أنها انتهت ، تفاجأ عنـد نقطة معينة فى الفراغ أن الوحدة التـالية تبدأ . تمامًا كقصص ألـف ليلة وليلة . إذ توشك الحكاية على التمام ، على الاكتمال ، تبدو جهة وكـأنها عارضة ، يضرب مثل وكأنه قيل مصادفة ، كلمات قليلة لكنها تؤدى إلى بداية حكاية جديدة ، والدافع يكون غالبًا الحكى من أجل النجاة .

شهرزاد تقـص كل ليلـة ما يقـرب من ثلاث سنـوات متصلة حتـى تنقذ نفسهـا ، وبنات جنسها .

التجار الثلاثة يحكى كل منهم ما جرى له ، مع الغزالة ، والكلبتين ، والبغلة ليعفو الجنى عـن صـاحبهم . هكـذا الأمـر فى قصـة الحمال والبنات الثـلاثـة . هـذه القصة التـى أدعـو المتخصصين إلى دراستها . وتحليل عناصرها ، ومقارنتها بالأشكال الزخرفية العربية ، مبدئيًا .

سنجد أنها تحتوى على اثنتى عشرة حكاية متداخلة ، تشبه النجمة الزخرفية الأثنى عشرية . لكن هـذا التقسيم ليس نهائيًا ، فلـو أمعنا النظر سنجـد أنه من الممكن تجزئ هـذه القصص المتداخلة إلى أخرى . وعنـدما تـوشك القصـة المركـزية المحيطـة على الانتهـاء ، تبدأ قصـة التفاحات الثلاث ، ومنها تتفـرع حكاية المرأة التى قتلت ظلمًا ، وحكاية الوزيـرين نور الدين المصرى ، وبدر الدين البصرى ، ومـن ثم حكاية حسن البصرى ، ثم حكايـة ابنه . وحكاية زوجته ، ثم تبدأ قصة الأحدب الذى يتهم بقتله أربعة الواحد تلو الآخر، لكل منهم حكايته ، آخرهم المزين الذى يقـص سبع قصص ، كل واحدة تتعلق بأحد . أخـوته ، وهكذا إلى مالا نهاية ، حتى وإن بدا ثمة خاتمة فإنها تتضمن بداية جديدة . .

* * *

تمضى الخطـوط فى فن الزخرفـة العربى وفقًا لنظـام خفى ، صارم ، لكنه تلقـائى أيضًا ، يتقاطـع الخط بالخط عنـد نقطة معينة فكـأنه تقـابل المصائر ، وفى اللحظـة التى تلتحـم فيها النقطة بالنقطة ، يقع الفراق ، فتتخذ الخطوط وجهات شتى .

وخلال هذا التلاقى والتفرق تتوالد الأشكال المختلفة . من مربعة ومخمسة ومسدسة ، من هندسية وأخرى مورقـة . إن الغاية من التكوين هنا هى التعبير عـن الكل . وليس إبراز شكل معين لذاته . لكن هذا الكُل أيضًا يحتـوى على الموجودات ، والتفاصيل الصغيرة ، الدقيقة ، وربما يفسر هذا المنظور الإسلامى فى المنمنمات التى تزين المخطوطات القديمة ، حيث تتجاور المستويات ، ويتفرع كل منها عن الآخر ، فترى الواقع فى جملته ، وليس فى محدوديته ، وإن لم يغب عن الناظر أدق التفاصيل .

* * *

من خلال معايشتى لألف ليلة وليلة ، أقـول بوجود صلة وثيقة بين فن العمارة الإسلامية ، وفن الزخرفة العربى ، صلة نتاج تكوين خاص ورؤية لعل إدراكها والوعى بها يسهمان فى فهم عناصر القص العـربى واستيعابها من أجل الوصـول إلى أشكال خاصة تسهم فى إتاحـة فرصة أكبر ومساحة أوسع للتعبير .

مـا طرحتـه يمثل الخطـوط العامـة لاجتهادات شـديدة الخصـوصية تبلـورت عندى أثنـاء معـايشتـى لهذا العمـل الفـذ الـذى أزعـم أن أسراره لم تتكشـف بعـد . ربما أصبـت ، وربما أخطأت ، لكننى فى كل الأحوال أشير وأحاول لفت النظر . .

مدينة ألف ليلة وليلة

منذ فترة ليست بالقصيرة ، أعايش ألف ليلة وليلة . .

لا أقول قراءة ، وإنما معايشة . هذا دأبي مع القصص الأدبية العظمى . إن في أدبنا العربي . أو الآداب الأخرى ، عرف معظمنا ألف ليلة وليلة منذ الطفولة ، سفر حكايات وأعاجيب . ومع بدايات المراهقة كنا نطالع سطورًا قليلة تحوي إشارات جنسية ، سطور جعلت الكتاب منبوذًا إلى حد ما حتى بعد حذفها من الطبعات الحديثة . بدأت فوضعت أمامي طبعات ثلاثًا رئيسية اجتهدت زمنًا حتى اقتنيتها ، طبعة كلكتا ، طبعة بولاق ، وأخيرًا . . طبعة الدكتور محسن مهدي ، بدأت من الأخيرة مع أنها صدرت منذ سنوات قليلة ، وأين . . في بريل ، دار النشر الهولندية العتيقة التي أصدرت عددًا من أهم المصادر العربية . هذه الطبعة تحوي أقدم نصوص مكتوبة ، عن مخطوطات محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، وأخرى توزعت على العديد من البلدان ، وفي حدود علمي فمحاولة الدكتور محسن مهدي الأولى من نوعها لضبط وتحقيق أصول النص . أما طبعة كلكتا فهي أقدم طبعة للكتاب (١٨١٤) . أما طبعة بولاق (١٨٣٥) فهي أشهرها ، لأنها كاملة ، ولأنها اعتمدت أصلاً خطيا واحدًا ، ولست هنا في مجال تقييم الطبعات الثلاث ، أو تقييم الجهد العلمي الرائع الذي قام به الدكتور محسن مهدي ، إنما أشير فقط إلى بعض الانطباعات الخاصة المتولدة نتيجة معايشتي لهذا النص العالمي ، الذي تأثر به الأجانب أكثر مما تأثرنا نحن به ، والنقطة التي تعنيني الآن ، هي انعكاس الفنون العربية والإسلامية على تصميم الكتاب وبنيته الداخلية . بالتحديد ، العلاقة بين تصميم المدن العربية وفن الزخرفة العربي . وبين تصميم ألف ليلة وليلة .

* * *

القاهرة القديمة ، فاس البالية بالمغرب ، مراكش ، صنعاء العتيقة ، البصرة مدن عربية عرفتها ، وعايشتها ، في الأولى أمضيت جل عمري ، وفي الأخريات تجولت وشاهدت وعاينت ، في عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف ولجت قصبة تونس ، شارع رئيسي مؤدي ،

عريض ، تمامًا مثل قصبة القاهرة التى كانت تصل بين بوابتها الرئيسية وقلعة الجبل ، هذه الطرق الفسيحة ، يتفرع منها خطط ، جمع خط ، أى طرق طويلة تحيط بناحية متكاملة ، وهذه الخطط تؤدى إلى بوابات ، كل مدخل إلى حارة ، والحارة داخلها مجموعة من الدروب ، والدروب تتفرع إلى أزقة ، أو زنقات كما تعرف فى المغرب ، وأحيانًا تحتوى على عطفة ، هكذا يتوالى تصميم المدينة العربية القديمة من الأفسح ، إلى الضيق فالأضيق ، طبعًا هناك مركز دينى وهو المسجد الجامع ، ومركز دنيوى هو قصر الحاكم أو القلعة . هذا تصميم لم يأت من فراغ ، إنما هو نتاج ظروف اجتماعية ، ومناخية ، ومعمارية ، وعسكرية ، ألم تؤد متاهات قصبة الجزائر إلى جعلها مقرًا للمقاومة ، صعب على الجند الغرباء اختراقها ، نفس الوضع واجهه نابليون فى القاهرة القديمة مما دفعه إلى محاولة إزالة أبواب الحارات . فى الطرق الكبرى تنتظم الأسواق ، هنا يجيئ المجموع ، يجد الناس حاجاتهم ، ولكن بيوتهم هناك فى داخل الحارات والأزقة والدروب ، حيث الحيوات الخاصة ، حيث يتجزأ العالم الكبير إلى عوالم صغيرة ، أما هذا التصميم فيؤدى إلى حجب الرياح المثيرة للأتربة ، الحارة ، إلى كسر حدتها ، إلى ميل الظل على الظل ، إلى الرحمة بالمارة ، والحد من التيارات الباردة فى الشتاء ، تصميم يبدأ من الكلى ، ويتجزأ ، حتى يدق ويخيل إليك أنه سيتلاشى فيبدأ عندئذ من جديد .

إذن . . كيف يبدو الأمر فى مدينة ألف ليلة وليلة التى تحوى البلاد والمحيطات والعجائب والغرائب ، والمصائر والحيوات . .

* * *

المركز . أو البؤرة هنا ، حكاية الأخوان الملكان ، الأول يرى امرأته تخونه مع عبد أسود . يهيج يخرج قاصدًا أخاه ، يسعى إلى إيجاد تفسير ما جرى له ، وهناك يرى الجوارى العشر ومعهن امرأة أخيه مع العبيد السود ، ومن يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته ، يحكى لشقيقه ما جرى ، فيخرجان هائمين ، وفى البر الفسيح تبدأ حكاية العفريت الذى وضع معشوقته فى صندوق محكم ، والتى تنتهز فرصة نومه لتجبر شهريار على مواقعتها . وبعد أن رأى شهريار ما رأى يعود إلى ملكه كارها النساء ، مقررًا الزواج من المرأة ليلة واحدة فقط ، حتى تتطوع شهرزاد للزواج منه ، مضمرة الخطة والنية على إنقاذ بنات جنسها ، وإزاء إصرارها يحكى لها والدها حكاية الحمار والثور ، تصر على قرارها ، فيحكى لها حكاية أخرى ، يريد إنقاذها بالحكاية وهى تضمر النية نفسها أيضًا ، تريد إنقاذ نفسها وبنات جنسها بالحكاية أيضًا ، فهى تحكى لكى لا تموت . وهنا سر توالى الليالى ، وليست هى فقط التى تفعل ذلك ، ولكن معظم الشخصيات التى تروى سيرتها يقدمون أيضًا على الحكى حتى لا يموتوا ويتزوج شهريار

من شهرزاد ، وتطلب هي من أختها دنيازاد أن تطلب منهـا قص بعض ما تعرفه ، هكذا تبدأ الليالي ، وهكذا تتم الحكاية المركز ، والتي هي أيضًا بمثابة المدخل ، البوابة الرئيسية المؤدية ، أو السور المحيط ، الملتف ، وهذه البوابة ، أو هذا السور ، ليس كلا واحدًا ، إنما يضم أجزاء عدة أيضًا . ولكنها أدق ، تؤدي في مجموعها إلى الجزئي أيضًا . .

* * *

تبدأ الليالي في أقدم نصوصها الخطية بحكاية التـاجر الذي رمى نواة البلح فقتل جنيًا بدون أن يقصد ، وظهور والد الجني الذي يتوعده بالقتـل ، فيطلب التاجر مهلة سنة حتى يعود إلى أهله ويسدد ديونه للنـاس ، وبعد سنة يرجع فعلاً إلى نفس الموضع ويجلس منتظرًا وهنا يقدم عليه ثلاثة شيوخ لكل منهم حكاية غريبة ، يرجو كل منهم الجني أن يصغي إلى ما جرى له ، فاذا وجـده غريبًا يهب له ثلـث دم التاجر ، وتتفـرع أمامنا ثـلاث حكايات ، حكايـة الشيخ الأول وامرأته التي سحرته إلى غزالة ، والثانـي وأخويه المسحورين كلبين ، والثالـث وابنة عمه المسحورة إلى بغلة ، تؤدي الحكايات الثلاث المتفرعة إلى إنقاذ التاجر .

هكذا . تنتهـي خطة أو حارة ، لكنهـا ليست سـدًا ، إنما تؤدي إلى حارة أخـرى ، ونقطة الأصل عبارة تـرد على لسان شهرزاد « وليس هذا بـأ عجب من قصة الصيـاد والعفريت» ، أو «أين هذا مما سأحدثكم به الليلة المقبلة » ؟ .

تبدأ الحارة التي تضـم حكاية الصياد الذي أخرج العفريت من القمقم ، فقرر العفريت أن يكافئه باختيار طريقة لموته ، يتحايل عليـه الصياد حتى يعيده إلى القمقم . ويرجوه العفريت الإفراج عنـه ، وهنا يتفرع درب مـن الحارة الرئيسية ، يحوي حكايـة يرويها الصياد عـن الملك يونان ، ولكن هذا الـدرب يتفرع إلى آخر ، فيه حكاية التاجر والببغاء التـي يرويها الملك يونان نفسه . وهـذا الدرب يؤدي إلى رحبـة صغيرة يخرج فيها العفريـت من القمقـم ، بعـد أن يقرر مكـافأة الصياد ، ثم تتفـرع الرحبة إلى عدة دروب وأزقة متداخلة ، فالعفـريت يقود الصياد إلى بركة السمك الملون ، « ومنها يأخذ الصياد أربع سمكات إلى السلطان ، لكل سمكة حكاية ، هذا يقـود إلى حكاية الشاب المسحـور ، ثم إلى حكايتـه مع زوجته التـي خانته ، ثم حكـاية المدينة المسحورة التـي تقع على بعد نصف نهار . . عنـد ذهاب الصياد بمفرده إليهـا ، ولكن عندما يصاحب السلطان ويقف على ما جرى فيها ، يكون الركب كله في حاجة إلى سنة كاملة للعودة . (لننظر هنا إلى تحطيم الزمن والمسافات المكانية ، ولكن هذا موضوع آخر) .

ينتهي الخط الذي يحوي حكاية الصياد العفريت ، هذا الخط الذي تفرعت منه حكايات شتى ، كل منها بمثابة حارة ، درب ، زقاق ، عطفـة ، رحبة ، لتبدأ حكاية أخرى من أجمل وأعقد حكايات ألف ليلة ، وهي حكاية الحمال والثلاث بنات .

يلتقى الحمال بإحدى البنات فى السوق ، تقوده إلى البيت حيث شقيقتيها ، يشترطن عليه إلا يتكلم عما يشاهده ، ثم يصل القرندليان ، ثم يصل الخليفة هارون الرشيد ووزيره ، وهارون الرشيد شخصية تتكرر كثيرًا فى حكايات ألف ليلة ، إن ظهورها يمثل أحد عوامل الوحدة فى هذه المدينة الهائلة ، أو النغم الذى يتكرر على مسافات معينة ليؤكد وحدة العمل ، وتماسكه .

البنات يصرخن ، يضربن بعضهن ، ويجلدن الكلبتين السوداوين ، الخليفة لا يطيق صبرًا يريد أن يعرف حكايتهن يدفع بالحمال كى يسأل ، البنات يغضبن ، يستدعين العبيد السود السبع ، يأمرنهم بقطع رقاب الضيوف ، ولكنهن يستفسرن عن سبب عور القرندلية ، فتبدأ حكاية القرندلى الأول ، كيف فقد عينه على يد الوزير ؟ ومنها تتفرع حكاية أخرى ، عن ابن عم القرندلى ، ثم تتوالى حكايات القرندلى الثانى ، ثم الثالث والتى يرد فيها ذكر جبل المغناطيس ، والقصر المعلق فى الهواء ، والجوارى الأربعين ، والباب التاسع والتسعين .

بعد انتهاء حكايات القرندلية الثلاث ، تقص البنات الثلاث ما جرى لهن ، وتنتهى حكاية الحمال والثلاث بنات . ولكنها لا تؤدى إلى جدار مسدود ، إنما تبدأ منها حكاية التفاحات الثلاث .

هكذا تتوالى الحكايات ، منها الرئيس ، والفرعى ، كل حكاية تؤدى إلى الأخرى يبدو الأمر تلقائيًا ، وكأنه بدون ترتيب ، أو يخضع لتداع تلقائى ، ولكننا إذا أمعنا النظر سنجد نظامًا محكمًا . صارمًا ، ربما لا يفصح عن هندسة البناء وحركته . واتجاهات القارئ المتعجل ، أو الذى لا يقرأ ألف ليلة وليلة قراءة عميقة جادة ، متعمقة ، غير متأهبة بنفس القدر الذى يتم به التأهب للتعامل مع نص أدبى نقل إلى لغتنا مما تعارفنا على تسميته بالأدب العالمى !!

* * *

. . فى النص الذى حققه الدكتور محسن مهدى قصتان مستقلتان ، لا يتفرعان من حكايات فرعية ، إنما يتصلان بالحكاية الإطار ، الحكاية الكبرى التى محورها شهر زاد نفسها ، إنها حكاية ابن بطار والجارية شمس النهار ، وحكاية أنيس الجليس ، ونور الدين ابن خاقان . أننى اعتبرهما بمثابة ضاحيتين لمدينة ألف ليلة وليلة الكبرى ، ضاحيتان منفصلتان لكنهما متصلتان .

« ولكن علاقة النص الأدبى بالمدينة العتيقة . لا يمثل الوجه الوحيد للتفاعل والتشابه بين الفنون العربية المختلفة ، هناك فن الزخرفة ، وتكويناته ، ووحداته المتشعبة المنفصلة ، المتصلة ، ولهذا حديث آخر ، أبسط فيه بعضًا من انطباعاتى المتولدة نتيجة معايشة نص أدبى رفيع ، أتصور أنه ذروة ما قدمته الإنسانية من فن الحكى والقص . . » .

حـق الطـريـق فى الإسـلام

الفوائد النفيسة الباهرة
فى بيان حكم شوارع القاهرة

يقول أبو حامد المقدسى الشافعى فى مقدمة رسالته الصغيرة ما نصه :

« وبعد ، فقد وقع أوائل سنة اثنتين وثمانين بالقاهرة المحروسة حوادث عجيبة ونوادر غريبة كلها بإدارة الملك القهـار ، العزيز الجبار ، مكور الليل على النهـار ، والعالم بخفايا الأسرار ، فمنهـا قطع الطـريق بـالشوارع والأسـواق وهدم الحوانيـت والبيوت الحارثـة بحريـم المدارس والجوامع والمساجد البـارزة فى الشوارع المانعة للناس من تمام الارتفاق ، فانصلـح بذلك قصبة بين القصرين من القاهرة وغيرها من الشوارع بالاتفاق فاتسعت أقطارها وأضاءت ، وانكشف عنها السواد والظلمة وأشرقت وأنارت ، وزال عنها الغم والحصر والغبن . . . » .

وسبب ذلـك أنه فى سنة ٨٨٢ هجريـة ، بلغت الأوضاع المعماريـة حدًا مزعجًا فى مـدينة القاهرة . إذ سدت الطـرق والشوارع نتيجة قيام عدد كبير من النـاس ببناء بيوتهم أو منشآتهم بشكل لم يـراعوا فيـه ما يعـرف فى الإسلام بحـق الطريـق ، عندئذ قـام الأمير يشبك بهدم مـا يعترض مسالك الطرق ، وبالتالى ثار بعض النـاس الذين لحقهم الضرر ، وهنا أقدم أبو حامد المقدسى على تأليف هذه الرسالة لتوضيح حق الطريق ، الذى يجب أن يتبع كيلا يحدث غبن أو هضـم ، فـأشار إلى أحكـام الفقهـاء وآرائهـم فى هـذا الموضـوع ، وتعرض لأنـواع الطـرق ونشأتها ، كما أوضح الأحكام المتعلقة بذلك .

الرسـالة ظلت مخطـوطة فى المكتبـة السليمانية باستـانبول ، إلى أن أقدمـت الدكتـورة آمال العمرى على تحقيقهـا ودراستها ، وإصدارهـا فى سلسلة المائة كتاب التى بـدأها طيب الـذكر الدكتور أحمد قدرى رئيس الهيئة المصرية العامة لـلآثار ، والتى طبع فيها عددًا من الدراسات التاريخية الهامة ، ولكن استمرارها توقف بعد تنحيته عن الهيئة .

هذه الرسالة الفريدة الصغيرة تكشف جانبًا هامًا من جوانب الحضارة العربية والإسلامية . وبعدًا يضيئ إنسانيتها .

حــق الطريــق

لتأكيد وإضفاء الطابع الإنسانى على المدينة . أشارت تعاليم الإسـلام إلى « حق الطريق » وحثت على مراعاة ذلك الحق ، ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلـم ، قد أشار بهدم ما يعترض الطـريق حتـى ولو كان مسجـدًا . راعى حكام المسلمين هـذه القاعـدة فى مختلف العصور ، عنـد بناء مـدينة البصرة سنـة ١٤ هـــ ٦٣٥ م ، أشار الخليفـة عمر بـن الخطاب بالقدر الذى ترتفع إليه المبانى ، ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المبانى والطرق المطلة عليها خاصة وأن المبـانى لا تنشأ فى الفراغ اللانهائى ، لكنهما ترتبط بالشوارع المطلـة عليها . وتقول الدكتورة آمـال العمرى فى مقدمتها ، إن الخليفة العباسـى أبا جعفر المنصور عند إنشـاء مدينة بغداد سنة ١٤٥ هــ ٧٦٢ م ، شكل شوارعها واتساع طرقاتها بما يتناسب وعاصمته الجديدة التى نمت بعد ذلك وأصبحت من أعظم المدن الإسلامية . كان تخطيط المدينة الإسلامية يقوم على أسس مـدروسة . وقواعـد معبّرة تعكسها تلك الشروط التى حـددها الفكر الإسـلامى ، ومن بين هذه الشروط ما يتعلق بالطرق ، فيذكر شهـاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع فى كتابه « سلوك المالك فى تدبير الممالك على التمام والكمال » الذى ألفه للخليفة المعتصم العباسى (٢٢٧ هــ ٨٤٢ م) ، ضمّن أحد فصوله شروطًا ثمانية يجب أن يتبعها من يريد إنشاء مدينة ، كان منها « أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتنـاسب ولا تضيق ، وأن يبنى فيها جامعًا للصلاة فى وسطها ليقرب على جميع أهلهـا وأن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينـال سكانها حوائجهم من قرب » .

ولعل هذه الشروط كانـت أساس تخطيط شوارع المدينة لديهم ، مضـافة إلى تأثير التخطيط العام على شـوارعها . وتكشف العـلاقة بين المبانـى فى المدينة وبين شـوارعها عن مـدى التزام المعمار الإسلامى بحق الطريق . ومن الأمثلة الحية القائمة حتى عصرنا هذا ما نراه فى مقاسات بوابات المدن مثل بغداد والقاهرة ، فرغم الحرص على تحصين المدينة والارتفاع بأسوارها وتقليل بواباتها قدر المستطاع ، يـلاحظ اتساع هذه البوابات وارتفاعها . ويـذكر المؤرخ اليعقوبى عند وصفه لبوابات مدينة بغداد أنها كانت مرتفعـة :

« بحيث كان يـدخل الفارس بالعلم والرامـح بالرمح الطويل مـن غير أن يميل العلم ولا ينثنى الرمح . . . » .

نفس الشـىء نلاحظه فى بوابـات القاهرة الباقيـة حتى الآن والتى أنشأهـا بدر الجمالى ، إن اتساع بوابات الزويلة والفتوح والنصر . إن هـذا الارتفاع تطبيق عملى لأحكام الفقهاء . والتى تقول طبقًا لتعاليم الإسلام إن الطريق النافذ مباح فيه المرور لكل إنسان لأنه حق للمسلمين .

فليس لأحد أن يبنى فيه أو يخالف خط جاره ، وهذا ما حرص السلاطين المماليك على تطبيقه بحزم فى القاهرة ، والرسالة التى حققتها الدكتورة آمال العمرى تلقى أضواء هامة على تلك المبادئ الهامة فى الإسلام .

* * *

الفوائد الباهرة

يقول أبو حامد المقدسى بعد مقدمته . وبعد ذكره تاريخ القاهرة منذ أن اختطها الفاطميون . وبعد استعراض مفصل لما كانت عليه أوضاع المدينة خاصة شارع المعز لدين الله ، يقول :

« وأما حكم الشوارع والطرق بالقاهرة وغيرها من مدن الإسلام فيقول مذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى ذلك وقد ذكر أصحابه تبعًا له رضى الله تعالى عنهم وعنه وعن جميع العلماء أجمعين ، المسألة فى كتاب الصلح فى التزاحم فى الحقوق المشتركة كالشوارع ونحوها ، فقالوا الطريق قسمان نافذ وغير نافذ . أما النافذ وهو المراد بالذكر وهو الشارع المنفك عن الاختصاص فالناس كلهم فيه سواء يستحقون الدور فيه ولا اختصاص فيه لأحد ، بل هو مشترك عام . . » .

ثم يذكر مؤلف الرسالة ما قاله الإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل والإمام أبو حنيفة ، وكلهم يؤكدون حق الإنسان فى الطريق العام ، ثم يذكر ما أجمع عليه الأئمة والفقهاء ، إذ يجوز لكل إنسان أن يفتح الأبواب من ملكه إلى الشارع كيف شاء . أما بناء الدكة أو المصطبة وغرس الشجرة . فان كان يضيق الطريق ويضر بالمارة منع منه بل إذا قامت منشأة أو إضافة إلى البناء نتج عنها إقلال الضوء فى الشارع فيمنع ذلك .

* * *

العلاقة المتبادلة

تحدد الأحكام الفقهية أيضًا العلاقة الوثيقة بين المبانى والشوارع المطلة عليها ، والمعروف أن عناصر الاتصال والحركة للمبنى لا تقتصر على داخل المبنى ذاته ، بل تمتد أيضًا إلى ما يحيط به من شوارع وحارات وأزقة ، وخاصة إذا كان للمبنى ملحقات أو امتداد فى الجهة الأخرى من الشارع ، لذلك كانت السلالم الخارجية للمبانى تأخذ الوضع الجانبى ، وهذا ما نراه بوضوح فى جميع المساجد المملوكية العظمى التى أنشئت داخل القاهرة . . وهناك نموذج فريد

فى القاهرة للحفاظ على حق الطريق . يتمثل فى ذلك البناء العلوى الذى يربط جامع قجماس الإسحاقى بـالميضأة ويعبره المصلون من أعلى تفاديًا لإغلاق أو إعاقة الطريـق ، ويعرض هذا الجزء من البناء باسم الساباط . ويقع على ارتفاع ستة أمتار .

وفى مكان آخر نجد نموذجًا مختلفًا للحفاظ على حـق الطريق ، يتمثل فى قبوقرمز الشهير، والذى ذكـره الروائى الكبير نجيـب محفوظ فى أعماله كثيرًا ، إنـه نفق يمتـد تحت مسجد الأمير مثقال ، ويضـمـن استمرارية درب قـرمز الذى يبـدأ من ميدان بيـت القاضى ويستمـر حتى شارع المعز لدين الله .

تقول الـدكتورة آمـال العمرى ، إن الاهتمام بحق الطـريق لم يكـن قاصرًا فقـط على داخل المدن ، إنما كان يشمل الطرق الموصلة بين البلدان . فأنشئت عليها الخانات ، ومراكز البريد ، وحفرت الآبار . وكانت قوة الدول تقاس بسلامة طرقها ، ودرجة تأمينها .

* * *

يقول أبو حـامد المقدسى الشافعى نقـلاً عن الإمام الغزالى إنه من المنكـر فى الشوارع وضع الأسـاطين ، وبنـاء الـدكـك ، ووضـع الأخشـاب وأحمال الحبـوب والأطعمـة ونحـوهـا على الطرقات . ويذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى حـد أنه إذا ضاق الطريق على المارة وبه مسجد ، هدم المسجد أو بعضه لتوسيعه أى لتوسيع الطريق .

وبعد أن يستعرض المؤلف أحكام سائر الأئمة والفقهاء ، يختتم رسالته الهامة بقوله :

« وأقول هذا إذا اقتصروا على هدم ما وصفناه ولم يتجاوزوا الحد الذى ذكرناه ، وأما إذا تعدوا ذلك وهـدموا مـا لا يستحق الهدم شرعًا بـل لمجرد التشهى وهـوى الأنفس ليضـىء المكان أو يتسع عن القدر الجائز ، فلاشك أن فعل ذلك والأمر به حرام مطلقًا ، ولا يجوز لأحد الإقدام عليه ولا الأمر به ولا الإعانة عليه لما فيه من حصول الضرر للمسلمين من هدم مساكنهم ومحل أوطانهم وإضـاعة أموالهم سفها وبـاطلاً وخصوصًا هـدم أوقاف الضعفاء من الأيتـام والفقراء والمحتاجين من الفقهاء وقطع أرزاقهم من ذلك أو ضعفها التى قد أجراها الله تعالى لهم على يد من اختاره من عباده » .

هكذا تكشف هذه الرسالة الصغيرة عن أحد أوجه تحضر وإنسانية الإسلام » .

عميد المؤرخين المصريين

عبد الرحمن بن عبد الحكم

فى ٦٤٠ هـ ، دخل العرب مصر ، ومن قبل عرفت مصر أقواما كثيرين جاءوا إليها فاتحين ، واستقروا فيها مددًا متفاوتة ، ولكن لم ينجح أحدهم فى فرض لغته ، أو ثقافته كان هناك الرومان ، وقبلهم اليونان ومن قبل الفرس ، ولكن مصر بقيت هى مصر ، لقد كان تأثير المصريين أحيانًا فى الغزاة والفاتحين أشد من تأثيرهم هم ، كانت مصر كالبوتقة تصهر ولا تنصهر ومع مجىء العرب إلى مصر بدت ظاهرة جديدة فى التاريخ المصرى ، لقد استقرت القبائل العربية فى مختلف الأقاليم المصرية ، واختلط العرب بالمصريين ، وكانت الثمرة ، هى تعريب مصر ، وتمصير العرب ، ذابا معًا ، وانتشر الإسلام ، وبعد قرنين ونصف من الزمان كانت الملامح العربية لمصر قد ترسخت واتضحت ، بل إن مصر أصبحت القاعدة الكبرى التى تخدم الثقافتين العربية والإسلامية فى اندفاعهما تجاه الغرب والأندلس ، والجنوب فى اتجاه بلاد النوبة وبقية الأقطار الإفريقية . .

فى هذه المرحلة الزمنية عاش عبد الرحمن بن عبد الحكم ، أقدم المؤرخين المصريين ، وأول من دون ملامح مصر العربية ، وبدايات العصر العربى الذى كان قريبًا نسبيًا منه ، من المصادر التاريخية نعرف أنه توفى سنة ٢٥٧ هـ بالفسطاط ، ودفن إلى جوار الإمام الشافعى ، كان عمره عند وفاته حوالى سبعين عامًا ، أى أن مولده كان فى سنة ١٨٧ هـ تقريبًا .

كانت أسرة بنى عبد الحكم على حظ وافر من الثراء ، لكن الأهم من ذلك هو اشتهارها بالعلم ، خاصة رواية الحديث وتحقيقه ، ورواية الحديث كانت تقتضى توفر شروط معينة فى صاحبها ، إذ لابد أن يكون ملمًا بكافة الأسانيد ، ومعرفة الرواة الذين ينقل عنهم ، والقدرة على المقارنة ، بشكل عام كانت رواية الحديث هى المدخل الطبيعى الذى بدا منه المؤرخون الإسلاميون ، كان والده مؤرخًا وإخوته من كبار المحدثين ، وبالطبع نشأ عبد الرحمن بن عبد الحكم فى هذه البيئة العلمية ، وتأثر برواية الحديث وانتقل بسهولة إلى رواية الأخبار ، وهكذا

كان أول مؤرخ فى مدرسة التاريخ العربى لمصر ، ولكن هذا لا يعنى أن الظروف كانت سهلة ممهدة أمامه ، لقد نزلت محنة قاسية على الأسرة بعد وفاة والده أثناء الفتنة التى تسبب فيها الخليفة العباسى الواثق بالله فتنة خلق القرآن ، لقد رفض الأبناء الاعتراف بمذهب خلق القرآن كما رفضه غيرهم المتمسكون بالأصول وبسبب ذلك عانوا عذاب السجن ، ومات أحد الأخوة فى سجن يزيد التركى معذبًا بالسوط ، والشوى بالنار ، كما أصيبت الأسرة بمحنة مالية واجتماعية عندما عهد إليهما أن تكون حارسة على أموال أحد الولاة الذين صادرت الدولة أموالهم ، وعندما أرسلت الدولة من يحاسبهم لم تستطع الأسرة تسديد حساباتها فزج بهم فى السجون ، وصودرت أملاكهم ، فى ظل تلك الظروف الوعرة نشأ مؤرخنا ، اتجه فى مسيرة دراسته إلى التاريخ ، ولا شك أن المضمون التاريخى لمصر ، سواء المتناقل ، أو المتمثل فى الآثار القديمة كان مصدر وحى له على الإحساس بالتاريخ وتدوينه وهكذا يفتتح كتابه بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالقبط أهل مصر ، ثم يذكر بعض فضائل مصر ، ومحاسنها ، والآيات القرآنية التى ذكرت مصر ، أو الأحاديث النبوية ، ولأول مرة يقدم مؤرخ على تدوين تاريخ البلاد كتاريخ وطن محلى ، ليس جزءًا من تاريخ بلدان أخرى ، أو ليس مذكورًا عرضًا ، ومن خلال هذا الوطن العربى الجديد ، يرصد ابن عبد الحكم تاريخ الوطن الأشمل الممتد غربًا حتى المحيط وشرقًا حتى فارس والصين ، ولأول مرة تصبح مصر العربية هى بؤرة كتاب مستقل لمؤرخ دقيق ، يدون ، ويسجل ، وهنا نجد شكلاً جديدًا للتدوين التاريخى ، لقد ساير المحدثين فى روايتهم الأسانيد ، وخالف المؤرخين فيما اتبعوه من تصنيف ، مثل البلاذرى المتوفى سنة ٢٦٩هـ ، أو الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، والدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، فقد نهج منهجًا فريدًا فى كتابة التاريخ المفصل للإسلام والعرب فى مصر من مصادره الشفوية والتحريرية ، وتتمثل الأخيرة فى مخطوطات المؤرخين الذين سبقوه ، مثل يحيى بن عبدالله بن بكير ، وأبن لهيعة ، والليث بن سعد ، ويزيد بن حبيب ، كان ابن عبد الحكم دقيقًا إلى حد أنه كان يهتم بمصدر الحدث أكثر من اهتمامه بالمضمون نفسه وبالإضافة إلى ذلك تبدو رؤيته الشخصية وملاحظاته والروايات المتناقلة ، ومعاينته للأماكن وهذا ما اعتمد عليه بشكل أساسى فى الجزء الخاص بخطط الفسطاط ، لقد كان ابن عبد الحكم أول من سجل تفاصيل الخطط التى ازدهرت فيما بعد على أيدى القضاعى ، والمسبحى ، وبلغت قمتها على يدى المقريزى ، ومن المتأخرين على مبارك ، يقول ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، إن ابن عبد الحكم كان من أهل الحديث والتاريخ ، وكان أول من انفرد من مؤرخى جميع الأقطار الإسلامية بكتابة التاريخ المحلى لبلد معين ، إن المادة التى جمعها ساعدت على إظهار دور مصر فى فجر تاريخها العربى ، ودورها فى خدمة العروبة والإسلام .

ماذا فى تاريخ ابن عبد الحكم ؟؟

يتكون « فتوح مصر والمغرب » من سبعة أقسام ، نلاحظ الرقم سبعة السحرى هنا الجزء الأول يختص بفضائل مصر ، إنه الرحيل مع الأسطورة كان التاريخ القديم لمصر قد أصبح موغلاً فى البعد ، نائيًا غامضًا تقوم الآثار أو « البرابى » كما كانوا يسمونها ، ولا يدرى أحد سر القلم الغريب الذى كتب هذه النقوش ، ويذكر المقريزى أن الأهرام كان مغطى بأكمله بالكتابة ، لقد انمحت فيما بعد ، ولنا أن نتصور مدى ما كان سيكشف لنا من أسرار لو وصلت إلينا هذه الكتابة الهيروغليفية ، لكن نفس هذه اللغة كانت تحير المؤرخين القدامى ، من هنا أوجدوا تاريخًا بديلاً ، تاريخًا أسطوريًا كبديل للتاريخ الواقعى ، ويعد هذا التاريخ هو الأساس الذى نقل عنه المؤرخون الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم ولا توجد أى علاقة بين التاريخ الأسطورى لمصر ، والتاريخ المدون الذى عرف بعد اكتشاف أسرار اللغات الفرعونية ، فيما عدا بعض النقاط المحددة ، كذكر الصراع بين الفرس والروم .

فى الجزء الثانى من الكتاب يتنقل ابن عبد الحكم إلى الفتح الإسلامى لمصر بقيادة عمرو بن العاص ، وهنا يعتبر ابن عبد الحكم من أقدم المؤرخين الذين وصلتنا كتاباتهم عن تاريخ مصر فى العصر العربى الأول ، وهو أقربهم إلى عصر الفتح يورد حركة الجيش العربى فى مصر حتى فتح الفسطاط ، ثم فتح الإسكندرية ، وعند حديثه عن تاريخ الإسكندرية يقول إن الذى أسسها هو ذو القرنين الرومى واسمه الإسكندر، وبه سميت الإسكندرية ، ولكن سرعان ما يورد أساطير حول الإسكندرية ، ويذكر معلومات دقيقة حول عدد السكان ، ويحصى عدد السكان بمصر ويقدرهم بستة ملايين نفس ، وكانت الجزية المقررة على كل منهم دينارين ، وتؤيد المراجع العلمية الحديثة تقديره لعدد سكان مصر ، ولكنها تختلف من حيث تقديره للمبالغ المتحصلة من الخزينة ، ويذكر أنه عندما خرج الوالى ابن رفاعة إلى الريف ، أحصى حوالى عشرة آلاف قرية ، ويستمر فى رسم صورة دقيقة للإدارة العربية ، من حيث جباية الخراج ، ونظام الضرائب ، والإدارة ، ومن خلال الأحداث يروى ترحيب المصريين بالفتح العربى .

« إنه كان بالإسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين « بنيامين » فلما بلغه قدوم عمرو ابن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانًا لعمرو» .

« جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم » .

ويذكر أن عمـرو بن العاص اهتم بالاستفسـار من أهالى البلاد أنفسهم عـن أفضل سبيل للإدارة ، وقد أجابه الأسقف بنيامين قائلاً :

« تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه ، أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويرفع خـراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كـرومهم ، ويحفر فى كل سنة خلجها وتسد ترعها ، ولا يقبل محل أهلها يريد البغى ، فإذا فعل هذا فيها عمرت ، وأن عمل فيها بخلافه خربت » .

وقد نفذ عمرو بن العاص وصية الأسقف بنيامين بحذافيرها ، واستطاع بذلك تقليص حد المظالم ، وتطهير الأجهزة الإدارية من الفساد ، وانتقلت العـاصمة الإدارية من الإسكندرية إلى الفسطاط وعنـدما استقر عمرو بـن العاص فى الفسطاط بنـى دارا للإمارة وأرسل إلى عمـر بن الخطاب يعلمه بذلك ، فكتب إليه عمر بن الخطاب قائلاً : « إنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر » ، وأمره بأن يجعلها سـوقًا للمسلمين ، وكان ذلك يتفق مع حـرص عمر بن الخطاب على البسـاطة ، ثـم أنشأ « الـديوان » الذى يضبـط الأمـوال ويقرر العطاء المفروض للجنـد وأسرهم، طبقًا لـلأسس التى وضعها عمر بن الخطـاب ، ويذكر ابن عبد الحكـم جهود عمر من أجل التنسيق بين الإدارة الإسـلامية الجديدة ، وأشكال الإدارة القديمة ، ويـذكر أن عمرو بن العـاص كان حريصًـا على شرح التنظيمات الإدارية الجديدة ، للنـاس عن طريـق الخطب العامة ويورد نصًا لخطاب مطول ألقاه عمرو بـن العاص فى يوم جمعة من أيام عيد الفصح سنة ٦٤٤ م ، ويعد من أقدم الـوثائق التى توضح أسس التشريـع الإسلامى فى مصر ، وركز على اهتمام عمرو بن العاص بتعمير مصر حتى أنه كـان لا يرسل الخراج إلى الخليفة إلا بعد اقتطاع كل مـا تحتاج إليه البـلاد من أجل « حفـر خلجانها وإقامـة جسورها ، وبنـاء قناطرهـا وقطع جـزائرها » وذلـك عملاً بنصيحـة بنيـامين ، ويفرد ابـن عبد الحكـم فصـلاً كامـلاً يورد فيـه المكاتبـات التى تـم تبادلها بين الخليفـة عمر بن الخطـاب ، وحاكـم مصر عمرو ابـن العاص بسبب تأخر وصول الخراج ، وعنوان الفصل « ذكر استبطاء عمر بن الخطاب عمرو بن العاص فى الخراج » .

أما الجزء الثالث فيضم الخطط ، وعرض فيه ابـن عبد الحكم للخطط والأرباع التى أقامها العرب فى الفسطـاط والجيزة . لقد أوضح خطـط مصر الأولى ونزول القبائل بالفسطـاط وقيام المساجد والمنـازل الأولى ، كذلك خطط الإسكندريـة وتتبع نموها فى عهد حكـامها العرب ، وفى هذا القسـم يعتبر ابن عبد الحكم هو الـواضع الأول لأسس الخطط المصرية ، ومنه استفاد كافة المؤرخين الذين جاءوا بعده . .

فى الجزء الرابع يصف إدارة مصر تحت إمارة عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد ، ويذكر فتح الفيوم ، وبرقه ، طرابلس ، بقيادة عمرو بن العاص ، ويذكر فتح النوبة وشمال أفريقيًا بقيادة عبد الله بن سعد ، وثورة الإسكندرية وفتحها الثانى ، وينتهى هذا الجزء بوفاة فاتح مصر عمرو بن العاص .

أما الجزء الخامس فيخصصه لفتح شمال أفريقياواسبانيا ، حتى سنة ١٣٠ هـ تقريبًا ، وتبدو فتوح المغرب هنا وكأنها تكملة طبيعية لفتح مصر ، وسوف نلاحظ فيما بعد أن مؤرخى مصر العربية نظروا إلى الغرب على أساس أنه امتداد جغرافى طبيعى لمصر ، وتكمن أهمية ابن عبد الحكم كمصدر فى تاريخ الفتوحات العربية فى المغرب إلى أنه مصرى ، وأن القوات العربية كانت تخرج من مصر ، وإليها كانت تعود بالمغانم ، وتصدر روايته أقدم وأكمل رواية فى هذا الموضوع وحتى القرن الثالث الهجرى ، والملاحظ أن رواية ابن عبد الحكم تستند إلى مصادر محددة ولم تخلط الواقع بالأسطورة ، ويحوى الجزء السادس تاريخًا مختصرًا لقضاء مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ ، أى قبل وفاة المؤلف بعشر سنوات . . ويضم الجزء السابع مختارات من الأحاديث والروايات المنسوبة لأصحاب رسول الله الذين وفدوا على مصر ، وقد ذكر ابن عبد الحكم اثنين وخمسين صاحبيًا .

عرف كتاب « فتوح مصر والغرب » بدءًا من القرن الخامس الهجرى ، حين بدأ بعض المؤرخين يروون عن ابن عبد الحكم ، ثم بقيت نسخ الكتاب مخطوطة يتناقلها الرواة والمؤرخون ، وعرف الكتاب طريقه إلى المطبعة فى القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٦م ، عندما نشر جزء من الكتاب ، ثم نشر جزء آخر سنة ١٨٥٨ ، ثم نشر جزء ثالث عام ١٩١٤ ، وتم نشره كاملاً لأول مرة على يد المستشرق الإنجليزى شارل تورى عام ١٩٢٠ وطبع فى جامعة « ييل » ، ثم نشر الجزء الخامس عام ١٩٤١ فى الجزائر ، وهو الخاص بفتوح المغرب والأندلس ، وفى سنة ١٩٦١ نشر الأستاذ عبد المنعم عامر جزءًا من الكتاب وضع له عنوانًا « القسم التاريخى » ، ولكن لم ينشر القسم الثانى ، أى أن الكتاب لم يطبع كاملاً حتى الآن باللغة العربية ، غير أن أهم ما تم بخصوص ابن عبدالحكم تلك الندوة التى عقدتها الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٧١ وخصصتها لدراسة « ابن عبد الحكم » ثم صدرت مجموعة الدراسات فى كتاب عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٥ ، ليتنا نقرأ عن تحقيق ونشر الكتاب كاملاً ، ذلك الكتاب الذى يحفظ للزمن نضارة وجه مصر العربى فى زمانه الأول !.

* * *

النجـــوم الـزاهـــرة

لابـن تـغـرى بـردى

« تتوالى السنون كالنجوم الزواهر أمام ابن تغرى بردى المؤرخ المصرى الكبير ، لم تتلاش ولم ينطفىء بريقهـا ، لأنه أمسك بأحداثها ونبضهـا بين دفتى كتابه الضخم « النجـوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الذى ألفه « ليقتدى كل ملك يأتى بعدهم بجميل الخصال ويتجنب ما صدر منهم من اقتراف المظالم وقبيح الفعال » .

إنه يبدأ كتابه بتلخيص ما تضمنه :

« استفتحـه بفتح مصر ، وعلى أى وجـه فتحت ، وجمع فى ذلـك أقوال مـن اختلف مـن المؤرخين وأهل الأخبار ، ثم ذكر من وليها من يوم فتحت ، وما وقع فى دولته من العجب ، ثم ذكر أيضًا مـا أحدث صاحبها أيام ولايته مـن الأمور ، وما جدده ، من القواعـد والولايات فى مدى الدهور . . . » .

إلى ركن هادئ من داره الكبيرة التى كانت مـن أجمل دور القاهرة وأوسعها وأكثرها حسنًا ، كان ابن تغـرى يقبع يوميًا لينظـم النجوم الزاهرة ويضيف الأيـام تلو الأيام ، مبتدئًا كتـابه من الفتح العربى لمصر وليس منذ بدء الخليقة كما جرت عليه سنة المؤرخين الآخرين الكبار ، وعلى الرغم من أصل ابن تغرى بردى المملوكى الرومى «اليونانى » فإننا نجد فى النجوم الزاهرة مجمعًا ثريًا للثقافة العـربية التى حصلها المؤلف ، ويعكس هذا قوة الثقافة العـربية وعمق تأثيرها فى هؤلاء المماليك الغرباء أصلاً عن المجتمع الذى جاءوا إليه من بلادهم ، والذى صهرهم فيه ولم ينصهر فيهم ، تبـدو ثقافة مؤرخنـا فى اطلاعه الواسـع على مصادر التاريخ الـذى يكتب عنه خاصة الحقب التى لم يشاهدها ولم يدركها ، إنه لا يكتفى بالنقـل عن مؤرخ واحد ، إنما يورد أكثر مـن نص لأكثر مـن مؤرخ ، وعلى سبيـل المثال فإنـه عندما يـدون أحداث عصر كـافور الإخشيدى يستند إلى أكثر من رواية لأكثر من مـؤلف الحافظ « أبو » عبد الله الذهبى فى تاريخ الإسلام ، و « أبو » المظفر فى تاريخه مرآة الزمان ، و« أبـو » جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر

العلوى النسابة ، وابن زولاق ، وعندما يورد أخبار المتنبى مع كافور يبدؤها على لسانه «قلت : ونتذكر حينئذ أحوال المتنبى . . . »[1].

وعبر النجوم الزاهرة تتناثر مقتطفات شعرية عـديدة أكثر من أى كتاب آخر من مصادر التاريخ الأخـرى ، هذه المقتطفات تعكس ثقافـة المؤرخ العربية ، وتعكس أيضًا حسًـا مرهفًا بالتاريخ وانقضاء الزمن وتغير الأحوال .

بعد موت كافور الإخشيدى يورد ما كتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفردًا بالصحصح المر [2]	بـعـد العسكر اللجب
يـدوس قبـرك أحـاد الرجـال وقـد	كانـت أسود الشـرى تخشاك فى الكتـب

وعندما يذكر وفاة محمد بن الحسين بن على الأنبارى الشاعر يأتى بمقتطف من شعره :

أبكـى وتبكـى الحمام لكـن	شتـان مـا بينهـا وبينـى
تبكـى بعين ، بغير دمـع	وأبكـى بـدمـع بغير عين

ولا يكتفى بـذلك إنما يـورد نصوصًـا أخرى مماثلة ويقـارن فيها بينها ويقـول «أعجبنى فى هذا . . . » أو « ربما يجيش فى بالى أيضًـا بهذا المعنى قول القائل . . . » وعند ذكره لـوفاة محمد بن عتيق القيروانى[3] يذكر إنشاده لبيتين من أبى العلاء :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة	وحـق لسكـان البسيطـة أن يبكـوا
وتحطمـنا الأيـام حتى كأننـا	زجـاج ولكـن لايعـاد لنـا سبك

وعند وفاة عبد الكريم بن حمزة بن الخضر الدمشقى يذكر أبياتًا من الشعر[4] :

الضيـق مرتحل والمـال عـاريـة	وإنما النـاس فى الدنيـا أحاديـث
فـلا تغـرنـك الدنيـا وزهـرتهـا	فإنهـا بـعـد أيـام مـواريـث

وفى نفس السنة يورد شعرًا على لسان أحد الذين رحلوا . .

إن الليـالى لـلأنام منـاهـل	تطوى وتبسـط بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة	وطوالهن مـع السرور قصار

وعندما تجىء الأخبار بموت الأمير جان بك الصوفى يذكر . .

إذا تـم أمـر بـدا نقصـه	تـوقَّ زوالها إذا قيـل تـم[5]

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧ .

(٢) المر : المفازة التى لا نبات فيها .

(٣) الجزء الخامس أحداث سنة ٥١٢ ص ٢١٧ .

(٤) الجزء الخامس أحداث سنة ٥٢٦ ص ٢٤٩ .

(٥) النجوم الزاهرة الجزء الخامس عشر ص ٨٧ .

ويذكر قول القائل فى معرض الحديث عن تقلب أحوال أمير . .

ويوم سمين ويوم هزيل	ويوم أمر من الحنظلة
وليل أبيت جليس الملوك	وليل أبيت على مزبلة

* * *

كان ابن تغرى بردى الواسع الثقافة ملما بالموسيقى ، وعلم النجوم ، وانعكس ذلك فى كتابه عند وصفه الدقيق للظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف ، أو ظهور المذنبات، وتبدو معرفته بالموسيقى عند ما نقرأ ترجمته لوفاة مغنٍ مصرى . . « وتوفى الأستاذ المادح المغنى ناصر الدين محمد المازونى الأصل ، المصرى ، أحد الأفراد فى إنشاد القصيد وعمل السماع ، فى ليلة الجمعة ثامن من جمادى الأولى بعد أن ابتلى بمرض الفالج ، وبطل نصفه ، وسكت حسه ، وكان من عجائب الدنيا فى فنونه ، كان صوته كاملاً ، مع شجارة وندارة وحلاوة ، كان رأسًا فى إنشاد القصيد على الضروب والحدود ، سافر غير مرة إلى الحجاز حاديًا فى خدمة الأكابر ، وكان له تسبيح هائل على المآذن ، ففى هذه الثلاثة كان إليه المنتهى ، وكان يشارك فى الموسيقى جيدًا . . »(1).

وكان ابن تغرى بردى ملمًا بفنون القتال والفروسية إلى جانب ثقافته العريضة وذلك بحكم نشأته بين المماليك ، لقد كان لهذه النشأة تأثير كبير عليه ، وبالتالى على ما كتب ، ولد ابن تغرى بردى من أب مملوكى ، كان أبوه رومى الأصل أى يونانيًا جاء به تجار الرقيق إلى الملك الظاهر برقوق ثم سلمه إلى معلم لقنه مبادئ الإسلام واللغة العربية ، وعندما بلغ مرحلة الشباب أعتقه الملك الظاهر وظل يتدرج فى المناصب حتى تولى نيابة الشام سنة ٨٠٣ هـ ، وكانت من أجل وظائف الدولة وترشح صاحبها لولاية السلطنة ، غير أن القيادات السياسية أدركته عند قيام الدولة المملوكية الجركسية فعزل عن وظيفته مرات ، واضطر إلى الفرار من مصر إلى الشام وأثناء غيبته تزوج السلطان الناصر من ابنته فاطمة أخت المؤرخ ، ثم عفا السلطان عنه وأولاه أحد المناصب الحربية الرفيعة ، فى بداية سنة ٨١٥ هـ توفى الأمير تغردى بردى وكان ابنه أبو المحاسن «مؤرخًا» لم يبلغ بعد الثانية من العمر ، عنى بتربيته زوج أخته الثانية قاضى القضاة ، نصر الدين بن العديم ، ثم زوجها الثانى ، قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ، درس ابن تغرى بردى علوم الكلام والنحو والبيان على جماعة من أعلام العصر ، ومنذ صغره ، أحب التاريخ ، ودفعه هذا إلى حضور مجلس المقريزى أعظم مؤرخى العصر ، درس عليه ، وصاحبه ، كما استفاد أيضًا من بدر الدين العينى أحد المؤرخين الكبار فى ذلك العصر ،

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٦ ص ١٩٢ أحداث سنة ٨٦٢ .

بالإضافة إلى ذلك فقد تعلم على يد أكابر مماليك والده أنواع الفروسية وفنون القتال ، وبهذا يكون قد جمع بين النشأتين الأدبية والدينية والنشأة العسكرية ، بالإضافة إلى حياة هادئة يكفلها إقطاع كبير يدر عليه دخلاً وفيرًا . وحقق له ذلك نوعًا من التفرغ بعيدًا عن مشاغل المناصب ، أو تقلبات السياسة ، ولم يكن هذا يعنى أنه يعيش على هامش المجتمع المملوكى ، إنما كان باعتباره أحد كبار أولاد الناس قريبًا من بلاط السلاطين ، يطلع فى كل أسبوع إلى القلعة ليحضر مجلس العلماء الذى يعقد بين يدى السلطان ، تربطه صداقات وطيدة بكبار الأمراء ، وفى بداية الجزء الخامس عشر من النجوم الزاهرة « ٨٢٦ هـ » نجد وصفًا دقيقًا لحملة السلطان الأشرف برسباى على مدينة آمد ، وكان ابن تغرى بردى من المماليك الذين توجهوا لمفاوضة قرايلك الذى جردت ضده الحملة ، وفى عهد السلطان جقمق ازدادت صلته بالبلاط المملوكى ، ولم يتغير وضعه أيام الأشرف اينال ، أو فى عهد خشقدم ، حتى عهد السلطان قايتباى الذى لم يدونه كله فى نجومه الزاهرة وذلك لوفاته .

لقد أدت صلته الوطيدة بالسلاطين والأمراء باعتباره أحد أفراد المماليك إلى أن يعكس أدق صورة ممكنة للمماليك الذين حكموا مصر ، طبائعهم وعاداتهم ، وأسلوبهم فى الحكم ، لقد كان على علم أكثر من غيره بأحوال المماليك ودخائلهم ، كما أن هذا يجعله ثقة فى دقة الأخبار التى أوردها خاصة عن الفترة التى عايشها بنفسه والتى انفرد فيها بتدوين الأحداث بعد وفاة المقريزى وحتى عام ٨٧٣ هـ ، وأدى هذا بالتالى إلى توارى أخبار الحياة اليومية للشعب المصرى وافتقارها فى النجوم الزاهرة .

إن أخبار الشعب لا نجدها فى النجوم الزاهرة إلا كصدى بعيد لكيفية انعكاسها على المماليك والسلطة الحاكمة ، فكأنها إشارات باهتة ترسلها الأرض إلى النجوم الزاهرة غير أننا نستطيع أن نرصد حركة الشعب المصرى بشكل عام خلال الفتن التى أثارها المماليك ، ويمكن القول إن الشعب لم يكن يقف متفرجًا أو ساكنًا إنما كان ينحاز أحيانًا إلى بعض أطراف الصراع ، وكان لهذا الانحياز تأثيره فى الغالب . .

* * *

عندما يقتل الأمير علم الدين سنجر ابن عبد الله الشجاعى المنصورى ، أحد مماليك السلطان قلاوون وكان سيئ السيرة غليظ القلب ، فرح أهل مصر بقتله فرحًا زائدًا ، وعندما طاف المشاعلية برأسه كان الناس يتزاحمون ليلطموا رأسه أو ليبولوا عليه ، ولشدة الزحام بلغ سعر اللطمة نصف درهم والبولة درهمًا كاملا .

وعندما يضيق السلطان الناصر قلاوون بتحكم بعض أمرائه فيه ويقرر التخلص منهم ،

فيبادر الأمراء بالركـوب عليه ، عندئذ يتجمع العامة أمام القلعة « كـان جمعهم قد كثر ، وكان من عادتهم أنهم لا يريـدون أن يلي الملك أحد من المماليك ، بل إن كـان ولابد يكون الذى يلى الملك من بنى قلاوون ، وكـانوا مع ذلك شديدى المحبة للملك النـاصر محمد بن قلاوون » ، «وتكاثـر جمعهم وصاروا يـدعون للسلطـان ويقولون « الله يخون الخائن الله يخون مـن يخون ابن قلاوون » . واضطر المماليك إزاء تمسـك العامة بالملك الناصر إلى التراجـع « فبعث الأمراء عند ذلك ثانيًا إلى السلطان بأنهم مماليكه وفى طاعته»(١) .

وعندما توجه الملك الناصر بن قلاوون من الديار المصرية إلى الكرك منفيًا أنشد بعض عوام القاهرة :

أحبـة قلبـى إننـى لـوحيـد ... أريـد لقـاكـم والمزار بعيـد
كفـى حزنًـا أننـى مقيم ببلـدة ... ومن شـف قلبى بالفراق فـريد
أجول بطرفى فى الـديار فلا أرى ... وجـوه أحبـائى الـذيـن أريـد

وعندما عزل السلطان بـرقوق كثر الدعاء من العامة لـه ، وكثر الأسف على فقده ، صاروا يقولون « راح برقوق وغزلانه ، وجاء الناصرى وتيرانه » ، وعندما وقعت الفتنة الكبرى بين الأمير الكبير يلبغا النـاصرى وبين الأمير تمربغا الأفضلى المدعو بمنكـاش « ٧٩٠ هـ » ، فإن العـامة ينحازون إلى جـانب منكـاش ويشتركون فى المعـارك الدائرة بـالقاهـرة ، لكن لا يعنـى هذا أن الشعب كـان يلعب دورًا رئيسيًا فى حسم الصراع الـذى يقوم بين المماليك ، نلاحـظ أن هذا لم يحدث إلا عند الانحياز إلى جانب حكام يشعر الشعب بحاسته المرهفة أنهم عادلون وأقل ظلمًا مـن غيرهم ، ونـلاحـظ أن موقـف النـاس بشكل عـام كـان سلبيًا خـاصـة فى عصر الدولـة الجركسية ، لم يكـن الصراع الذى يجرى فى القلعـة يهمهم إلا بـالقدر الـذى يهدد الأمن وحيـاة النـاس ، ويفسح ابن تغرى بردى المجال فى كتـابه لحوادث قليلة تعكس ما يجرى بين النـاس ، فعندما قرر الأشرف بـرسباى منع الشحاذين يصف ابن تغرى بـردى أحوالهم ويستحسن قرار السلطان ، وفى يوم الجمعـة تاسع شوال سنة ٨٤١ هــ يصف ما جرى بين العامـة عندما لهج الكثيرون بأن القيامة ستقوم يوم الجمعة ويمـوت الكل ، تخوف العامة من ذلك ، وتزاحموا على باب الحمامـات ليموتوا على طهارة كـاملة ، وركب ابـن تغرى برى أيضًا ومضـى إلى الأزهر ، وتصادف أن الخطيب أغشى عليه فوق المنبر فاضطرب الناس اضطرابًا عظيمًا .

وفى يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة سنة ٨٦٠ هـ ، يورد ابن تغرى بردى صورة لما

---

(١) النجوم الزاهرة أحداث سنة ٦٩٨ هـ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ الجزء الثامن .

يحل بالناس من الرعب عند وقوع الفتن بين المماليك ، فأثناء إحدى ثورات المماليك تصادف خروج جهاز عرس لابنة أحد الأمراء ، « وحمل ذلك على رؤوس الحمالين والبغال كما هى عادة المصريين ، وسار الحمالون بالمتاع فوقع من فوق رأس بعضهم قطعة نحاس ، فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد ، فحنق الجندى من فرسه وضربه ، ثم ساقه ، فلم تشك العامة أن المماليك نزلوا إلى نهب حوانيت القاهرة ، فأغلقت القاهرة فى الحال وماجت الناس ، وتعطلت المعايش ، وحصل على الرعية من الانزعاج أمر كبير من غير موجب » .

* * *

يقدم ابن تغرى بردى فى نجومه الزاهرة عددًا كبيرًا من تراجم أمراء المماليك ورجال عصره ، إنه يصف لنا دخائل الأمراء وكبار المماليك ، ينقل عن والده أحداث الفتن التى جرت أيام الظاهر برقوق ، وينقل عن عدد من أصدقائه الذين كانوا من كبار رجال الدولة ، أنه يحدثنا عن ثورات المماليك ، وأساليبهم فى الركوب على القلعة ، ورميهم عليها بالنقوط ، كانت القلعة رمزًا للسلطة فى مصر وتعبيرًا عن مركزيتها الشديدة فبمجرد الاستيلاء عليها يتم الاستيلاء على السلطنة كلها ، كما يقدم لنا أساليب المماليك فى الصراع ، وكيف يتنحى الواحد منهم بعد بلوغه أعلى المراتب لمجرد وشاية عليه ، أو شكٍّ من السلطان يستقر فى أعماق نفسه .

وعلى الرغم من انتماء ابن تغرى بردى إلى المماليك ، فإنه كان أحيانًا يسجل ما يحيق بالناس من ظلمهم وجورهم عندما وقع الطاعون بالقاهرة أول شهر رمضان «٨٤١هـ» أقنع الفقهاء السلطان بمنع النساء من الخروج إلى الطرقات ، ومال السلطان إلى منعهن من الخروج إلى الطرقات ظنًا منه بأن منعهن سيرفع الطاعون ، وهكذا تعطل البيع بواسطة النساء وصارت المرأة لا تستطيع تشييع جنازة ولدها إذا مات ، ويعلق على ذلك قائلاً « كل ذلك لعدم أهلية الحكام واستحسان الولاة على الخواطئ ، وإلا فالحرة معروفة ولو كانت فى الخمارة ، والفاجرة معروفة ولو كانت فى البيت الحرام » . .

وفى ترجمته للأمير تغرى برمش الذى كان على صلة بوالد المؤلف يقول « . . وكان عارفًا بأمور دنياه وأمر معيشته متجملاً فى مركبه وملبسه ومماليكه ، إلا أنه كان بخيلاً ، شحيحًا ، حريصًا على جمع المال ، قليل الدين ، لا يحفظ مسألة تامة فى دينه ، مع قلة فهم وذوق ، وغلاظة طبع ، على قاعدة أوباش التركمان ، وكان عاريًا من سائر العلوم والفنون ، غير ما ذكرنا ، لم أره منذ عمرى مسك كتابًا بيده ، ليقرأه ، هذا مع الجبن وعدم الثبات فى الحروب »[1].

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٥ ص ٤٧٣ .

وفى ترجمته لصهره يقول عنه :

« وكان عارفًا بـأنواع الفروسية كلعب الرمح وضرب الكرة وسـوق المحمل والبرجاس ، رأسًا فى ذلك جميعًا ، إمام عصره فى ركوب الخيل ومعرفـة تقليبها فى أنواع الملاعب المذكورة ، انتهت إليه الرئاسة فى ذلك بلا مدافعة ، لا أقول ذلـك لكونه صهرى ، بل أقوله على الإنصاف ، مع دين وعفة عن المنكرات والفروبج ، وقيام ليل وزيارة الصالحين دومًا ، غير أنه كان مسيقًا وعنده حدة مزاج ، ولم تكن شجاعته فى الحروب بقدر معـرفته لأنواع الملاعيب والفروسية[1] ، وعلى الرغم من المركز المرموق الذى وصل إليه فى عهد الظـاهر جقمق إلا أنه يذكر فى ترجمته له عجز خزانة الدولـة ، ونقص الاستعدادات العسكرية ، وينسب ما جرى بعـده من اضطرابات إنما بسبب قلة الأمـوال ، كما يقدم لنا صورة لما كـان يحدث بين المماليك والمتعممين ، أو السلطـة المدنية والدينيـة ، فعندما يـذكر ترجمة الأمير سيف الدين جارقطلـو أتابك العسـاكر بالديار المصرية الذى تـوفى عام ٨٣٦ هـ يتحدث عـن طيبته ، ويتطرق إلى جلوسه عند السلطان مع قاضى القضاة بـدر الدين العينى ، كان القاضى يشدد على ضرب الخمر ، فإذا زاد على الحد يقول جارقطلو « يا قـاضى ما تذكر إلا شربة الخمر وتبالغ فى حقهم بـأنواع العذاب ، ليس ما تـذكر القضـاة وأخذهـم الرشـوة والبراطيل وأمـوال الأيتام » ، ولقـد تطور الصراع بين هـاتين السلطتين ، المدنية والدينية حتى اتخذ طابع العنف فى أعوام ٨٥٤ هـ ٨٥٧ هـ حتى ٨٦٠هـ ، إذ يحدثنا ابن تغـرى بردى عما قام به المماليك الجلبان مـن تعد على المتعممين ، وإلحاحهم على السلطان فى طلب إقطاعات الفقهاء .

كما قدم لنا أيضًا صـورة للمصريين الذين كانوا يصلون إلى مراكـز الإدارة العليا فى الدولة ، وما كان يجرى عندما تنقلب الأحوال عليهم ، أو يتغير خاطر السلطان عليهم ، ويبدو ذلك واضحًا فيما جرى للقـاضى زين الدين عبد البـاسط ، الذى وصل إلى منصب نـاظر الجيوش المصرية ، وهودمشقى الأصل ، مصرى النشـأة ، جاء إلى مصر فقيرًا فلما تسلطن الملك المؤيد شيخ قربه وأدنـاه وولاه نظر الخزانة ، ولما عظم أمره سألنا فى السكن بعـض دورنا ، فأجبناه إلى ذلك »[2] ، وبعد أن وصل إلى منصب ناظر الجيش ، واستمر بـه سنينا بدأنجمه يأفل ، حتى قبض عليه فى عهد السلطان الظاهر جقمق ، وسجن ، وصودر .

وفى عهد الملك المظفر حاجى ، وفى يوم الثلاثاء أول المحرم سنة ٧٤٨ هـ ، قبض على نديم الملك وكـان اسمه الشيـخ على بن الكسيح ، وضرب بـالمقارع ضربًـا عظيمًا ، وقلعت أسنـانه

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٥ ، ٤٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة الجزء الحادى عشر ص ٢٤٨ .

وأضراسه ، ونوع له العذاب تنويعًا ، كان الشيخ على له حدبة فى ظهره ، كسيحًا لا يستطيع القيام ، إنها يحمل على ظهر غلامه ، تعرف بأحد الأمراء وصار يضحكه ، وعرفه الأمير بالملك المظفر ، فصاحبه الملك ، وعاقره الشراب ، ثم زوجه بإحدى حظاياه ، وصار يسأله عن الناس فنقل له أخبارهم على ما يريد ، وداخله فى قضاء الأشغال ، فخافه الأمراء وغيرهم خشية لسانه ، وراحوا يغدقون عليه الأموال ، وعندما مضت دولة السلطان المظفر حاجى ، تنبه إليه الأمراء ، فأمسكوه وسلموه إلى الوالى ، فعاقبه حتى هلك . .

أما الشيخ ناصر الدين ابن بنت الميلق فقد استدعاه السلطان الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٤ هـ ، وولاه قضاء الشافعية ، وفى البداية أظهر ابن ميلق تمنعًا زائدًا عن قبول القضاء وصلى ركعتى الاستخارة حتى أذعن ، وألبسه السلطان تشريف القضاء بيده وأخذ طيلسانه يتبرك به ، وهنا شعر كبار رجال الدولة بالخوف ، وظنوا أنه يحمل الناس على محض الحق وأنه يسير على طريق السلف من القضاة ، كان معروفًا عنه زهده ، وارتداؤه الثياب الخشنة ، والتجاهر بقول الحق ، وكان أول مابدا به أن عزل قضاة مصر كلهم من العريش إلى أسوان ، وبعد يومين تكلم أحد كبار الموظفين فى إعادة بعض المعزولين ، فاستجاب ، وهنا انكسرت هيبته ، ولم يقف الأمر عند ذلك إنما فوجئ الناس بأنه خلع الملابس الخشنة ، ولبس الشاش الكبير الغالى الثمن ، وبدا يترفع فى أحواله وأفعاله ، وبدا يجمع حوله جماعة مكروهة من الناس ، فانطلقت ألسنة الجميع بالوقيعة فى عرضه وسخطوا عليه . .

* * *

ينفرد ابن تغرى بردى بين كل مؤرخى عصره والسابقين واللاحقين عليه بأنه اهتم بفيضان النيل اهتمامًا خاصًا ، فى نهاية أحداث كل سنة يقول « أمر النيل فى هذه السنة ــ الماء القديم كذا ذراع ، مبلغ الزيادة كذا ذراع » ، لقد سجل تقلبات النيل منذ الفتح الإسلامى حتى عام ٨٧٢ هـ الذى يختتم به النجوم الزاهرة ، يرصد فى كل سنة أدنى مستوى وصلت إليه المياه أيام التحاريق ، وأعلى زيادة وصلت إليه أثناء الفيضان ، وكان متوسط انخفاض مياه النهر أيام التحاريق ما بين أربعة أذرع إلى سبعة أذرع فيما عدا بعض السنين التى انخفض فيها الماء إلى أقل من هذا المستوى ، مثل سنتى ٢٥هـ ، ٥٠ هـ ، وكان هذا الانخفاض يهدد المزروعات والأشخاص والحياة عندئذ تشح الغلال ، وتبدأ المجاعة وفى أثرها الوباء . كان النيل هو ترمومتر الحياة فى مصر ، فى أيام الفيضان يبلغ أعلى مستوى له ستة عشر ذراعًا إلى تسعة عشر ذراعًا ، والمستوى الأخير يهدد القرى والجسور بالغرق ، وكثيرًا ما وصل فيضان النيل إلى درجة الخطورة مثلما حدث فى سنة ٢٠ هـ وسنة ١٠٠ هـ ، وفى سنة ٥٤٣هـ ، وفى سنة ٧٧٦هـ ، وفى سنة ٨٠٠ هـ .

ويصف لنا ابن تغرى بردى مقاييس النيل المختلفة ، منذ أول مقياس أنشأه عمرو ابن العاص بأسوان ، ثم مقياس الجزيرة الذى أنشأه أسامة بن زيد التنوخى فى عهد سليمان بن عبد الملك ثم المقياس الكبير الذى أمر به الخليفة المتوكل العباسى فى سنة ٢٤٧ هـ . وهو الذى استخدم فيما تلا ذلك من سنوات فى قياس مياه النيل ، ومن عصره يسجل لنا المؤرخ مشهدًا كان يتكرر كثيرًا فى مصر كلما توقف النيل عن الزيادة أيام الفيضان ، إنه مشهد الاستسقاء ، فى يوم الأحد الرابع عشر من رجب سنة ٨٥٤هـ ، أمر السلطان أن يدور المحتسب على الناس ويعلمهم بأنه سيتم غدًا الاستسقاء فى الصحراء وفى اليوم التالى ، « خرج قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى ، إلى الصحراء ماشيا من داره بين الخلائق من الفقهاء والفقراء والصوفية ، إلى أن وقف بين تربة الملك الظاهر برقوق وبين قبة النصر قريبًا من الجبل ، ونصب له هناك منبر ، وحضر الخليفة وبقية القضاة ، وصاروا فى جمع موفور من العالم من سائر الطوائف ، وخرجت اليهود والنصارى بكتبهم ، وصلى قاضى القضاة المذكور بجماعة من الناس ركعتين خفيفتين ، ودعا الله سبحانه وتعالى بإجراء النيل ، وأمن الناس على دعائه وعظم ضجيج الخلائق من البكاء والنحيب والتضرع إلى الله تعالى ودام ذلك من بعد طلوع الشمس إلى آخر الساعة الثانية من النهار المذكور ، ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء والابتهال إلى الله تعالى ، فكان هذا اليوم من الأيام التى لم نعهد بمثلها . . » .

* * *

لابن تغرى بردى كتب أخرى ، منها « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » وقد ترجم فيه لأعيان عصره ، وهذا أول كتبه ، ثم أتبعه بكتاب مختصر فى التاريخ يعد تكملة لكتاب السلوك للمقريزى ، وتتبع فيه بالتسجيل أحداث مصر فى فترة زمنية قدرها اثنتا عشرة سنة تلى السنة التى توقف عندها المقريزى ، ثم بدأ فى تدوين كتابه الموسوعى الضخم « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » والفضل الأول فى بدء الاهتمام بنشر هذا الكتاب يرجع إلى المستشرقين الهولنديين جوينبل وماتس ، نشرا منه القسم الأول بين سنتى ١٨٥٢ و ١٨٥٣ ثم نشرا منه القسم الثانى فى سنة ١٨٥٧ ، وتضمن القسمان تاريخ مصر حتى سنة ٣٦٥ هـ ، وفى سنة ١٩٠٨ قرر قسم اللغات السامية بجامعة كاليفورنيا نشر النجوم الزاهرة وتولى مسئولية نشره المستشرق الأمريكى وليم بوبر ، فبدأ عام ١٩٠٩ بنشر الأجزاء التالية للقسمين اللذين تم نشرهما ، واستمر فى هذا العمل حتى ١٩٣٠ حيث أتم تلك المهمة العلمية الضخمة .

وفى سنة ١٩٢٨ بدأت دار الكتب المصرية فى طبع الكتاب ، وتم نشر اثنى عشر مجلدًا على مدى أربعين عامًا صدر آخر مجلد منها سنة ١٩٥٦ ، وتضمنت أحداث التاريخ المصرى حتى

سنة ٨٠٨ هـ ، وتضمنت هذه الأجزاء تعليقات قيمة لمحمد رمزى المفتش بوزارة المالية ومؤلف القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، وهذه التعليقات التى يتم من خلالها شرح الوظائف المملوكية والآثار والمنشآت التى يرد ذكرها ، وتحديد أماكنها الحالية فى قاهرة القرن العشرين سواء الباقى منها أو المندثر ، تعتبر جهدًا علميًا ضخمًا فى حد ذاته قد يغيب عن أعين الباحثين فى الهوامش والملاحظات .

ثم صدرت الأجزاء الأربعة الباقية ، الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، وكان صدور الجزء الأخير منها عام ١٩٧٢ ، وهكذا يكون الكتاب بأكمله قد تم تحقيقه وطبعه ، وبين دفتيه تستقر النجوم الزاهرة متاحة لكل من يهم بالترحال فى تاريخ مصر العربية ، أو دراسته . .

ابــــن إيـــاس
صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور

« اليوم سبت ، سادس عشر من شعبان ، عام اثنين وعشرين وتسعمائة ، فى المساء والليل مسدل فوق قاهرة ذلك الزمان المضطرب ، مضى الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، إلى بيتـه مرتجف الـروح ، مضطرب الفكـر ، فتـح صفحات كتـابـه «بدائع الـزهور فى وقـائع الدهور» تاريخه الكبير الذى بدأ يدون فيه تـاريخ مصر منذ بدء الخليقة ، كان يستعد ليضيف إلى أحداثـه أخطر ما سيـدونه ، كـان يشهد هذه الأيـام غير العادية التـى تتقرر فيهـا مصائر كبيرة ، ويلتوى مجرى أمم وتتحول حياة شعوب .

« اليوم أشيعت هذه الكـاينة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلـت لها الأقطار ، وما ذلك إلا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان ، الدوادار الثانى أحد الأمراء المقـدمين فذكر أن السلطان كان يكذب فى أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق ، إلى أن حضر مغلباى دوادار سكين وهو فى حال النحس بزمط أقرع على رأسـه ، وهو لابس كبر عتيق دنـس ، وراكب على أكديـش هزيل ، وقد نهب بـركة وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلـح وقاله له : قل لاستاذك يلاقينى عند مرج دابق . . . (١) .

لقد جاءت الأخبار بعد انقطاعها مدة طويلة تبلبلت فيها الخواطر ، وحارت النفوس ، بما جـرى فى مرج دابـق شمال حلب ، حيـث دارت الدائرة على جنـود السلطان الأشرف قنصـوة الغورى ، قتل من قتل ، وفر من فر ، ومات السلطان شهيدًا بعد أن بح صوته «وطق فى رأسه فرخ جمر ، وهو ينادى عساكره ، (يا أغوات . . . يا أمراء . . هذا وقت المروءة » ، غير أن ما كان مقدرًا جرى . . .

---

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ص ٦٨ .

وتصل تفاصيل الأحداث إلى ابن إياس ، ويسرد الوقائع كما تحقق منها كيف اصطف الجيشان ، كيف كان العسكر من المماليك المصرية مقومًا بألف إنسان من بنى عثمان ، وكيف هزم « العثمانية » أول الأمر ، غير أن الخيانة أطلت برأسها فقد خامر خاير بك أو (خاين بك) على السلطان فى الباطن ، مما جعل الدائرة تدور على جيش السلطان الغورى ، وينهى ابن إياس أخبار الموقعة المشئومة : « لم يقع لمصر من قبل مثل هذه الكاينة العظمى ، والحادثة المهولة » .

وبصبر المؤرخ ، وبأناة الشيوخ ينتظر مجئ الأخبار ، وقد ظلت هذه الأحداث وما جرى لمصر مادة ما تبقى من عمر ابن إياس وكتابه ، حتى عام ٩٢٨ هـ ، وليبقى الكتاب الضخم الذى تزيد صفحاته على الثلاث آلاف صفحة نابضًا بحب عريق لمصر ومنقذًا لفترة زمنية كاملة تزيد على الثلاثين عامًا شاهدها المؤلف يومًا بيوم ، تنبض الصفحات التى تدون سنوات الاحتلال العثمانى بأرقى آيات حب المؤلف للبلد الذى عاش فيه ، لقد كانت أصول ابن إياس غير مصرية ، لكن كتابه يفيض بوطنية صادقة ولكى نتتبع أصول عائلة ابن إياس يجب أن نعود مائة وخمسين سنة قبل الغزو العثمانى .

فى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اشترى مجموعة من بينهم مملوك اسمه أزدمر العمرى الناصرى أبو الذقن ، أصبح أحد مماليك السلطان الناصر ، تدرج فى مراتب الوظائف حتى صار من كبار الأمراء زمن السلطانين حسن وشعبان ابنى الناصر بن قلاوون ، فى أيامهما تولى إمرة السلاح ، ويمكن أن نجد بعض أخباره فى كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى ، ثم تقلد نيابة صفد ، وطرابلس ، وحلب ، وأخيرًا اختاره السلطان شعبان لنيابة دمشق عاصمة الشام ، لكن الموت لم يمهله فتوفى فى الطريق إليها سنة ١٣٦٦ م .

كان ازدمر العمرى جد ابن إياس لأمه ، أما جده لأبيه فهو الأمير إياس الفخرى ، أحد مماليك السلطان برقوق ، وكان دوادارا ثانيًا ، لكنه عزل عن وظيفته ، وأصبح هو وابنه أحمد ينتميان إلى فئة أولاد الناس ، وهذه الفئة كان لها موقع خاص ، فهى أبناء الأمراء الذين ماتوا وشغلت وظائفهم ، وكان المتبع أن يمنح الواحد منهم عددًا من الفداديس « إقطاع » يعيش منه ، بشرط اندماجه فى الجيش السلطانى عند نشوب الحرب ، ويكون صالحًا للخدمة فى إحدى الوظائف المدنية أيام السلم .

وبرغم ضخامة ما كتبه محمد أحمد بن إياس فنلاحظ أنه تحاشى الكتابة عن أسرته ، أو عن نفسه ، وبرغم ذلك يمكن التعرف من خلال كتابه الكبير على بعض المعلومات عن أبيه ،

كان أحمد بن إياس مـن أشهر فئة أولاد الناس ، وعلى اتصال دائم بمشاهير الـدولة من الأمراء والكبار ، عاش حـوالى أربع وثمانين سنة أنجب خـلالها عددًا كبيرًا من الأبناء ، بلـغ عددهم خمسة وعشرين ذكرًا وأنثى ، لم يوضح لنا ابن إياس تـرتيبه فى هذه الذرية الضخمة ، إنه يذكر مولده فى سطر عابر من تاريخه الضخم .

« وفى ربيع الآخـر من هذه السنة ، كـان مولد الناصرى محمـد أحمد بن إياس مؤلـف هذا التاريـخ ، وذلك فى يـوم السبت سـادس الشهر بعـد طلوع الشـمـس وسماه والده محمـد أبى البركات » [١] .

ويخبرنا أيضًـا أنه لم يبق مـن أخوته بعـد وفاة والده غير بنـت واحدة ، وصبيين اثنين هما : مؤرخنا نفســه ، وأخوه يوسف . فى هذه الفئـة « أولاد الناس » نشأ ابن إيـاس ، وكان لنشوئه فيها عاملان ، أولهما أنه بانتمائه إلى هذه الفئة جعله بعيدًا عن متناول مؤرخى العصر ، ومؤلفى السير والتراجم ، فتناءت عنا أخباره وسيره ، مما جعل المادة التى تصلنا عن حياته قليلة جدًا ، خاصة وأن ابـن إياس لم يخصص فى كتابه الكبير إلا مـا مجموعه نصف صفحة للحـديث عن نفسه أو عن عائلته .

أما العامل الثـانى ، والبالغ الأهمية فإن نشـوءه فى هذه الفئة جعله قريبًا مـن الحياة اليومية للشعب ، ممـا أفسح المكان فى تـاريخه لأخبار لا نجدهـا فى كتب التـاريخ الأخرى التـى كان مؤلفوهـا أعضاء فى السلطة المملوكيـة مثل ابن تغرى بـردى الذى كان وزيرًا . لقـد كان أولاد الناس بعيـدين عن صراع السلطـة ، ويمكن القول إنهم كانـوا يعيشون على هامـش المجتمع المملوكى الحاكـم ، لهذا كانوا قريبين إلى المجتمـع المصرى بطبقاته المتوسطـة والفقيرة ، أصبح ابن إياس من خلال هـذا الوضع قريبًا من الهموم اليومية لرجـل الشارع ، معايشًا لها ، وحياة الشعب تبرز لنا حية ، متدفقة من خلال أدق الأخبار التى أوردها ابـن إياس جنبًا إلى جنب مع أخبار السلاطين والحروب والصراعات .

* * *

« وفى ذى الحجـة ، جــاءت الأخبـار بـوقــوع فتنـة عظيمـة بين أولاد ابـن عثمان ملـك الروم ، وفيه عز وجود الفلفل من مصر ، حتى بيع كل حمل فلفل بمائة دينار . .) [٢] .

« ومـن الحوادث فى غيبة السلطـان ، فى شهـر رمضان ، وجـد إنســان سكران ، فقبـض

---

(١) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٢٦٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٥ أحداث ذى الحجة ٨١٥ .

عليه وضرب الحد ، ثم طيف به القاهرة ، فلما وصل إلى الصليبة ، ثارت عليه العوام فقتلوه وأحرقوه بالنار . . . »(1) .

« وفى شوال ، جلس السلطان للحكم بين الناس فى الاصطبل ، وضرب فى ذلك اليوم ابن الطبلاوى والى القاهرة بالمقارع ، وكان لذلك سبب ، وذلك أن شخصًا غرق لـه ولد ، فلما شاوروا الوالى فى دفن الميت ، فلم يمكن أباه من دفنه حتى يحضر له خمسة دنانير، وكان أبو الغريق فقيرًا ، فلم يقو على ذلك القدر الذى قرر عليه ، فما وسعه إلا أنه ترك ولده ملقى على شط الخليج وهرب ، فبات الغريق ليلتين حتى أكل الكلاب رجليه فلما بلغ السلطان تغير خاطره على ابن الطبلاوى وضربه بالمقارع . . »(2) .

« وفى شعبان وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصًا من المماليك الجراكسة كشف رأسه بين يدى السلطان فوجده أقرع ، فضحك عليه السلطان فقال لـه ذلك المملوك «اجعلنى والى القرعان يا مولانا السلطان ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، وأخرج له مرسوما سلطانيا بذلك ، وأن يكون شيخ القرعان ، وأخلع عليه خلعة ، فصار يدور فى الأسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أقرع فيأخذ منه دينارًا حتى أعيان الناس فضج منه أهل القاهرة وشكوه إلى السلطان فضحك ونادى فى القاهرة للقرعان بالأمان والاطمئنان وأن كل شيء على حاله . . . »(3) .

« وفيه ثار جماعة من العوام على المحتسب على بن القيس ورجموه . .)(4) .

« وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن السلطان أعاد إلى جماعة ما كان أخذه منهم من مال لما صار الناس فى التجريدة الأولى » . . فتعجبوا الناس نفسه من ذلك ، لكونه فعل هذا من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى فى المنام ما أوجب رد هذا المال على أربابه ، فكان حال الناس معه كما قال القائل فى المعنى .

كنا نؤمل أن ننال بجاهكم ... خيرًا يكون على الزمان معينًا
والآن نقنع بالسلامة منكم ... لا تأخذوا منا ولا تعطونا (5)

---

(1) بدائع الزهور الجزء الثانى ص٢٤ أحداث رمضان ٨١٨ .
(٢) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٤٠ أحداث شوال ٨٢١ هـ .
(٣) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ١١٤ أحداث شعبان ٨٣٠ هـ .
(٤) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٢٧٥ أحداث رجب ٨٥٣ هـ .
(٥) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٥٦ أحداث شعبان ٨٧٥ هـ .

« وفيه نودى من قبل السلطان بأن أحدًا لا يشكو أحدًا للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، وكـان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطـان حتى أن امرأة شكت زوجها للسلطان لأجل أنه وطئ جارية فى ملكه ، فما طاقت زوجته الغيرة فشكته إلى السلطان » (١) .

« وفيه ولدت امرأة أربعة من الأولاد فى بطن واحد ، وهم صبيان وبنتان وكان أبوهم فقيرًا فحملهم إلى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ورسم لأبيهم بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح (٢) .

ولكن شنعت عليه النـاس أن مصروف عمارة المدرسة كـان من وجـوه المظالم ومصـادرات الناس ، وأخذ أغلب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان ، وأخرب قاعة شموال اليهودى الصيرفى وأخذ أبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات ، وقد سمى بعض اللطفاء هذه المدرسة المسجد الحرام لما وقع فيها من غصـوبة الأرض ومصروف العمارة مـن مال فيه شبهـات ، وقد شنعوا الناس قبلـه على المؤيد شيخ لما بنى جامعـه الذى بجوار باب زويلة أكثر ما شنعوا على المـلك الأشرف قنصوة الغورى ، وأهـل مصر ما يطـاقون مـن ألسنتهم إذا أطلقـوها فى حـق الناس (٣) .

« وفيه وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصًا من أبناء التجار يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته فى بيته خشب وأحرقها بالنار لأمر وقع منها . . . » (٤) .

« وفيـه رسم السلطـان بشنق شخـص زغلى (٥) فشنـق على باب زويلـة ومـن الحوادث أن شخصًا شابًا يقال له سكيكر أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشىء فسجن بالقشرة حتى يكون من أمره ما يكون » (٦) .

« ومن الحوادث فى ذلـك اليوم أن امـرأة خرجـت تتفرج على السلطـان وكانـت حامـلا ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزل الولد من بطنها فى الحال » (٧) .

---

(١) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٦٣ أحداث ربيع الأول ٨٧٦ هـ .
(٢) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٧٢ أحداث ذى الحجة ٨٧٧ هـ .
(٣) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٥٣ أحداث ذى الحجة ٩٠٨ هـ .
(٤) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ١٠٠ أحداث جمادى الآخرة ٩١٢ هـ .
(٥) زغلى أى مزيف .
(٦) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ١٦٠ أحداث جمادى الأولى ٩١٥ هـ .
(٧) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٣٣٦ أحداث شعبان ٩١٩ هـ .

« ومن الحوادث أن شخصًا خياطًا يقال له نجا بن تمساح زنق صبيًا صغيرًا عمره عشر سنوات ، فزنقه فى بيت الجزيرة الوسطى ، فاستغاث الصبى فذبحه ذلك الخياط وأرماه فى البئر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبى على الخياط ، وعرضته على السلطان ، فاعترف بقتل الصبى ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط فى المكان الذى قتل فيه الصبى »[1] .

« وفرح كل واحد من الناس بسلطنته[2] ، وكان محببًا للعوام فإنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متجبر ، فلما انتهى أمر المبايعة أخلع السلطان على أمير المؤمنين يعقوب ونزل إلى داره فى موكب حافل ، وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن[3] .

« وفى يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ، وهو أن ملك الأمراء خاير بك أشهر النداء فى القاهرة بأن كل من رأى كلبًا يقتله ويعلقه على دكانه فبادرت الناس على القبض على الكلاب ، صارت التراكمة يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونهم نصفين بالسيوف فقتلوا فى ذلك اليوم ما لا يحصى من الكلاب » . .

« فلما تزايد الأمر فى قتل الكلاب ، طلع الزينى بركات بن موسى المحتسب إلى ملك الأمراء خاير بك وشفع فى الكلاب من القتل . . »[4] .

وفيه حضر شخص من حلب فهلوان ، ونصب فى بركة القرع التى بالجنينة صوارى وحبالاً ، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجم الغفير من الخلايق ، فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة فى صنعة الفهلوانية وهو واقف على الحبال ، منها أنه نصب له أوماج وبتيه وأرمى بالنشاب فى البتيه وهو واقف على الحبال ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعيناه مربوطتان بخرقة ، ومنها أنه مشى على الحبال وفى رجله قبقاب وتحته ألواح صابون . . . »[5] .

« وفيه وقعت حادثة شنيعة وهو أن شخصًا من العوام كان أصله مؤذنًا فدخل إلى بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعهم فى قفة فقبض عليه الخولى وحصل بينهما تشاجر ، فأغلظ عليه الخولى القول وأتى به إلى حيث الوالى وقص عليه أمره فطلع به الوالى وعرضه على ملك الأمراء وهو حامل القفة التى فيها الخيار الشنبر ، فلما علم ملك الأمراء

---

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٣٧٨ أحداث ربيع الآخر ٩٢٠ هـ .

(٢) يقصد طومان باى .

(٣) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ١٠٥ أحداث رمضان ٩٢٢ هـ .

(٤) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٤٩ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ هـ .

(٥) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٥٢ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ هـ.

بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع الخيار الشنبر وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه ، ثم أن ملك الأمراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق الخيار الشنبر »[1] .

« وفى يوم الاثنين ثامن عشر توفيت زوجة المقر الشهابى أحمد بن الجيعان وكانت جركسية الجنس تدعى شهسد دار وكانت مبدعة فى الحسن والجمال من أجمل النساء حسنًا ، فافتتن بها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان حتى أشغلته عن أمور أحوال المملكة ، قيل إنها كانت تحسن الضرب بالسبع آلات المطربة وهى : الجنك والعود والسنطور القانون والدرج والكمنجا والصينى . . »[2] .

وهكذا تنبض صفحات بدائع الزهور بأحداث الحياة اليومية المصرية خاصة فى الفترة التى عايشها ابن إياس ودون تاريخها يومًا بيوم ، ويمكن أن يحتوى بدائع الزهور من هنا على مرحلتين أساسيتين ، الأولى ينقل فيها ابن إياس عن كتب المؤرخين السابقين ، مع صياغة الأحداث بأسلوبه الخاص ، ثم ينتقل من الاعتماد الكلى على كتب السالفين إلى مرحلة الاعتماد على المعاينة والمشاهدة ويبدو هذا الانتقال واضحًا اعتبارًا من سنة ١٤٦٨ م (٨٧٢ هـ) وهى السنة التى بلغ فيها ابن إياس العشرين من العمر ، وخلال تلك الصفحات العديدة . . «أورد أخبار السلاطين والخلفاء والأمراء من سلطنة وولاية وعزل ووفاة وذكر أحوال الفئات المملوكية من ثورة أو ركود ، وكتب فى النظم الإدارية ، والأحوال الاجتماعية والأعياد الدينية وغير الدينية ، ووصف المواكب والأسمطه السلطانية ومواسم لعب الكرة والصيد وسجل مناسيب النيل زمن الفيضان والتحاريق وذكر الأرصاد الجوية مع خسوف القمر وكسوف الشمس وهبوب الرياح وسقوط الأمطار وشرح أحوال العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والأعيان والتجار ، وترجم للمتوفين منهم ترجمة طويلة أو قصيرة حسب المقام ، وذكر المنشآت والمبانى السلطانية والأميرية من مساجد وعمائر ورباع وقباب ومدافن ، وتتبع أخبار الأسعار اليومية وشئون المحاصيل والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس . . »[3] .

نلاحظ أن ابن إياس لم يكن يورد الخبر أو الواقعة بروح باردة ، أو يكتفى بالتدوين ، بل كان يبادر بالتعليق ، تعليق إنسان ذى روح مرهفة متأملة ، أقرب إلى الصوفية ، بل إن أسلوب تدوينه للأحداث التى سبق أن كتبها مؤرخون آخرون يختلف ، فهو يضفى الحيوية على

---

(١) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٥٥ أحداث جمادى الآخرة ٩٢٤ هـ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٣٣٩ أحداث جمادى الآخرة ٩٢٦ هـ .

(٣) الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ سلسلة تراث الإنسانية ، المجلد الثالث .

الحدث ، ويبدو هذا واضحًا فى حادثة قتل السلطان المؤيد لابنه إبراهيم بالسم ، إذا ما قارنا رواية ابن إياس للواقعة ، ورواية شهاب الدين ابن حجر العسقلانى لها فى كتابه « إنباء الغمر بأبناء العمر » .

كان ابن إياس شجاعًا أيضًا ، إذا فرض السلطان ضريبة على الناس هجاه بقصيدة ، أو ذكره بالكلام القاسى ، وبالتأكيد أن هذا كان يصل إلى حكام ذلك الزمان وكثيرًا ما يتحسر ابن إياس على ما جرى فى زمانه من جانب الحكام فى حق الرعية « حدث أن أصيب السلطان الغورى بارتخاء فى جفنيه هدده بالعمى عندئذ راح يرفع المظالم عن الناس وألغى عددًا من الضرائب ، فكثر له الدعاء بالشفاء ، وتمنى ابن إياس النجاة له ، وكلما زاد ارتخاء جفون السلطان كلما زاد عدله فى الناس ، وعم الرخاء ، وحدث أن أحد الأطباء داوى له عينيه ، وأصبح يرى كالعادة ، عندئذ عاد الحال إلى ما كان عليه فكثر الدعاء عليه من الناس ، وانتقده ابن إياس بشدة » .

وتبرز روح النقد هذه بشدة بعد غزو العثمانيين لمصر ، لقد اهتزت روح ابن إياس بما جرى فى أواخر عمره ، ، وبدأ ينزف أسى فى سطور الجزء الأخير من كتابه . لقد سار جنود العثمانيين كالبهائم فى الطرقات ، لا قائد لهم ، ولا نظام ، يلوطون بالغلمان ، ويخطفون النساء ويهتكون الأعراض ، وسجل ابن إياس ما فاضت به روحه فى قصيدة طويلة ، يرثى فيها ما جرى لمصر ، يبدؤها . . .

نوحوا على مصر لأمر قد جرى عمت مصيبة كل الورى

كانت روحه تغلى ، صحيح أن العثمانيين كانوا مسلمين ، وعندما طلب السلطان الغورى من المغاربة الخروج لحربهم قالوا نحن ما نحارب إلا الفرنجة ، لكن سيف العثمانيين لعب فى رقاب المصريين ، كانوا همجًا اجتاحوا مصر التى تباهى بملكها الملوك . وتسجل صفحات بدائع الزهور أول صيحات اليقظة الوطنية المصرية ضد المحتل فى تاريخها الحديث ، ولا يكتفى ابن إياس بقصيدته ، إنما يورد قصيدة أخرى لشاعر من عصره اسمه قانصوه بن صادق تدور حول نفس المعنى ، إن ابن إياس يصب سخطه على العثمانيين الغزاة الذين فعلوا بمصر ما لم يفعله بختنصر البابلى ، وكان أشد ما آلمه الخراب الذى حاق بالفلاحين وجعلهم يهجرون أرضهم ، وتحول مصر من سلطنة تحمى البحرين والحرمين إلى ولاية يعين حاكمها من استامبول ، إن الاحساس المتدفق بالوطنية المصرية لدى ابن إياس فى هذا الزمن البعيد ليهز الروح حتى الآن .

ولم يكتف ابن إياس بمهاجمة العثمانيين ، إنما قاطع احتفالاتهم ، وأعيادهم ، ويجب أن

نعلم أن مـا كان يكتبه ابن إيـاس كان يشيع ويعرف ، وقـد ظل الكتاب متداولاً فترة طـويلة تحت حكـم العثمانيين . وهكـذا تعتبر صرخـات ابن إيـاس ضـد العثمانيين أول احتجـاج فى التاريخ ضد هذا النوع الفظ من الاحتلال ، وطليعة الروح الوطنية فى الشرق العربى .

* * *

يتضـح من الكتـاب أن المؤلـف قرأ الكثير مـن الكتـب التى تـدور حـول تاريـخ مصر ، والموسوعـات التاريخية الكبيرة قبل أن يبـدأ فى تدوين كتـابه ، بدأ فى تـأليف كتابه حـوالى عام ١٤٩٣ م « ٨٩٩ هـ » . أى عنـدما كان يبلـغ الخامسة والأربعين من عمـره ، وفى هذه الفترة كانت المنطقة تمر بأحداث متلاطمة ، فمنذ أواخر سلطنة قايتباى والعداء أصبح سافرًا للدولة العثمانية بسبب انتصـار المماليك على العثمانيين فى أطراف آسيا الصغرى خمس مـرات متتالية ، وفى الشرق ظهر الخطـر البرتغالى على التجـارة المملوكيـة فى الهند بسبـب اكتشاف طـريق رأس الرجاء الصـالح .

والطريـف أن ابن إيـاس لما ظهر الفرنجـة فى المحيط الهندى قـدم تفسيرًا طريفًـا وهو «أن الفرنجة قد تحايلوا حتى فتحوا السد الذى بناه عليهم فيليب المقدونـى وتسربوا منه إلى المحيط الهندى » أمـا فى مصر فقد دب العطب إلى أوصـال السلطنة المملـوكية ، وإن سادهـا استقرار نسبى زمـن الغورى ، تلك بعض الملامـح العامة التى عـاشها المؤلف أثناء سنـوات نضجه ، وفى خضـم هذه الأحـداث كان متفـرغًا بصبر ودأب فى تصميـم كتـابه والإعـداد له وفى سنـة ١٥٠٨ م حدث مـا عكر عليه صفو حياته وهدده بعـدم اتمام الكتاب ، لقد ضاقـت أحوال السلطان الغـورى المالية ، فلجأ إلى حـرمان أولاد الناس من إقطـاعاتهم ، وذهب إقطـاع ابن إياس إلى أربعـة من المماليـك الصغار ، وكان ابـن إياس قد استطـاع بفضل هـذا الإقطاع أن يعيش عيشة راضية وأن يتفرغ للكتابة غير أنه لحسن الحظ لم يبق طويلاً بعيدًا عن أرضه ، فقد شكًا إلى السلطان ما حاق به ، واستجاب السلطان له ، استمر ابن إياس بعد ذلك فى تدوين زمنه حتى عام ١٥٢٢ م ، أى عندما بلغ السادسة والسبعين من عمره .

ويشير ابن إياس ، فى الجزء الثـالث « ص ١١٨ » إلى كتاب آخر له اسمه « نـزهة الأمم فى العجائب والحكم » ، ومن مؤلفاته الأخرى كتاب « عقود الجمان فى وقائع الأزمان » وهو كتاب صغير فى تاريخ مصر لا تربطه رابطة ببدائع الزهور ، وكتـاب « مرج الزهور فى وقائع الدهور » ويدور حول قصص الأنبياء والرسل وكتاب « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ويـدور حول الفلك وهيئة تركيب الكون .

* * *

يتميز أسلوب ابن إياس بتلقائية وحرارة ، وإيقاع هادئ فى السرد ، مهذب . ساخر كفكاهة المصريين ، بل إن فيه روحًا مصرية هادئة ، خاصة عندما يتحدث عن الزمان ، أو يسخر من الحكام ، إنه يبدأ فصول كتابه بجملة « رب يسر وأعن » ثم يمضى سرده هادئًا راسخًا كإيقاع الأيام فى زمنه : وإذا ما جرت حادثة ومضت بدون أن تترك أثرا يعلق قائلاً « ولم تنتطح فى ذلك شاتان » .

كما نجد كثيرًا من الألفاظ العامية فى جمله وهذه الألفاظ تضفى حيوية وحرارة على صياغته للحدث أو الخبر . وعندما يصف المطر تكاد تشعر به « فيها من المحرم فى رابعة : أظلم الجو وأمطرت السماء مطرا غزيرًا حتى أوحلت منه الأسواق واستمرت تمطر يومين متوالية » ، وعندما يظلم فقير ولا تجد قضيته من ينصفها يقول « وراحت على من راح . . . » .

وعندما يتجاهر الناس بالمعاصى وينادى فيهم السلطان بالكف عن ذلك يقول «فسمعوا من أذن وخرج من أخرى » ، وعندما يموت أمير ظالم يصف قائلاً « وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده » .

وعندما يستولى السلطان على ثروة أحد الأمراء يقول « واحتاط على موجودة من صامت وناطق » ، وعندما يقدم أحدهم رشوة يقول « وبرطل عليه برطيلاً كبيرًا . . . » وكلمة برطيل لا تزال تستعمل فى مصر بمعنى الرشوة ، وهو يلتزم الدقة فى تدوينه للأحداث فيقول مثلاً (وقد شاهدت ذلك بعينى) [1] عند وصف موكب السلطان ، أو يقول بعد سرده لما فرقه السلطان على المماليك « لم التزم صحة ذلك » [2] وعند كسوف الشمس يقول « وكسفت الشمس فى ذلك اليوم كسوفًا فاحشًا » ، وعندما تنتهى سنة يقول « وخرجت هذه السنة على خير » وعندما يعم الوباء « تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب » .

ويصف أحد الرجال عصره « كان الشيخ عبد الباسط ضنينًا بنفسه وعنده يحتل البعض مكانًا لا يتفق مع إمكانياته « فتلاعبت به الدنيا لكثرة هرجه ، وركب فيها فى غير سرجه » وعندما يتحدث عن السلطان كان حكمه مستقرًا « كانت الناس فى أيامه فى لهو وفرح وخلعة» .

إن المعلومات التى وصلتنا عن ابن إياس قليلة فعلاً ، ولكن شخصية المؤلف وروحه ،

---

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٤ .

ونبضه ، كل هذا موجود فى كل صفحات الكتاب حتى لتشعر بإيقاع الزمن ، وطريقة حديث أهل عصره ، وتعليقاتهم المصرية الصميمة ، ولاشك أن هذا يضفى تفردًا على ذلك المؤلف الذى كان قريبًا من الفن ، إذ حفظ لنا صفحات حية من عصره تنبض وتفيض وأنقذها من العدم .

* * *

تجب الإشارة إلى الجهد الرائع الذى قام به الدكتور محمد مصطفى « مدير متحف الفن الإسلامى سابقًا » فى نشر بدائع الزهور ، هذا الجهد الذى استغرق عمرًا ، لقد دعاه الدكتور باول كاله عام ١٩٢٨ إلى الاشتراك معه فى نشر الكتاب ، تم بالفعل نشر الأجزاء الثالث والرابع والخامس فى سلسلة النشرات الإسلامية التى تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية ، وتتناول هذه الأجزاء تاريخ مصر وتسرد الوقائع الهامة اعتبارًا من سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) حتى سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . على اعتبار أن ابن إياس كان المؤرخ الوحيد تقريبًا الذى عاصر هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد .

* * *

وكان من الغريب أن يصدر هذا الكتاب الهام بعيدًا عن وطنه ، ولكنه أصبح أخيرًا متاحًا للدارسين والقراء ، بعد أن أصدرته الهيئة العامة للكتاب ، وكان هذا قرارا اتخذه المرحوم الشاعر صلاح عبد الصبور رحمه الله وجزاه خيرًا ، وأخرجه إلى حيز التنفيذ الدكتور عز الدين إسماعيل رئيس الهيئة العامة للكتاب حاليًا .

تـاريخ الـتراث العـربى لسـزكين

اكتشفت الكتـاب أثناء زيارتـى لجامعة مارتين لوثـر بمدينة هـالة فى ألمانيا ، تعـرفت على الدكتور عـرفة مصطفى وهو استاذ أصلاً فى جـامعة الأزهر يدرّس اللغات القديمـة المندثرة . وفى مكتبته الخاصة أطلعنى على الجهد العلمى الذى يقوم به مـن أجل ترجمة موسوعة « تاريخ التراث العربـى » للعلامة التركـى فؤاد سزكين بـالمشاركة مـع أساتذة آخـرين . منهم الـدكتور محمود فهمى حجازى . والدكتور سعيد عبد الرحيم .

أطلعنى على الأصل الألمانى . ويقع فى ثمانية مجلدات ، مـا تم حتى الآن ترجمة مجلدين من الأصـل ، صدرا فى عشرة مجلدات باللغة العربيـة ، أشرفت على المشروع ، ومولته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وما زال العمل مستمرًا .

بعد عـودتى إلى القاهرة أرسلـت خطابا إلى الجامعة ، إلى رئيسهـا الدكتور عبد الله بـن عبد المحسـن التركى ، أخبرتـه اهتمامى بـالكتاب ، وتعـذر الحصول عليـه فى القاهـرة ، وأبديـت استعدادى للحصول على نسخة وفقًا لأية شروط .

بعد عشرة أيام فقط ، فوجئت بخطاب من المسئول عن إدارة المكتبات بالجامعة يطلب منى التوجـه إلى مطار القاهـرة لاستلام نسخة أرسلـت كهديـة مضيت إلى المطار لأعـود بمجلدات الكتاب العشرة ، وكأنـى حصلت على كنز نفيس ، فقيمة الكتاب لاتعـادلها قيمة أخرى مهما كانت .

ماذا نجد فى هذه الموسوعة ؟

* * *

يقول الـدكتور عبد الله بـن عبد المحسن التركى فى مقـدمة المجلد الأول « إن هـذا الكتاب «تاريخ التراث العربى » يكشف بجلاء عظمة تاريخنا الثقافى الممتد عبر القرون ، ويؤكد اهتمام سلفنا رضى الله عنهم ، بالبحث ونشر العلم .

« وكان قد سبق للهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة إصدار المجلد الأول من الكتاب فى جـزأين بترجمة الـدكتوريـن فهمى أبـو الفضل ومحمـود فهمى حجـازى . ثم تـوقف اصـدار

الكتاب ، لذلك صحت عزيمة الجامعة على ترجمة ونشر المجلدات الخاصة بعلوم القرآن والحديث والفقه والعقيدة والتاريخ والشعر العربي واللغة والنحو والبلاغة والنثر الفني والعروض والأدب والفلسفة والمنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة والاجتماع . واسندت ترجمة المجلد الأول إلى الدكتور محمود فهمى حجازى ، وترجمة الجزء الثانى إلى الدكتور عرفة مصطفى . كما عهدت إلى اساتذة متخصصين فى الجامعة قراءة الترجمة العربية للكتاب . وقامت إدارة الثقافة بالجامعة على طبعه ونشره . . . » .

* * *

إذن ، خصص الجزء الأول من المجلد الأول ، لعلوم القرآن والحديث ، ويقع فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، يقول المؤلف فؤاد سزكين فى المقدمة العامة للكتاب إنه كان قد عقد العزم منذ سبعة عشر عامًا على عمل ملحق بمخطوطات مكتبات استامبول يضيفها إلى الكتاب الشهير لبروكلمان « تاريخ الأدب العربى » وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية وصدر عن دار المعارف بالقاهرة فى خمسة أجزاء ، يقول سزكين إنه لم يكن يدرى أنه مقدم على مغامرة كبرى ، فبعد فترة من الزمن قرر المستشرق رشر O.Resher ، وهو حجة فى تاريخ التراث العربى أن يشترك فى هذا العمل ، وأن يقدم للبحث والدراسة كل المادة التى جمعها منذ زمن بعيد ، وخاصة أثناء عمله بالمكتبة السليمانية باستامبول ، عندئذ قرر سزكين عدم الاكتفاء بالخطة السابقة ، إنما جمع كل ما يمكن جمعه من المواد والفهارس . والدراسات التى ظهرت بعد كتاب بروكلمان ، وكذلك من دراساته الخاصة للكتب المطبوعة . ومجموعات المخطوطات . عندئذ تنازل العلامة رشر لسزكين عن هذه المواد ، وتخلى عن المشاركة فى العمل ، فالعمل ضخم ، غير واضح المسار والنهاية ، وكان الأستاذ رشر قد تقدم فى العمر كثيرًا .

* * *

إذن . . انفرد سزكين بالعمل فى هذه الموسوعة ، وعندما انتهى من الجزأين الأول والثانى وأعدهما للطبع . اتضح انهما فى الحقيقة عمل جديد مستقل عن كتاب بروكلمان ، لقد درس سزكين كل المواد المتاحة وحققها ، وراجع ما ذكره بروكلمان وأضاف إليه مجموعة كبيرة من المعلومات المكملة مثل تاريخ المخطوطات . وعدد أوراقها وصفحاتها .

لقد ذكر أولاً المخطوطات التى قدمها بروكلمان ، واتبعها بمخطوطات جديدة عثر عليها .

يقول فؤاد سزكين :

« وقد كان من الممكن أن يخرج هذا الكتاب فى صورة أحسن وأكمل لو أتيحت لى فرصة الحصول على مساعدات مالية ، فجل رحلاتى العديدة فى أنحاء أوروبا ، وإلى شمال أفريقيا ،

وكذلك إلى الشرقين الأدنى والأوسط حتى إلى الهند ، انفقت عليها من مالى الخاص ، وكذلك ما تكلفته للعديد ممن ساعدونى ، وما دفعته ثمنًا للمراجع والفهارس ، وتصوير المخطوطات ، واستخراج المقالات من المجلدات العلمية . وقبل سنوات رصدت هيئة اليونسكو مبلغًا لتساعد فى إخراج كتاب « بروكلمان » إخراجًا جديدًا . ولكن اللجنة المكونة لهذا الغرض أرجأت البت فى هذا الموضوع حتى تبحث ما إذا كان عمل هذا يمكن أن تشمله هذه المساعدة أم لا . ولكن الموضوع كان يؤجل ، ولعل السبب الحقيقى لهذا التأجيل أنهم رأوا وجوب اشتراك مجموعة من العلماء فى عمل كهذا يقوم كل واحد منهم ببحث مجال بعينه من مجالات المخطوطات العربية ولا جدال أن إنسانًا واحدًا لا يستطيع أن يمتلك زمام كل مجالات التراث العربى ، ولكنى رأيت بنفسى تعذر إمكانية اشتراك مجموعة من العلماء ، وفوق ذلك فإن اقتناعى يزداد كل يوم بأن دراسة التراث العربى لم تتقدم بعد تقدما كافيًا ، يتيح لنا الاتفاق على زمن نشأة فروع العلوم العربية المختلفة ، التى تبحث فى هذا الكتاب ، وهذا الاتفاق هو الشرط الأساسى للقيام بعمل جماعى كهذا . وربما يطول انتظارنا حتى يمكن تحقيق مثل هذا العمل الجماعى ، فلابد أولاً من تكرار جهود عدد من العلماء يبحث كل واحد منهم ـ على حدة ـ المواد الجديدة . ويجمع الدراسات الحديثة هكذا . قام الأستاذ فؤاد سزكين بهذا الجهد العلمى الضخم بمفرده .

* * *

خصص الجزء الأول من المجلد الأول كما أشرت لعلوم القرآن والحديث ، يذكر المؤلف أولاً كتب القراءات فى العصر الأموى ، فيترجم لكل من قرأ القرآن فى العصر الأموى ، فيذكر تعريفًا به وبحياته ، ثم مصادر ترجمته ، ثم آثاره المكتوبة .

ثم ينتقل إلى العصر العباسى . حيث شهد هذا العصر تطورًا فى الدراسات اللغوية خاصة فيما يتعلق بشرح المواضع المشكلة فى القرآن الكريم ، وكانت مراكز هذه الدراسات فى البصرة والكوفة والحجاز .

ثم يقدم كتب التفسير فى العصر الأموى ، والعصر العباسى .

الباب الثانى يخصصه لعلم الحديث ، مناهجه . وتطوره ، فى صدر الإسلام ، ثم فى العصرين الأموى والعباسى ، ونجده يترجم لكل علماء الحديث النبوى الشريف ، يذكر تراجم لحياتهم ، ومؤلفاتهم ، ومصادرهم ، والمخطوطات المتبقية فى عصرنا الحديث . أماكنها ، وأرقامها فى المكتبات .

الجزء الثانى من المجلد الأول ، خصص للتدوين التاريخى عند العرب . تناول ، تاريخ

الجاهلية فى العصر الأموى ، ثم العباسى ، ثم درس تدوين التاريخ العام وتاريخ الدولة الإسلامية . وحركة التأليف التاريخى فى العصر العباسى ، والتاريخ المحلى ، وتاريخ المدن ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ المدن فى وسط الجزيرة العربية وجنوبها ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ مدن الشام ، والتاريخ المحلى وتاريخ المدن فى العراق ، والتاريخ المحلى وتاريخ المدن فى إيران والشرق ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ المدن فى مصر والمغرب ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ المدن فى الأندلس ، ثم يتناول التاريخ الثقافى ، وأخيرًا . . حركة التأليف فى العصر العباسى .

ونجد استمرارًا لنفس منهج الكتاب ، حيث يورد مقدمة عامة للموضوع ، ثم يتناول المؤلفين ، يذكر ترجمة كل منهم ومصادر ترجمته ، وآثاره ، وأين توجد ، إذا كانت مخطوطة . وأين طبعت إذا كانت مطبوعة . وحتى يتضح أكثر منهج المؤلف ، ونقف على الجهد الهائل الذى بذله سأورد نموذجًا من الجزء الثانى من المجلد الأول .

* * *

الجهشيارى

هو أبو عبد الله . محمد بن عبدوس بن عبد الله الجهشيارى . أصله من الكوفة ، نشأ مع أبيه فى بغداد ، وكان أبوه حاجبًا للوزير على بن عيسى ، فخلفه على الحجابة له ، ثم للوزير حامد بن العباس فى خلافة المقتدر بالله ، وتوفى فى بغداد سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م .

(أ) مصادر ترجمته :

مروج الذهب للمسعودى ٨/ ٢٤٩ الفهرست لابن النديم ١٢٧ ، ٤٢٧ ، الوافى بالوفيات للصفدى ٣/ ٢٠٥ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣/ ٢٨٩ . أخبار الراضى بالله ـ تحقيق كانار ـ الجزائر ١٩٤٦ ، ١/ ١٤٣ . الأعلام للزركلى ٧/ ١٣٥ . معجم المؤلفين لكحالة ١٠/ ٢٧٥ وانظر بروكلمان ملحق ١/ ٢١٩ .

ـ كتب سورديل عنه فى دائرة المعارف الإسلامية .

ـ كتب عنه لاتس رسالة جامعية .

(ثم يورد عنوان الرسالة ، والجامعة ، وتاريخ مناقشتها) .

(ب) آثاره :

« كتاب الوزراء والكتاب » .

لم يصلنا إلا قسم مخطوط منه . يوجد مخطوطًا منه فى : المكتبة الوطنية بفيينا ٩١٦ (٢٠٤ ورقة ، ٥٤٦ هـ) .

نشره منشك .

وحققه مصطفى السقا ، إبراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبى القاهرة ١٩٣٨ وجمع مواد القطع المقتبسة عنه فى الكتب المطبوعة وذلك فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٨ / ١٩٤٣ / ٣١٨ ـ ٣٣٢ .

وجمع سورديل قطعًا أخرى من مخطوطين اثنين . وكتب بها بحوثًا جديدة عن القسم الثانى من كتاب الوزراء والكتاب .

وكتب سورديل أيضًا عن القيمة الأدبية والوثائقية لكتاب الوزراء ، والكتاب اعتماد خاص على الفصل الخاص بهارون الرشيد .

* * *

وهكذا . نجد هذه الدقة العلمية مع الشعراء ، والكتاب ، والعلماء ، والحفاظ ، والفلاسفة ، والأطباء ، والحكماء ، والمنجمين ، ورجال البحر ، أى أن الكتاب موسوعة موثقة ، علمية ، لسائر مؤلفات التراث العربى ، وسجل دقيق فريد لكل ما نشر منه ، والدراسات التى وضعت عنه ، والمخطوطات التى لم تنشر منه .

فى الجزء الثالث من المجلد الأول نجده مخصصًا للفقه ، أما الجزء الرابع فمخصص للعقائد والتصوف .

المجلد الثانى كله يتكون من خمسة أجزاء ، مخصص للشعر ، الأول يتضمن مقدمة ودراسات ، والثانى مخصص للشعر فى العصر الجاهلى ، والثانى للشعر فى صدر الإسلام ، والثالث للعصر العباسى ، والرابع للعصر العباسى أيضًا ، والخامس لشعراء مصر والمغرب والأندلس فى العصر العباسى .

كذلك طبع من الكتاب جزء خاص مستقل يتضمن قوائم بجميع مجموعات المخطوطات فى مكتبات العالم .

حتى الآن صدرت عشرة مجلدات من الترجمة العربية ، ومن المنتظر صدور بقية الأجزاء تباعًا ، فتحية للمؤلف فؤاد سزكين ، وتحية لمن ترجم ، وتحية لمن دعم وأصدر هذا السفر الموسوعى الجليل الذى يبرز عظمة الحضارة العربية .

الفهـــرس

رقم الايداع : ٩٧/٤٠٩٣
I.S.B.N. 977 - 09 - 0380 - 9

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

منتهى الطلب إلى تراث العرب

إزاء ندرة المصادر، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربى، وتعثر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة، فكرت فى التعريف بمصادر تراثية ربما يصعب الحصول عليها الآن ، إما لندرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية .

لذا فكرت فى إعداد عروض وافية لعدد من هذه المصادر المهمة ، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها . فإذا اهتم قارئ بكتاب معين ، فليتجه إليه ولا يعانى ما عانيناه فى البحث عنه . وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التى طبع فيها الكتاب .

وقد آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة فى الأدب ، والتاريخ ، والفن الحربى ، على أن أتبع هذا المجلد بآخر أخصصه للتعريف بكتب التراجم فى التراث العربى ، وثالث أقدم فيه مصادر القص العربى ، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العمارة الإسلامية من القدماء والمحدثين . راجيًا بذلك أن أكون قد أسهمت بجهد ضئيل فى التعريف بتراثنا العربى ومصادره التى يصعب الوصول إليها والعثور عليها ، يومًا بعد يوم ، متمنيًا من الله العلى القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نطمح إليه من التعريف بتراثنا العريق الذى يحيا فينا ولا نراه .

جمال الغيطانى